وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة واسط/ كلية التربية
قسم التاريخ

الرأي العام في العراق في عصر السيطرة السلجوقية
٤٤٧ – ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ – ١١٩٣م

أطروحة قدّمها
ثامر نعمان مصطاف

إلى مجلس كلية التربية/ جامعة واسط
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

بإشراف
أ.د فاضل جابر ضاحي

١٤٣٢هـ ٢٠١١م

إقرار المشرف

أشهد أن إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ(الرأي العام في العراق في عصر السيطرة السلجوقية ٤٤٧ – ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ – ١١٩٣م) التي قدّمها الطالب ثامر نعمان مصطاف، جرى تحت إشرافي في كلية التربية/ جامعة واسط، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي.

التوقيع:

الاسم: أ.د فاضل جابر ضاحي

التاريخ: / / ٢٠١١

إقرار رئيس القسم

بناءاً على التوصية المقدمة من قبل الأستاذ المشرف. أرشح هذه الأطروحة للمناقشة.

التوقيع:

الاسم: أ.م.د فاهم نعمه إدريس

التاريخ: / / ٢٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

(([illegible]

[illegible]))

صدق الله العلي العظيم

آل عمران/ ١٠٤

الأهداء

إلى ...

* مَنْ كانت لي عوناً وسنداً ... زوجتي.

* أمل المستقبل ... أولادي

حسين ... كرار ... زهراء ... زين العابدين

أهدي ثمرة جهدي هذا.

شكر وتقدير

أحمد الله وأشكره على نعمه التي لا تُحصى، ويسرني بعد ذلك أن أسجّل عظيم شكري، وبالغ تقديري إلى الأستاذ الدكتور فاضل جابر ضاحي الذي تعهّد بالإشراف على إعداد هذه الأطروحة وتابع خطى البحث ممداً صاحبها بتوجيهاته السديدة، وملاحظاته العلمية القيّمة التي انعكست آثارها على البحث.

كما أتقدم بشكري وامتناني إلى أساتذتي في المرحلة التحضيرية من الدراسة وهم الأستاذ الدكتور عطا سلمان جاسم والدكتورة سادسة حلاوي والدكتور طالب محيبس الوائلي والدكتور رضا هادي عباس فجزاهم الله عني الجزاء الأوفى.

وأود أيضاً أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى السادة علي خوير مطرود وعبد علي عبيد وعلاء الدين زايد وفرحان علي وحازم جابر ذهب على الجهود التي بذلوها في تذليل عقبات البحث.

وأتقدم بالشكر الجزيل لمنتسبي مكتبة جامعة واسط، ومكتبة كلية التربية، والمكتبة المركزية في الكوت، والمكتبة الوطنية والقادرية في بغداد، والمكتبة المركزية في جامعة بغداد، الذين أبدَوا كل التسهيلات بغية حصولنا على المصادر المبتغاة والاستفادة منها.

كما أسجل شكري لكل شخص بذل جهداً خدم به البحث وجزى الله الجميع خير الجزاء، والحمد لله ربِّ العالمين.

الرموز والأشارات المستخدمة في الأطروحة

الرمز	**دلالته**
ت	سنة الوفاة
ج	جزء
د – ت	بدون تاريخ
ص	صفحة
ط	طبعة
ق	قسم
ل . م	لا يوجد مكان طبع
م	ميلادي
مج	مجلد
هـ	هجري
صفحة	P. Page
جزء	Vol. Volume

المحتويات

المحتويات

المقدمة

نطاق البحث وتحليل المصادر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. تتناول هذه الدراسة مواقف الرأي العام في العراق في عصر السيطرة السلجوقية ٤٤٧ – ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ – ١١٩٣م.

والرأي العام ظاهرة عالمية لها تأثيرها الكبير في توجيه الأحداث العامة لاسيما السياسية منها، من خلال تقويم أداء السلطة من حين إلى آخر، ولم تكن هذه الظاهرة وليدة عصرنا بل هي قديمة. وفيما يتعلق بالمدّة موضوعة البحث فقد اتصفت الأوضاع العامة بالفوضى والاضطراب نتيجة تدخل السلاجقة في كافة ميادين الحياة، فأصبحت هذهِ الحقبة مليئة بالأحداث والتناقضات والسلبيات التي أثّرت في الرأي العام في العراق ولاسيما في بغداد باعتبارها حاضرة الدولة العربية الإسلامية.

وقد حاولنا في هذا البحث أن نتناول موضوعاً قلّما تناولته أقلام الباحثين من قبل، فوقع اختيارنا على الرأي العام في المدّة المذكورة أعلاه.

إن أهمية الموضوع تتأتى من خلال الكشف عن أثر الرأي العام المتمثل بموقف الرعية، والسلطة، والأعيان، وبعض أقطاب الطبقة الحاكمة من الأحداث السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والشخصيات التي اشتركت في تلك الأحداث، مع بيان اتجاهات الرأي العام وأهميته ودوره في صنع القرارات التي تهم الشؤون العامة.

وتأتي هذهِ الدراسة مكملة للبحوث والدراسات التي سبق وأن تناولت موضوع الرأي العام في العصور الإسلامية. ومن هذهِ البحوث دراسة الأستاذ محمد عبد الرؤوف بهنسي الموسومة **(الرأي العام في الإسلام)**، ودراسة الدكتور عادل الآلوسي في مؤلفه المعنونة **(الرأي العام في القرن الثالث الهجري)**، ودراسة الدكتور فاضل جابر ضاحي وإسراء مهدي مزبان المعنونة **(الرأي العام في عصر المماليك)**.

اشتملت هذهِ الدراسة على تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة. فبعد المقدمة وتحليل المصادر تطرقنا في التمهيد إلى مفهوم الرأي العام وأنواعه، وذكرنا فيه أهم تعريفات

الرأي العام عند المفكرين العرب والأجانب، وأنواع الرأي العام، ومن ثم مقوّمات الرأي العام باختصار، وأشرنا في نهايته إلى التعريف المتّبع في خطة بحثنا.

وقد كرّس الفصل الأول لدراسة الأوضاع العامة في العراق في عصر السيطرة السلجوقية وأثرها في تكوين الرأي العام، واقتضت الدراسة أن نتناول في المبحث الأول الأوضاع السياسية العامة بدءاً من تكوين دولة السلاجقة ودخولهم بغداد وسيطرتهم على العراق، وعلاقتهم بالخلافة العباسية والرعية وأثرها في بلورة الرأي العام. وتناول المبحث الثاني الأوضاع الاجتماعية (التباين الاجتماعي) إذ ذكرنا فيه طبقات المجتمع وسماته، والتفاوت الكبير بين طبقتي الخاصة والعامة ونتائجها في تكوين الرأي العام، ثم عناصر المجتمع المختلفة التي سكنت العراق، وذكرنا كذلك الفئات الدينية وأولها المسلمون، وأهل الذمّة من النصارى واليهود وبعض الأقليات الدينية الأخرى. وتضمّن المبحث الثالث دراسة البنية الفكرية للشخصية العراقية وأثرها في تكوين الرأي العام فدرسنا الشخصية العراقية، وتأثير الأوبئة والكوارث فيها، ثم مظاهر البذخ والترف، وظاهرة السلب والنهب، وتأثير هذه الظواهر على الرأي العام. أما المبحث الرابع فقد تناول الأوضاع الاقتصادية في العراق وهي الزراعة، والتجارة، والصناعة، ومميزاته، مع ذكر عوامل التخريب لأسس الاقتصاد وأثرها في تكوين الرأي العام.

وتطرقنا في الفصل الثاني إلى تجاوزات السلطة وأثرها في استفزاز الرأي العام، وذكرنا في المبحث الأول تجاوزات السلاطين السلاجقة وأتباعهم من الأمراء والجند، وتأثير هذهِ التصرفات على الرأي العام المتمثل بسلطة الخلافة والرعية، وموقف أهل العراق من ذلك، ووسائل التعبير عن الرأي العام تجاه تلك التجاوزات مع ذكر نتائج تلك المواقف. وضم المبحث الثاني تجاوزات بعض وزراء الخليفة والسلطان وأثرها في استفزاز الرأي العام وإثارته، وردود الفعل ونتائجها من لدن العوام. ودرس المبحث الثالث تجاوزات كبار الموظفين مثل الشحنة والعميد، والفساد الإداري لكبار الموظفين التابعين للسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية وأثره في سخط الرأي العام، ودوره في الحد من تلك التجاوزات.

أما الفصل الثالث فقد بحث في الرأي العام من أعمال السلب والنهب والاغتيالات، إذ شهدت مدن العراق سلسلة من هذهِ الأعمال التي أدّت إلى تكوين الرأي العام تجاهها. وتطرق المبحث الأول إلى موقف الزعامات المحلية والقبائل البدوية الذين شنوا سلسلة من الاعتداءات على مدن العراق وقوافل الحجّاج لغرض السلب والنهب، ودور الرأي العام في القصاص من المعتدين والحد من تلك الانتهاكات. وتناول المبحث الثاني ظهورالعيارين الذين نشطوا في أثناء ضعف السلطة وفقدان حالة الأمن، وكانت لأعمالهم التخريبية في النهب والقتل أثر في تذمّر الرأي العام الذي لم يصمت أمام تلك التجاوزات، بل عبّر عن سخطه بمختلف الوسائل، وعمل على الحد من تلك الانتهاكات. وجاء المبحث الثالث ليدرس الرأي العام المتعلّق بالخلافة، والسلطنة والعوام تجاه سياسة وأفكار الإسماعيلية (النزارية) وعمليات الاغتيالات التي قامت بها ضد الشخصيات السياسية والدينية في العراق.

أما الفصل الرابع والأخير فقد عقدناه عن الرأي العام تجاه الشخصيات الدينية والظواهر الاجتماعية، إذ أثّرت بعض الشخصيات الدينية والظواهر الاجتماعية على الرأي العام سلباً وإيجاباً، فبعضها عمل على كسب الرأي العام، وبعضهم الآخر عمل على التأثير في سخط واستياء الرأي العام، فتطرقنا في المبحث الأول إلى الرأي العام تجاه الفقهاء الذين كانت تقع على عاتقهم قيادة المسلمين الدينية. وخصص المبحث الثاني لمجالس الوعظ وأثر الوعّاظ في التأثير على الرأي العام، ومدى تأثيرهم في العوام من خلال معرفة نتائج تلك المجالس على الرأي العام. ودرس المبحث الثالث ظاهرة المنكرات والمفسدات المتمثلة بمجالس اللهو والمجون وشرب الخمر، والإقبال على النساء، ودورها في إثارة الرأي العام الذي عمل بكل الوسائل للحد من تلك الظاهرة المرفوضة. وخصص المبحث الرابع للفتن الدينية والمذهبية التي ظهرت نتيجة التعصب الديني وصراع أهل العلم فيما بينهم وتأثيرها على الرأي العام، ودور السلطة والفقهاء والعوام للحد من تلك المنازعات. وجاءت الخاتمة لتسجّل أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

اعتمدت الدراسة على مصادر أساسية، ومراجع حديثة تراوحت بين الكتب التي عنيت بتاريخ السلاجقة بصورة خاصة، وبين الكتب التي تطرقت إلى الأحداث العامة في العراق في أثناء السيطرة السلجوقية ، وسنذكر هنا قسماً منها.

أولاً: كتب التاريخ العام. وهي من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث ولعلَّ أبرزها.

١. **المنتظم، في تاريخ الملوك والأمم،** لأبي الفرج عبد الرحمن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) الذي ولد وعاش ببغداد، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن كاتبه كان قريباً لكثير من الأحداث ومعاصر ومشاهد لجانب مهم منها، كما أنه أكّد في أخباره على تاريخ العراق وخاصةً بغداد. وقد أمدّنا بمعلومات مهمة عن الرأي العام في العراق تجاه الأوضاع العامة، وفي تراجم العديد من الشخصيات. وكانت طريقة المؤلف في عرض الأخبار تعتمد على أسلوب الحوليات بذكر أحداث كل سنة على حدة، وفي نهايتها يذكر وفيات الشخصيات والأعيان، وكانت الأجزاء الثلاثة الأخيرة (١٦، ١٧، ١٨) هي التي اعتمدنا عليها في جميع فصول هذا البحث.

٢. **تاريخ دولة آل سلجوق،** لأبي عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) وقد شغل المؤلف مناصب إدارية في العراق منها إدارته للبصرة ثم واسط نيابةً عن الوزير ابن هبيرة. لذلك فإن ما دوّنه المؤلف في كتابه عن الأحداث السياسية والإدارية للعراق في تلك المدّة يُعد من أوثق ما وصل إلينا لأنها كتبت عن خبرة ودراية وإلمام من أديب ومؤرخ وإداري عاصر الأحداث ودوّن عن الشخصيات المهمة التي شاركت في موضوع الرأي العام في عهده، وقد أفاد البحث في معظم فصوله.

٣. **راحة الصدور وآية السرور،** لمحمد بن علي بن سليمان الراوندي (ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) وهو من المصادر الفارسية المترجمة للعربية. وقد أفادنا في الفصل الأول حيث تناول أخبار السلاجقة منذ قيام دولتهم حتى سقوطها، كما تطرق إلى علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية وتأثيرها على الرأي العام. وتأتي أهميته في أسلوبه الذي امتاز بالبساطة والوضوح، كما أنه انفرد بمعلومات فريدة عن السلاجقة، وذلك

لمعاصرته بعض سلاطين سلاجقة العراق فضلاً عن عمله في دواوينه. إلاّ أن ما يؤخذ على الراوندي أنه لا يمحص أخباره، فضلاً عن طابع المبالغة فيها، كما أنه لا يذكر الأحداث متسلسلة بل يتخللها كثيراً من الأمثلة والأشعار، فتبدو متقطعة مما يستدعي الانتقال لمتابعة سير الأحداث.

٤. **زبدة التواريخ المعروف بـ (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية)**، لصدر الدين علي بن ناصر الحسيني (ت بعد ٦٢٢هـ/ ١١٢٥م) وهو من مصادر البحث الرئيسة، والمؤلِّف يدوّن تاريخ سلاطين السلاجقة سلطاناً بعد آخر، وذلك على خلاف نظام الحوليات، كما أنه كان متأخراً ونقل معلومات من الراوندي، لكنه لم يعتمد أسلوبه الذي يميل إلى تضمين كلامه الكثير من السجع، والشعر، والنثر. وقد أفادنا في الفصول الثلاثة الأولى من البحث حيث أمدّنا بمعلومات مهمة في الفصل الأول عن الأوضاع السياسية لدولة السلاجقة وعلاقتهم بالخلافة والعوام، وتأثيرها في تكوين الرأي العام في العراق، كما أفادنا في تراجم بعض الشخصيات المهمة التي عاصرت الأحداث في عصر السلاجقة. وأورد لنا معلومات مفيدة دخلت في ثنايا الفصل الثاني والثالث ومنها الرأي العام تجاه سياسة السلاطين السلاجقة وأمرائهم وجندهم. وعلى الرغم من أن الحسيني لم يعتمد التسلسل التاريخي في ذكر الحوادث، ولم يذكر مصادره التي اعتمد عليها، إلاّ أنَّ رواياته وأخباره تميزت بالصدق والدقّة واتضح لنا ذلك عند مقارنتها بما ذكره ابن الأثير في الكامل، وهذا يدل على اعتماده مصادر موثوقة.

٥. **الكامل في التاريخ**، لعز الدين بن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) وهو من مصادر التاريخ الإسلامي العام المهمة، تناول فيه الأخبار بشكل دقيق ومرتبة حسب السنين. وتكتسب المعلومات التي أوردها عن العراق في تلك المدّة أهمية خاصة لاقترابه منها شخصياً، وأصبح هو مصدراً مباشراً للأخبار. كما أن المؤلف وضع في أخباره الأسباب وعلل النتائج. وقد أفاد البحث في جميع فصوله حيث أمدّنا بمعلومات عن ظهور السلاجقة وقيام دولتهم والأوضاع العامة المتردية في العراق في تلك المدّة وتأثيرها على الرأي العام، والمواقف من تجاوزات السلاجقة وكذلك

الشخصيات والظواهر الاجتماعية، ونتائج تلك المواقف على الرأي العام، فضلا عن ترجمة العديد من الأعيان الذين وردوا في البحث.

٦. **تاريخ دولة آل سلجوق**، لمؤلفه الفتح بن علي بن محمد البنداري (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، وهو من المصادر المهمة الأخرى التي أفادت البحث. وتكمن أهميته كون مؤلفه ينحدر من الطبقة الإدارية لدولة السلاجقة، وأنه عاصر كثيراً من الأحداث المهمة التي تناولها البحث، كما أنه عاش وعمل في العراق ودرّس في المدرسة النظامية، وتولى مناصب إدارية لدى الخلفاء لاسيما المقتفي لأمر الله. ومما زاد من أهميته هو أن مؤلفه امتاز بالدقّة والأمانة في سرد الأحداث التاريخية وذلك لذكره المصادر التي أخذ منها، لذا فإن المعلومات التي أوردها المؤلف اكتسبت ميزة خاصة، على الرغم من أسلوب الكاتب الذي غلب عليه السجع وبعض التشويهات التي تربك القارئ أحياناً لمعرفة الهدف أو المعنى المقصود. والمعلومات التي احتواها الكتاب توزعت على الفصلين الأول والثاني، كأفادنا في توثيق المعلومات الخاصة بتجاوزات السلاطين السلاجقة وأتباعهم من الأمراء والجند على الخلافة والرعية، والوسائل التي اتبعها الرأي العام للحد من تلك التجاوزات.

٧. **تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) من كتب التاريخ العام المهمة، وذلك أن اتجاه المؤلف يغلب عليه علوم الدين والحديث، وقد دخل التاريخ من هذا الباب، فهو يذكر إسناده أو المصدر الذي اعتمد عليه دائماً للتوثيق، وترك العهدة على الراوي. وقد رتب كتابه على الطبقات، وعدَّ الطبقة عشر سنوات، فذكر الحوادث بشكل حولي سنة بعد أخرى مع وفياتها باختصار، وفي نهاية الطبقة يعود فيذكر تراجم الوفيات مطوّلة ومنظمة على حروف المعجم. ورتب كتابه على سبعين طبقة ينتهي بأحداث سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م. وقد افاد الدراسة في جميع فصولها المتعلقة بالرأي العام، حيث ذكر لنا الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية وتأثيرها على الرأي العام، فضلاً عن توثيق التراجم العديدة للشخصيات التي وردت في ثنايا البحث.

أما كتابه الآخر (**العبر في خبر من غبر**) في خمسة أجزاء ، اعتمد فيه نظام الحوليات، وقد أورد الذهبي معلوماته بشكل مختصر أفادتنا في توثيق المعلومات عن الأحداث العامة في العراق وأهميتها في تكوين الرأي العام.

٨. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان،** في أربعة أجزاء لعبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت٧٦٨هـ/ ١٣٣٦م) وهو من المصادر المهمة، إذ أفاد الدراسة بالكثير من المعلومات في معظم فصوله خاصةً عن الأوضاع السياسية وتأثيرها في تذمّر الرأي العام، وأمدّنا كذلك بمعلومات مهمة عن تراجم بعض الشخصيات التي وردت في البحث. إلاّ أن ما يؤخذ على المؤلف انه يؤكد في أحداثه على أخبار اليمن أكثر من غيرها كونه يماني الأصل وهو في هذا الجانب يماثل ابن الجوزي الذي أكّد على أخبار العراق.

٩. **البداية والنهاية** في أربعة عشر جزءاً، لعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) وتاريخه يقوم على الأساس الحولي ويقدم الحوادث وينهي بالوفيات. وقد تميّز المؤلف بحسن الانتقاء والتنظيم والعرض في سرد حوادثه والاعتماد على المصادر التي سبقته وتكمن أهمية معلوماته انه تعرّض بالنقد للحوادث الماضية وما يتصل بها. وقد أفادنا هذا المصدر في معظم فصول الدراسة من خلال المعلومات التي أوردها عن الأوضاع المتعلقة بالرأي العام في العراق تجاه الحياة العامة ونتائجها على الرعية، وفي تراجم الكثير من الشخصيات التي وردت في البحث.

ثانياً: كتب التراجم والطبقات.

١. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،** لشمس الدين أحمد بن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) الذي يُعد من بين أشهر كتب التراجم وأجدرها بالثقة، إذ قدّم المؤلف تراجم شاملة لمشاهير وأعلام المسلمين من الخلفاء والسلاطين، والوزراء، ورجال العلم والأدب ممن برزوا في مختلف العلوم الذين وقع بعضهم في ثنايا فصول البحث الخاص بالرأي العام.

٢. **سير أعلام النبلاء،** لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) من كتب التراجم رتبه على الطبقات، والطبقة عنده عشرون

سنة، وهو خمس وثلاثون طبقة، وقد ترجم فيه للخلفاء والقرّاء، والفقهاء، والمحدثين، والسلاطين، والوزراء، والشعراء بعبارات مختصرة من غير تطويل، إذ أفادنا في معظم فصول الدراسة بتوثيق الكثير من المعلومات الخاصة بتراجم الشخصيات التي ساهمت في الرأي العام لتلك المدّة.

٣. **الوافي بالوفيات** في ثلاثين جزءاً لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) من كتب التراجم وهو موسوعة رجال كاملة، جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان ممن وقع عليه اختياره، وفي معجمه أربعة آلاف ترجمة، أفادنا في معظم فصول الدراسة، حيث قدّم لنا معلومات وافرة عن تراجم الكثير من الشخصيات التي دخلت في محتوى البحث، وأخبارهم، ومنهم الخلفاء والسلاطين، والوزراء، والأمراء وأرباب المناصب، والفقهاء، والوعّاظ وغيرهم ممن ساهموا في الرأي العام في أثناء مدّة الدراسة.

٤. **طبقات الشافعية الكبرى**، لمؤلفه تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) وهو من كتب الطبقات، ومن ضمن ما تناول فيه المؤلف تراجم لرجال القرنين الخامس والسادس الهجريين من أعيان الشافعية الذين لعبوا دوراً مهماً في الأحداث العامة وتأثيرها على الرأي العام في العراق.وعلى الرغم من أن السبكي متأخر عن العصر الذي ندرسه، إلاّ أن سعة اطّلاعه ومقدرته النقدية تجعل تراجمه مصدراً مهماً من مصادر العصر السلجوقي، وتراجمه موسّعة في أغلب الأحيان تضم معلومات متنوعة، وقد أفدنا منه في عدّة مواضع، وخاصةً تلك التي تتعلق بالرأي العام تجاه الفقهاء، والفتن الدينية والمذهبية، وكذلك في تراجم معظم أعيان الشافعية.

٥. **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، في ثلاثة أجزاء لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) الذي ألّفه قبل وفاته بسنتين تقرباً للخليفة العباسي في القاهرة (المعتضد بالله) وقد تحدث في كتابه عن الخلافة وألقابها وشروطها ثم استعرض خلفاء التاريخ الإسلامي، ومنهم خلفاء بني العباس في عصر السيطرة السلجوقية ذاكراً الخليفة وما جرى في خلافته، وقد أفادنا الكتاب في معظم فصول الدراسة، وأمدنا بمعلومات عن حياة الخلفاء العامة وتأثيرها على الرأي العام.

ثالثاً: كتب البلدانيات.

١. رحلة ابن جبير وتسمى بـ (اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك) لمؤلفه محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) الرحّالة الأديب الذي رافق قافلة الحج العراقية سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، فمرَّ بالعراق من جنوبه إلى شماله. وتعد رحلة ابن جبير من المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث، وقد أفادنا كثيراً عن مشاهداته الحيّة لواقع الحياة الاجتماعية، والاقتصادية في العراق، وتأكيد ما خلفته هجمات القبائل البدوية في تدمير بعض المدن والقرى في العراق، كما نقل لنا تأثير مجالس الوعظ على الرأي العام وخاصةً مجالس ابن الجوزي في بغداد .

٢. معجم البلدانلشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) الذي يُعد من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء العارفين باللغة والأدب، إذ بدأ حياته نساخاً ورحل في طلب العلم، وسجل خلال رحلته تفاصيل عن المدن والأقاليم التي زارها، فدوّن مواقعها وأحوالها العامة، وتمتاز معلوماته بالدقة والشمولية، وقد أفادنا المصدر في تعريف المدن، والمحال، والأنهار، والقلاع وغيرها من الأماكن التي ذكرت أثناء الحديث عن الرأي العام في معظم فصول الدراسة.

رابعاً: كتب اللغة والأدب.

١. لسان العرب لمؤلفه محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ/ ١٣١١م) وهو من المعاجم اللغوية المهمة، وقد أفاد البحث في مواضع كثيرة لتفسيره عدد من المصطلحات والمفردات اللغوية التي وردت في تلك المدّة.

٢. نهاية الأرب في فنون الأدب، في ثمانية أجزاء لمؤلفه أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) وهو موسوعة ضخمة قسم فيه موضوعها إلى خمسة فنون، وقسم كل فن إلى عدّة أبواب، وخصص الفن الخامس للتاريخ من بدء الخليقة وآدم لينتهي بعصره، وقد تطرق في الجزء السادس لتاريخ السلاجقة وقيام دولتهم وعلاقتهم بالخلافة حتى زوالها. وتكمن أهمية الكتاب في أن النويري لا يكتفي بالاعتماد على الآخرين ، بل يضيف إلى الأحداث رأيه وخبراته ومعلوماته الخاصة،

وقد أفادنا في جميع فصول الدراسة المتعلقة بالأحداث العامة في العراق في ظل السيطرة السلجوقية، وتأثيرها على الرأي العام.

خامساً: المراجع الحديثة.

لهذه المراجع دور كبير في إغناء البحث، وتذليل المصاعب. ومن هذهِ المؤلفات كتاب **(تاريخ العراق في العصر السلجوقي)** للدكتور حسين أمين الذي تناول فيه الجوانب السياسية والحضارية في العراق موضحاً بشكل مختصر نشأة الدولة السلجوقية والملامح العامة لتطورها التاريخي، وقد أمدّنا بمعلومات مهمة وخاصةً تلك المتعلقة بالجوانب السياسية، والاجتماعية الخاصة بالبحث.

ومن المراجع الحديثة أيضاً كتاب **(سلاجقة إيران والعراق)** للدكتور عبد النعيم محمد حسنين وقد درس قيام دولة السلاجقة وسيطرتهم على العراق وانقسام دولتهم، كما تطرق إلى مظاهر الحضارة في عصرهم، وقد زوّدنا المرجع بمعلومات مهمة عن الحياة الاجتماعية والدينية في عصر السلاجقة.

ومن الدراسات الحديثة المهمة التي أغنت البحث هو أطروحة الدكتوراه للباحث عبد الله محمد أبو عزة الموسومة **(الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة ٤٤٧ – ٥٦٧هـ/ ١٠٥٥ – ١١٧١م)** والمقدمة إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٦٩م. وهي دراسة أكاديمية تناول فيها المؤلف نظم الحكم ومؤسسات الإدارة ومظاهر الحياة الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والعقلية في العصر السلجوقي. وقد أفادتنا كثيراً في معظم فصول الدراسة. وهناك العديد من المصادر والمراجع مما لا يسع المجال لذكرها تم تثبيتها بقائمة خاصة في نهاية البحث.

وبعد نرجو أن تكون هذهِ الدراسة قد نجحت في تحقيق الهدف المرجو منها، عسى أني وفقت، وما توفيقي إلاّ بالله.

الباحث

واسط ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

تمهيد: مفهوم الرأي العام وأنواعه:

الرأي العام مصطلح حديث، ويحتمل أكثر من معنى، إذ اختلفت آراء الباحثين المتخصصين من العرب والأجانب في تعريفه. فمن ذلك ما قالته الباحثة حميدة سميسم، التي أخذت بنظر الاعتبار تعريف الباحث أبي زيد[1] فقالت: **((إن الرأي العام في مجتمعٍ ما هو خلاصة آراء من الناس الرأي الغالب، أو الاعتقاد السائد، أو إجماع الآراء أو الاتفاق الجماعي لدى غالبية فئات الشعب أو الجمهور تجاه أمر ما أو ظاهرة أو موضوع أو قضية من القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما قد تكون ذات طابعٍ محلي أو قومي دولي يثور حولها الجدل، وإن هذا الإجماع له قوة تأثير على القضية أو الموضوع الذي يتعلق به))**[2].

اتّصف هذا التعريف بالدقة والوضوح والشمول في بيان المقصود بالرأي العام من حيث الشكل والمضمون ومراعاة المصالح والأهداف للحاكم والمحكوم، كما أكّد أيضاً على درجة إقناع الجماعة وقوة تأثيرها في السياسة العامة، والأمور ذات الصالح العام، وفي رأي الأغلبية أيضاً.

وجاء الرأي العام عند باحث آخر على أنه: **((حصيلة أفكار ومعتقدات ومواقف للأفراد والجماعات إزاء شأن أو شؤون تمس النسق الاجتماعي كأفراد وتنظيمات، ونظم التي يمكن أن تؤثر نسبياً أو كلياً في مجريات أمور الجماعة الإنسانية على نطاق محلي أو دولي))**[3].

يتّضح من هذا التعريف أن الرأي العام هو ظاهرة اتصالية، دون تحديد المفهوم الخاص له أو إظهار الأثر الوظيفي، ولم يحدد العلاقة المترابطة بين الرأي وتلك القوة القادرة على التأثير المُشار إليه لهذا الرأي في عملية صنع السياسة الداخلية والخارجية.

وهناك تعريف يوضح الرأي العام بأنه هو: **((وجهة نظر أغلبية الجماعة الذي لا يفوته رأي آخر، وذلك في وقتٍ معينٍ وإزاء مسألةٍ تعني الجماعة، وتدور حولها**

---

(1) سايكولوجية الرأي العام، ص٣٨.

(2) سميسم، نظرية الرأي العام، ص٢٤٠.

(3) علي، مبحث في القوة والآيديلوجيا، ص٤٧ – ٤٨.

المناقشة صراحةً أو ضمناً في إطار هذه الجماعة))[١]. وهي عبارة تستعمل للدلالة على تكامل والتقاء آراء الناس أو تجميعها بشأن مسالة أو مسائل تعني المجتمع الذي يحتوي هؤلاء الناس على صورة من صور السلوك الجماعي، تمخّضت عن مناقشة وجدل بين أفراد متعددين تعنيهم المسألة التي يتعلق بها، ويتأثرون في ذلك بظروف وعوامل مختلفة[٢].

واتفق بعض الباحثين العرب على أن الرأي العام هو: **((اتجاه أغلبية الناس في مجتمعٍ ما اتجاهاً موحداً إزاء القضايا التي تؤثّر في المجتمع، ومن شأن الرأي العام إذا ما عبّر عن نفسه أن يناصر أو يخذل قضية ما، أو اقتراحاً معيناً، وكثيراً ما يكون قوة موجهة للسلطات الحاكمة، علماً بأن الرأي العام ليس ظاهرة ثابتة بالضرورة، وقد يتغيّر إزاء مسألة ما من حين إلى آخر))**[٣].

وهذا التعريف يؤكّد على المصالح المعنوية والمادية وتفسير المشكلة أو الظاهرة، وتحديد خصائص المجتمع المعني، واحتمالية تغيير مواقف الرأي العام تجاه قضية معينة.

وعرّفه الداهري بأنه: **((وجهة نظر الجماهير، وهي المحصّلة النهائية لمجموع آراء الأفراد في مجتمع ما بغضّ النظر عن اتفاق الآراء الفردية، وهو رد الفعل الذي يقوم به الناس بشكل عفوي دون تبريرات واضحة لما يؤمنون به))**[٤].

وعرّفه باحثٌ آخرٌ بأنه: **((مجوعة الضغوط والأحكام التي تسهم في عمليات التغيّر الاجتماعي التي تمر عبر الجماهير))**[٥].

---

[١] شلبي، معجم المصطلحات الإعلامية، ص٤٨.

[٢] المرجع نفسه والصفحة.

[٣] الكيالي وآخرون، الموسوعة السياسية، ص٨٠٣؛ التهامي، الرأي العام والحرب النفسية، ص٢٢.

[٤] مفهوم الرأي العام، ص١٢٨.

[٥] عيسى، الشائعات وكيف نواجهها، ص٥٣.

إن وقوع أية جماعة من الناس تحت ظروفٍ متشابهة أو متقاربة يولّدُ لديها رأياً عاماً له صفة الغلبة على أي رأي آخر، وله قابلية التطوّر والحركة، وفاعلية التغيير[١].

وقد تباين مفهوم الرأي العام عند المفكّرين الأجانب. حيث عرّفه ليونارد دووب[٢] بأنه: ((**يعني اتجاه الناس ومواقفهم إزاء موضوع يشغل بالهم بشرط أن تكون هذه الجماهير في مستوى اجتماعي واحد**))[٣] أي أنه عدَّ الرأي العام نتيجة السؤال والنقاش بين أفراد الجماعة إذ يبدأ الرأي المؤثر للأقلية على بقية الآراء ومن خلاله يسود رأي جديد تتبناه الجماعة.

أما دافيسون (**Davison**) فقال أن الرأي العام: ((**مجموعة من آراء الأفراد حول قضية ذات اهتمامات – مصالح عامة – وغالباً ما تمارس هذه الآراء تأثيرها على سلوك الأفراد والجماعة وسياسة الحكومة**))[٤].

إن ملامح هذا التعريف تؤكد اشتراك مجموعة ما في الآراء حول قضية عامة تهم أفراد المجتمع، وأن يكون هذا الرأي له تأثير على سلوك الأفراد والجماعة ما ينعكس في تأثيره على سياسة الحكومة.

---

[١] الآلوسي، الرأي العام في القرن الثالث الهجري، ص١٧.

[٢] **ليونارد دووب (Leonard Doob)**: من علماء الاجتماع وعلم النفس في الولايات المتحدة، ولد سنة ١٩١٩م. عمل مدرساً في جامعة يايل الأمريكية، وشغل منصب مدير الاستخبارات الأمريكية في ما وراء البحار لمكتب معلومات الحرب في الحرب العالمية الثانية. كان أكثر العلماء الذين درّسوا الدعاية في القرن العشرين، وأصبح خبيراً في علم النفس، وركّز على الأبعاد العقلية والاجتماعية للإقناع الجماعي. توفّى سنة ٢٠٠٠م. ينظر: www.wikepida.com.

[3] Doob Public Opinion Propaganda, p. 35.

[4] Davison, Public Opinion International, p. 188.

أما الرأي العام عند فلويد ألبورت[١] هو تعبير صادر عن مجموعةٍ كبيرةٍ من الناس للموافقة أو التأييد أو المعارضة لمسألة من المسائل أو حالة معينة أو شخص معين مما يترتّب عليه احتمال القيام بعمل مباشرٍ أو غير مباشر يتعلق بالموضوع الذي يدور حوله بما يحقق الهدف المطلوب[٢].

وقد تميّز هذا التعريف بأنه يشترط أن يعبّر عن آراء مجموعة كبيرة من الناس، مما يؤدي بذلك إلى قيام عمل بالقضية التي يدور حولها الجدل من أجل تحقيق الهدف المطلوب.

وقد تميّز الرأي العام عند برنارد هينيسي (**Bernard Hennessy**) بأنه: **((رأي من بين الآراء الأخرى التي تحدد اتجاهات الجماعة نحو قضية ما لها مساس بالمصلحة العامة وهو الذي يسيطر ويتقدم الآراء الأخرى نحو حل تلك القضايا))**[٣].

ويرى (**هاروود تشيلدر**) بأن الرأي العام هو مجرد مجموعة من الآراء الفردية، وهو عنده حاصل جميع هذه الآراء[٤]. وهو تعريف مقتضب يركّز فيه على جهود الأفراد وليس الجماعة، في حين أن الرأي العام هو موقف جماعي حول أمرٍ ما إلاّ إذا كان موقفاً لشخص يمثل شريحة واسعة فيعبّر بذاته عن رؤى وطموحات تلك المجموعة.

في حين يرى وليام البيج[٥] بأن الرأي العام ينتج عن تفاعل أفكار الأشخاص

---

[١] فلويد ألبورت (F.H. Allport). أستاذ علم النفس الاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكية. ولد سنة ١٨٩٠م في مايل ووكي في امريكا، وحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد، ودرّس في كلية ماكسويل في جامعة سايركيوس في أمريكا. توفّى سنة ١٩٧٢م. ينظر: www.brynmawr.edu.

[2] Allport, Towared A Science of Public Opinion, p.26.

[3] Hennessy, Public Opinion, pp 5 – 6.

[٤] نقلاً عن الآلوسي، الرأي العام، ص١٣.

[٥] **وليام البيج (William Albig)**: من علماء علم النفس الاجتماعي ولد سنة ١٨٩٩م. وتوفّى سنة ١٩٦٣م. ينظر: www.wikepida.com.

في أي شكل من أشكال الجماعة[1]، وإلى مثل هذا ذهبَ **(هربرت بلومر)** في أن كثيراً من التفاعل الذي يتكون في خلال الرأي العام يحدث من تضارب آراء الجماعة وأوضاعها شأنه في ذلك شأن زميله البيج ودووب، إذ يقلّل من أهمية الأثر الخطير الذي يقوم به الأفراد البارزون أصحاب الأفكار الجديدة[٢].

أما جفتش فقد حلّل الرأي العام بقوله: **((هو الرأي المشروط اجتماعياً لأكبر عدد من الأفراد حول القضايا العامة، الذي يعبّر عنه علناً والموجّه لا نحو التأثير على الشؤون العامة فحسب وإنما المشاركة في تحويل هذا الرأي إلى سياسة عملية، إلى قانون))**[٣].

وهناك علاقة بين الرأي والسلوك، فالرأي هو سلوك كلامي وبمجرد الإعلان عنه يصبح الرأي واقعة، ويمكن أن نصنّفه بأنه سلوك أيضاً، وتتحدد العلاقة بين الرأي والاتجاه[٤]. والرأي يعكس استعداداً معيناً للسلوك، ولذلك يمكن القول بان الرأي له علاقة على وجود الاتجاه، مما يفسر لنا أن نكشف الاتجاه بواسطة السؤال عن الرأي[٥].

ومن الجدير بالذكر أن الرأي العام يمكن أن يتغيّر في خلال أيام وأسابيع، بيد أن الاتجاه يحتاج تغييره إلى زمن أطول من ذلك قد يصل إلى سنوات عدّة لارتباطه بالعادات والتقاليد أي الموروث الحضاري[٦].

وقد اتّخذ الرأي العام أشكالاً مختلفة وصوراً متعددة تبعاً لاختلاف الظروف والأوضاع التي تكتشف وجوده في فترات معينة، فمنهم مَن يصنّفه على أساس البيئة

---

(1) Albig. Public Opinion, p31.

(٢) عبد القادر، الرأي العام والدعاية، ص٩؛ الآلوسي، الرأي العام، ص١٤.

(٣) جفتش، الرأي العام في النظام الاشتراكي، ص٤٧.

(٤) **الاتجاه:** يقصد به هنا الأحاسيس والمشاعر الداخلية التي تسيطر على سلوك الفرد عندما يتبنى موقفاً ما أو يصدر حكماً ما. الداهري، مفهوم الرأي العام، ص١٣٢.

(٥) سميسم، نظرية الرأي العام، ص٧٥؛ الداهري، المرجع نفسه والصفحة.

(٦) ربيع، مقدمة في العلوم السلوكية، ص٥٦.

والـوطن، ومـنهم مَن يصـنّفه علـى أسـاس الظهـور، الوجـود، والاسـتمرار، والتـأثير، والوعي، ولكل أساس من هذه الأسس أنواع من الرأي العام[١].

ومـن هـذه الأنـواع: أن الـرأي العـام إذا لـم يفصـح عـن ميـول النـاس نحـو قضـية معينة لظروف قاهرة وطارئة سُمي بـ **((الرأي العام الباطني))** أما إذا عبّر عنها ومن ثَمَّ تكون هي التي قررت الفعل فإنه يُسمى **((الرأي العام الصريح أو الظاهر))**[٢].

وإن الرأي العام حينما يتخذ موقفاً معيناً فإنـه يصبح **(رأياً عاماً فعلياً)** أما إذا لم يتخـذ موقفـاً معينـاً فهـو **(رأي عـام سـاكن أو كـامن)**[٣]، فتحسـس النـاس للأوضـاع الفاسدة في مجتمع ما يعد رأياً عاماً ساكناً، في حين أن الثورة على هذه الأوضاع يعد رأياً عاماً فعلياً أو واقعياً، لأنه اتخذ موقفاً عملياً[٤].

إن الـرأي العـام الـذي يقـوم علـى أسـاس العوامـل الحضـارية يُسـمى **(الـرأي العـام الـدائم أو الثابـت)** الـذي عرّفـه المسـلمون الأوائـل وعدّه الفقهـاء مصـدراً مـن مصـادر التشريع الإسلامي، بعد القرآن والسنة[٥].

أما الرأي العام الذي يقوم حول حوادث طارئـة فيُسمى بـ **(الـرأي العـام المؤقـت)**[٦] وهو الرأي العام اليومي، الذي يتأثر بمجريات الأمور والحوادث اليومية[٧].

---

[١] ينظر: ذياب، الرأي العام وطرق قياسه، ص١٠ – ١٣؛ خضر، الرأي العام وقوى التحريك، ص٣١ – ٣٦.

[٢] الآلوسي، الرأي العام، ص١٨ – ١٩.

[٣] أبو زيد، سايكولوجية الرأي العام، ص٧٤.

[٤] الآلوسي، الرأي العام، ص١٩.

[٥] تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢٥٤؛ الآلوسي، الرأي العام، ص١٩.

[٦] ذياب، الرأي العام وطرق قياسه، ص١٢.

[٧] الآلوسي، الرأي العام، ص١٩.

وإلى جانب ذلك هناك رأي شخصي، يعبّر به الفرد عن وجهة نظره، أما إذا لم يجاهر به فهو رأي خاص يحتفظ به لنفسه كونه جزءاً من الرأي الشخصي[1].

وقد عبّر المسلمون الأوائل عن الرأي العام بمصطلحات عدّة منها: الاجتهاد، والإجماع، والشورى، وجمهور الأمة، والاستحسان، وغير ذلك من التسميات الفقهية الشائعة[2].

ومن مقومات الرأي العام: المجتمع، والمشكلة، والمناقشة[3]. فالرأي العام ظاهرة اجتماعية مرتبطة بوجود المجتمع، الذي تتوافر فيه ظروف مختلفة سياسية، واجتماعية، واقتصادية تؤثر بشكل أو بآخر في تكوين الاتجاهات والآراء[4].

أما المشكلة فهي مقوّم مساعد من مقوّمات الرأي العام، وهي المحور الذي يدور حوله الرأي وتتركز عليه المناقشة والحوار، وتحتاج فيه إلى حل وإلى اتخاذ قرار نهائي بصددها، وعليه تتعدد وجهات النظر، وتظهر الخلافات في تصور الحل المناسب. ومن آثار المشكلات العامة أنها تؤثر في مواقف الجماهير[5]. لاسيما تلك التي لها مساس مباشر بمصالحهم العامة.

أما حقّ المناقشة فهو من المقومات المهمة في تكوين الرأي العام الذي يعتمد على الاتصال بين الأشخاص روحياً وتقاربهم في الآراء والاتجاهات والميول. ومن نتائج المناقشة التي تصدر عنها أفكار وآراء وأحكام مشتركة، تكون أكثر بقاءاً واستمراراً من اتصالات الجماهير التي يحركها الحماس المؤقت في مناسبة ما، وبذلك يتكوّن الرأي العام المؤثر في اتخاذ القرارات التي تتعلق بالسياسة العامة[6].

---

[1] عبد القادر، الرأي العام والدعاية، ص٣١.

[2] للتفاصيل ينظر: الآلوسي، الرأي العام، ص٢٧ – ٥٠.

[3] الداهري، مفهوم الرأي العام، ص١٣٥ – ١٣٨.

[4] بديوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص٧٠؛ جابر، الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث، ص١٨٩.

[5] ينظر: جابر، المرجع نفسه، ص١٩٤.

[6] زايد، الجمهور والرأي العام، ص٧١؛ الداهري، مفهوم الرأي العام، ص١٣٨.

من خلال ما تم عرضه من تعريفات عربية وأجنبية للرأي العام وأنواعه، يمكن القول إننا تتبعنا في موضوع بحثنا الموسوم **((الرأي العام في العراق في عصر السيطرة السلجوقية))** مواقف الأفراد والجماعات ابتداءاً من الخلفاء والسلاطين، والوزراء، وذوي المناصب الدينية والإدارية، ومواقف عامة الناس، المرتبط بالأوضاع السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية التي شهدها العراق من سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ولغاية ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، ووسائل التعبير عن هذه المواقف ونتائجها التي يمكن من خلالها أن نسجل مدى تأثير الرأي العام في الحوادث التي عاصرها الناس في العراق. وقد أخذنا بنظر الاعتبار تعريف الرأي العام للباحث أبي زيد[١] والباحثة حميدة سميسم[٢].

---

(١) سايكولوجية الرأي العام، ص٣٨.

(٢) نظرية الرأي العام، ص٢٤٠.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية العامة.

السلاجقة من قبائل الأتراك الغز، وهم من البدو الذين كانوا يسكنون سهول تركستان، قبل نزوحهم بسبب ظروفهم المعيشية الصعبة إلى بلاد ما وراء النهر (بين القرن الثاني والرابع الهجريين، الثامن والعاشر الميلاديين)[١]. وكان جدهم الأعلى دقاق (تقاق)[٢] ذا كلمة مسموعة عندهم لشخصيته القوية، إذ صار مقدم الأتراك الغز فيما وراء النهر، وكانت له مكانة متميزة عند بيغو ملك الترك. وقد وُلد لدقاق هذا ابنه سلجوق الذي ارتبط باسمه السلاجقة. ولما كبر سلجوق ظهرت قوّته وشجاعته فقرّبه ملك الترك[٣]، وأعطاه لقب سباشي **(أي قائد الجيش)**[٤]. وما لبث سلجوق أن تخوّف من غدر الملك به بسبب تطلعاته إلى الزعامة والسلطة وتحذير زوجة ملك الترك لزوجها من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له، ولما علم سلجوق بذلك توجّه وقبيلته إلى ديار الإسلام بجوار السامانيين[٥] والخانيين والغزنويين في نواحي جند[٦]، واعتنقوا ديانة المسلمين وقاموا بمطاردة الأتراك الوثنيين وصد هجماتهم[٧].

---

[١] السمرقندي، جهار مقالة، ص٣٢.

[٢] **دقاق:** كلمة تركية معناها القوس المصنوع من الحديد. براون، تأريخ الأدب في إيران، ج٢/ ص٢١٠.

[٣] الحسيني، زبدة التواريخ، ، ص٢٣.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٢٢؛ رايس، السلاجقة، ص٢٠.

[٥] **الدولة السامانية:** ٢٦١- ٣٨٩هـ/ ٨٧٥- ٩٩٩م تأسست بقيادة سامان الذي قدّم خدمات كبيرة للدولة العباسية أثناء دعوتهم. ينظر: المعاضيدي والجميلي، تاريخ الدويلات العربية، ص٣٥.

[٦] **جند:** بلدة من تركستان عند حدود الترك على طرف نهر سيحون. أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٤٨٨.

[٧] ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٩٣؛ ابو عزة، الحضارة العربية، ص٢٧.

ولما توفّى سلجوق ترك من الأولاد إسرائيل (بيغو أرسلان) وميكائيل وموسى ويونس[١]، وقد قُتل ميكائيل في إحدى غزواته لأراضي الترك غير المسلمين مخلّفاً من الأولاد بيغو وطغرل بك وجفري بك[٢].

وقاد إسرائيل قومه بعد وفاة والده سلجوق، وكانت الدولة السامانية قد انهارت سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م واقتسم ممتلكاتها الخانيون والغزنويون، وقد تحالف السلاجقة مع علي تكين ملك السامانيين لاستعادة ممتلكاته، فألحقوا الهزيمة بأيلك خان ملك الخانيين بعد أن سيطروا على بخارى[٣]. وبذلك أصبح للسلاجقة أثر كبير في تقرير الأوضاع في بلاد ما وراء النهر لاسيما بعد أن اعترف (أيلك خان) بنفوذ إسرائيل في منطقة بخارى[٤]. الأمر الذي تنبه إليه السلطان محمود الغزنوي (سلطان الغزنويين ٣٨٧-٤٢١ هـ / ٩٩٧-١٠٣٠ م) فتوجه على رأس جيش قاصداً السلاجقة الذين هربوا من أمامه[٥].

وفي الوقت نفسه بدأ السلطان محمود الغزنوي يحتاط لأمر السلاجقة بعد أن حذره (أيلك خان) من خطرهم وذلك في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م فلجأ إلى الحيلة والدهاء لاتّقاء خطرهم، فأرسل إلى إسرائيل بن سلجوق يعرض عليه رغبته في عقد ميثاق معهم لتكريس الصداقة والود بين الطرفين، وضرب له موعداً للّقاء قرب نهر جيجون، ولكن سرعان ما قبض عليه عند وصوله وسجنه في قلعة كالنجر (من قلاع الهند) إلى أن توفّى في سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٣م[٦].

---

[١] ينظر: ملحق رقم (١) الخاص بنسب الأسرة السلجوقية.

[٢] المقريزي، السلوك، ج١/ ص٢١.

[٣] **بخارى:** من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر. ابن حوقل، صورة الأرض، ص٤٠٦.

[٤] الراوندي، راحة الصدور، ص١٤٥.

[٥] المقريزي، السلوك، ج١/ ص٣١.

[٦] الراوندي، راحة الصدور، ص١٤٩ – ١٥٠؛ أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص٤٨ – ٥٠.

أما السلاجقة فعلى أثر هذه الحادثة عبروا نهر جيجون واستقروا في نواحي خراسان بين نسا وباورد (من مدن خراسان)[١] بعد موافقة من السلطان محمود الغزنوي[٢].

وبعد أن استقر السلاجقة في إقليم خراسان عزموا القضاء على الغزنويين فاشتبكوا معهم بمعارك عدّة تبادل بها الطرفان النصر والهزيمة، ولما تمكنوا من الانتصار على الغزنويين في معركة فاصلة سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٢٧م[٣] سار على أثرها طغرل بك الذي تزعّم السلاجقة إلى مدينة نيسابور[٤]. وأعلن قيام دولتهم، وخطب له فيها بالسلطان المعظم[٥]. ثم أرسل أخاه داود إلى سرخس فأخضعها لحكمه، وبذلك خضعت خراسان بأكملها لسيطرة السلاجقة[٦] عدا بلخ[٧].

وقد حاول الغزنويون القضاء على دولة السلاجقة، إذ سار السلطان مسعود على رأس جيش كبير قاصداً خراسان، وخاض معارك عدّة كان آخرها معركة دندانقان[٨] سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م التي انتهت بانتصار السلاجقة[٩]، إذ كان سلطانهم طغرل بك قد بدأ بتنظيم إدارة دولتهم فقسمها إلى ولايات عدّة ونصّب أبناء أسرته ولاة عليها[١٠].

---

[١] الحموي، معجم البلدان، ج١/ ص٤٨٥، ج٤/ ص٧٧٦.

[٢] الراوندي، راحة الصدور، ص١٥٣؛ اليزدي، العراضة في الحكاية السلجوقية، ص٣١.

[٣] الحسيني، زبدة التواريخ، ص٤١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٤٨؛ محمد، المقاومة العربية، ص٤.

[٤] **نيسابور:** من مدن خراسان قرب مدينة سرخس. خسرو، سفرنامة، ص٢.

[٥] الراوندي، راحة الصدور، ص١٥١؛ أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص٥٤.

[٦] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص١٥ – ١٦.

[٧] **بلخ:** مدينة كبيرة وعامرة في خراسان. الحميري، الروض المعطار، ص٩٦.

[٨] **دندانقان:** بلدة من نواحي مرو. الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ص٦١٠.

[٩] الراوندي، راحة الصدور، ص١٦٣ – ١٦٥؛ حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص٢٩ – ٣٠.

[١٠] ينظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص٤٤ – ٤٥.

وفي سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م بعث طغرل بك رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ – ١٠٨٥م)[١] تضمنت طاعة السلاجقة للخليفة وولائهم له ملتمساً من الخليفة الاعتراف بهذه الدولة[٢].

وفي سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م أرسل الخليفة رسالة إلى طغرل بك مع قاضي القضاة الماوردي (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) تتضمن رغبته في عقد الصلح بين طغرل بك والأمير البويهي (أبي كاليجار) وتقبيح ما فعل السلاجقة من تخريب في خراسان وأمره بالإحسان إلى الرعية، وحمّل رسول الخليفة إلى طغرل بك تفويضاً بحكم البلاد التي تحت سيطرته[٣] .

وقد واصل السلاجقة تثبيت وجودهم السياسي وتثبيت دعائم دولتهم، واندفعوا لسد الفراغ الذي تركته الدولة الغزنوية باستيلائهم على المناطق المجاورة من المدن والأقاليم في المدة ٤٣١ – ٤٤٦هـ/ ١٠٣٩ – ١٠٥٤م[٤].

بعد هذه الانتصارات بدأ السلاجقة يتطلعون للسيطرة على العراق مركز الخلافة العباسية ومصدر الشرعية السياسية والمناطق العربية الأخرى.

دخل السلاجقة بغداد بقيادة السلطان طغرل بك في شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وكان الخليفة القائم هو الذي راسل طغرل بك واستدعاه بعد أن شعر بالخطر من جانب البساسيري[٥]، المتحكم في شؤون الخلافة آنذاك[١]، لمساعدته

---

[١] ينظر: ملحق رقم (٢) الخاص بأسماء الخلفاء العباسيين الذين حكموا في أثناء السيطرة السلجوقية.

[٢] الراوندي، راحة الصدور، ص١٦٦ – ١٦٧.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥/ ٢٨٩.

[٤] للتفاصيل ينظر: الفارقي، تاريخ، ص١٦٥؛ ابو الفدا، المختصر، ج٢/ ص١٦٢؛ الذهبي، دول الإسلام، ج١/ ص٢٥٨.

[٥] **البساسيري:** هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله المظفر البساسيري التركي من مماليك بني بويه، خدم الخليفة القائم فقدّمه على جميع الأتراك في بغداد وقلّده الأمور بأسرها. قتل على يد طغرل بك سنة ٤٥١هـ ١٠٦٠م. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٥٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٤٧؛ ابن تغري بردي، ج٥/ ص٢، ٦٧؛ ناجي، ثورة البساسيري في بغداد، ص٤٣؛ الحديدي، العلاقات السلجوقية الفاطمية، ص٩٩. Canard, Basasiri, v1, p1073.

للتخلص منه بعد أن تأكد الخليفة ما نسب للبساسيري في مكاتبة الفاطميين[٢]، وعزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة[٣]. فضلاً عن الأحوال السياسية ،والاجتماعية ، والاقتصادية المتردية في العراق بشكل عام ولاسيما في بغداد بسبب السيطرة البويهية والخطر الفاطمي الذي يهدد الخلافة[٤].

ولما دخل طغرل بك وجيشه بغداد وعد بتأمين سلامة سكانها وسلامة الأمير البويهي الملك الرحيم، لكنه نكث بالوعدين، إذ سرعان ما اعتقل آخر أمراء بني بويه الملك الرحيم وأصحابه وصادر أملاكهم، فأنهى بذلك أي وجود أجنبي سواه في بغداد[٥]. كما جرّد الخليفة من السلطة ومنها منعهِ تشكيل جيش خاص به[٦].

بعد أن استقر السلاجقة في بغداد، باشر طغرل بك بالسيطرة على مدن العراق الأخرى، وتمكن من احتلالها ومنها البصرة والأحواز وتكريت والموصل والأنبار وغيرها من المدن سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م[٧].

---

[١] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص١٥٧؛ فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٦٣.

[٢] **الدولة الفاطمية:** تأسست سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م بقيادة عبد الله المهدي، وفي سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م نجحوا في السيطرة على مصر وانتقلوا إليها إلى أن تمكن صلاح الدين الأيوبي من القضاء عليهم سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. ينظر: ابن حمّاد، أخبار ملوك بني عبيد، ص٥٠ – ٥٣؛ سيد، الدولة الفاطمية، ص١٢٧ – ١٣٩.

[٣] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩/ ص٤٠٠؛ طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص٢٣٩؛ يونس، تطور الفكر الإمامي في العراق خلال العصر السلجوقي، ص٤٢.

[٤] ينظر: محمد، المقاومة العربية، ص٨ – ١٣.

[٥] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٢٤ – ٣٢٥.

[٦] سعادة، من تاريخ بغداد، ص٤٧.

[٧] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٢٧ – ٣٤١.

وفي سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م ثار إبراهيم ينال[1] على أخيه طغرل بك ونشبت الحرب بينهما قرب همذان، ولكن طغرل بك ظفر به فقتله[2]. وقد استغلّ البساسيري تمرّد إبراهيم ينال وحصل على مساندةٍ من الدولة الفاطمية ودخل بغداد في السنة ذاتها ولم يواجه مقاومة شديدة، وقام بقتل الوزير ابن المسلمة[3] بسبب الخلاف على السلطة[4].

وخرج الخليفة القائم يطلب قريش بن بدران (أمير الموصل) حليف البساسيري حيث أعطاه الأمان وأودعه مع مهارش صاحب حديثة وهو ابن عم قريش بن بدران[5].

وبعد انتصار طغرل بك على أخيه إبراهيم ينال عاد إلى العراق وتم الإفراج عن الخليفة ودخلا بغداد، ليتفرغ بعد ذلك لملاحقة البساسيري، فقتله سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م[6].

وفي سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦٢م أقدمَ طغرل بك على طلب يد ابنة القائم بأمر الله للزواج على أمل ترسيخ منصبه على حساب منصب الخليفة، وثار القائم على هذا

---

(١) **إبراهيم ينال:** هو أخو السلطان طغرل بك من أمه، وقد حارب أخاه وانتصر عليه وضايقه ثم التقاه بنواحي الري فانهزم جمع إبراهيم ينال وأُخذ أسيراً فأمر طغرك بك بخنقه بوتر قوسه سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٤٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٠/ ص٣٠١.

(٢) ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٦٥.

(٣) **ابن المسلمة:** هو علي بن الحسن بن أحمد أبو القاسم بن المسلمة. وزير الخليفة القائم بالله ولقّبه (رئيس الرؤساء شرف الوزراء). ولد سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م، وقتل سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م. ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١١/ ص٣٩١؛ ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، ج٢/ ص٦٠٨م؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٢١٦ – ٢١٧.

(4) Makdisi, Ibin Aqil, p. 91.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣٤ – ٣٥؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٤؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٣/ ص٤٢٤؛ الحديدي، العلاقات السلجوقية الفاطمية، ص٥٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٨٣؛ سعادة، من تاريخ بغداد، ص٥٠.

الطلب وأجاب بالرفض[١]. وهذه هي المرّة الأولى التي يطلب فيها حاكم أجنبي يد ابنة الخليفة وجرت العادة أن يقدم أمير الأمراء أو السلطان ابنته لتزويجها من الخليفة[٢]. لكنه جوبه بضغط متزايد من عميد الملك الكندري[٣] الذي هدده بمغادرة بغداد، فلم يبقَ للقائم أي خيار سوى القبول، فتم الزواج سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، إلاّ أن طغرل بك توفّى بعد بضعة شهور عن عمر ناهز السبعين[٤].

وبوفاته نشب الصراع في البيت السلجوقي من جديد بين ابن أخيه سليمان[٥]، الذي خلّفه في السلطنة وبين ألب أرسلان أخي سليمان نفسه، وبين ألب أرسلان وبين عمه قتلمش، إلى أن انتهى بانتصار ألب أرسلان[٦].

---

[١] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٩٣ – ١٩٤؛ طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٨٤.

[٢] علي، الزواج السياسي، ص٩٠.

[٣] **عميد الملك الكندري:** هو عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الكندري، وكندر قرية من نواحي نيسابور، وزير السلطان طغرل بك وإحدى أهم الشخصيات في أيامه، قتل سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م على يد السلطان ألب أرسلان بتحريض من الوزير نظام الملك. ينظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص٦٧ – ٧٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص١٥١؛ الصفدي، الوافي بالوافيات، ج٥/ ص٤٩ – ٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٩٢ – ٩٣.

[٤] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٩٧ – ١٩٨؛ الراوندي، راحة الصدور، ص١٧٨؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٦؛ فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٦٥؛ رايس، السلاجقة، ص٢٩؛ علي، الزواج السياسي، ص٩٦ – ٩٧.

[٥] جرت العادة أن يوصي السلطان السلجوقي بمن يخلفه بعد موته، فطغرل بك أوصى بالمنصب بعده لابن أخيه سليمان لأنه لم يخلّف أولاداً ولأنه كان متزوجاً من أرملة أخيه أم سليمان هذا، لذلك أوصى له بالسلطنة على الرغم من كونه صبياً لتأثير أم سليمان عليه، وعلى الرغم من أن أخاه ألب أرسلان كان الأكبر والأكفأ لشغل المنصب. ينظر: الراوندي، المصدر نفسه والصفحة؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص١٥٩ – ١٦٢.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٩٢ – ٩٣؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٠٠ – ٢٠١.

وأول ما قام به ألب أرسلان(٤٥٥-٤٦٥هـ) بعد توليه الحكم مباشرةً عزل الكندري من الوزارة وسجنه، وذلك لتأييد الكندري مطلب سليمان لتولي السلطنة، فضلاً عن المنافسة الشرسة بين عميد الملك وبين وزير ألب أرسلان نظام الملك التي انتهت بانتصار الأخير الذي دبّر مكيدة انتهت بموت الكندري وهو في السجن سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م، وكذلك لكسب ود الخليفة لما جرى من سلوك الكندري أزاء الخليفة في أثناء المفاوضات التي أدت إلى تزويج ابنة القائم بطغرل بك[١].

وكان ألب أرسلان حكيماً في سياسته، إذ أقام علاقات ودية مع الخليفة ليتمكن من مجابهة أعدائه، وقد قُتل سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م بعد حكم دام تسع سنوات وبضعة أشهر، وانتقلت السلطنة إلى ابنه ملكشاه، وقد طمع فيه عمه قاروت بك، واندلعت الحرب بينهما إلى أن ظفر ملكشاه بعمّه فقتله[٢].

وكانت سياسة ملكشاه التدخل في شؤون الخلافة على العكس من أبيه ألب أرسلان[٣]، وكان الخلفية المقتدي بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٧٤ - ١٠٩٤م) الذي وجد نفسه مرغماً على عزل وتعيين الوزراء حسب نزوات السلطان ووزيره نظام الملك[٤]، ومن أمثلة ذلك الوزير أبو شجاع[٥]، الذي عامل الناس بالحسنى فعزله ملكشاه على الرغم من احتجاج الخليفة[٦].

وقد تزوجت ابنة ملكشاه من الخليفة المقتدي سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م[٧]، وفي سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م توفى السلطان ملكشاه تاركاً أربعة أبناء الأكبر بركياروق وعمره

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٥٨.

[٢] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢١٣؛ طقوش، تاريخ السلاجقة، ص١٢١.

[3] Siddiqi, Caliphate and Kingship. P. 37.

[٤] ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٤.

[٥] **أبو شجاع:** هو محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله الروذراوري الوزير أبو شجاع. وُلد سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م. وتوفى سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م ،وله كتاب في التاريخ أسمه ذيل تجارب الأمم. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٢٨ - ٣٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣/ ص٥؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص١٣٦ - ١٣٨.

[٦] ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٦؛ سعادة، من تاريخ بغداد، ص٥٥.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٦٨.

ثلاث عشرة سنة، ومحمد، وسنجر، ومحمود. وبموته انتهى عهد توسع الدولة وتماسكها، وأدت الصراعات بين الأخوة إلى إضعاف السلاجقة. وقد حرصت تركان خاتون زوجة ملكشاه على تعيين ابنها محمود سلطاناً على الرغم من كونه في الرابعة من عمره، ووافق الخليفة بشرط أن تقام الخطبة باسمه[1].

وقد تم سجن بركياروق في أصفهان بأمر من تركان خاتون، إلاّ أن الجيوش النظامية حررت بركياروق والتقى الجيشان وهُزمت جيوش تركان خاتون ليصبح بركياروق سلطاناً سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م[2].

وفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م توفى الخليفة المقتدي ليخلفه ابنه المستظهر بالله (٤٨٧ – ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ – ١١١٨م)[3].

وما كاد بركياروق يستقر على رأس السلطنة حتى واجه منافسين عديدين أولهم عمه تتش بن ألب أرسلان وخاله الآخر إسماعيل بن ياقوتي حيث انتصر عليهما وقتل عمه تتش قرب الري سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. وقد قام مؤيد الملك[4] بإقناع محمد بن ملكشاه لإعلان نفسه سلطاناً، وكان مؤيد الملك قد طُرد من بلاط بركياروق فانتقل إلى بلاط محمد وحرّضه كما جرى على إقناع الخليفة المستظهر لمناداة الخطبة باسم محمد[5].

استمر النزاع على السلطة بين الأخوين محمد وبركياروق من سنة ٤٩٢ – ٤٩٧هـ/ ١٠٩٩ – ١١٠٤م، وقد عمّت الفوضى[6]. وأخيراً وفي سنة

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٨٤.

[2] المصدر نفسه، ج٨/ ص٥٠٢.

[3] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٠؛ فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٦٧.

[4] **مؤيد الملك:** هو مؤيد الملك بن الوزير نظام الملك، عمل وزيراً للسلطان محمد سنة وأحد عشر شهراً، ولما كانت الحرب بين محمد وبركياروق وقع في الأسر وقتله بركياروق سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣١ – ٣٢.

[5] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص١٦٣؛ طقوش، تاريخ السلاجقة، ص١٦٦.

[6] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٦٧ – ٦٨.

٤٩٧هـ/ ١١٠٤م تم التوصل إلى اتفاق سلام بين الأخوين[١].

وخلاصة القول أن خطبة بركياروق قُطعت ست مرات خلال مدّة سلطنته التي دامت اثنتي عشرة سنة وأشهراً، وعندما توفّى سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م[٢]، صفا الجو للسلطان محمد ولم يبقَ له منازع[٣].

وهكذا نجد أن السنوات الثلاث عشرة التي تلت وفاة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك كانت طافحة بالفوضى والحروب والدمار، وإن الخلافة عانت الكثير من تصارع المطالبين بالسلطنة والخطبة بأسمائهم على المنابر. وفي مثل هذا الجو كان لابد أن تفكر الخلافة في محاولة استرداد شيء من هيبتها وسلطانها على الرغم من سكوتها في المدّة الأولى من حكم السلاجقة.

ومن نشاط الخليفة المستظهر بالله في هذا المجال محاولاته ضرب السلاجقة بعضهم ببعض فنجده ينهض لمناصرة السلطان محمد في حربه مع بركياروق سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م، بل وجمع السفن للقتال ويتخذ الاستعدادات للدفاع[٤]. وفي سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م أمر بقطع الخطبة للسلاطين المتنازعين جميعاً وبعدم ذكر اسم أحد غير الخليفة، وبعد أن كانت قد أُعيدت لبركياروق في السنة ذاتها[٥]. وهي خطوة جريئة جداً قام بها هذا الخليفة لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار ظروف الخلافة وضعفها.

وبوفاة محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م بدأ عهد تعدد السلاطين فأصبح هناك أكثر من سلطان للسلاجقة، وبرزت شخصية **(سلاجقة العراق)** بجلاء إلى جانب شخصية **(سلاجقة إيران)**، وأول مَن جلس على عرش السلطة في العراق هو السلطان محمود بن محمد[٦] الذي تمكن من الاستقلال عن عمه السلطان سنجر بعد

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٧٠ – ٧١.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٩٣؛ فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٧٢.

[٣] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص١٦٤.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٧٥.

[٥] المصدر نفسه، ج١٧/ ص٨٠.

[٦] فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٧٣.

حرب ذاق فيها طعم الهزيمة والذل، وقد صالحه سنجر بعد هزيمته هذه وشمله بعطفه ونادى به ولياً لعهده وأنابه عنه في العراق سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م، واعترف به الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر (٥١٢ – ٥٢٩هـ/ ١١١٨ – ١١٣٤م) سلطاناً على الرغم من صغر سنه البالغ أربع عشرة سنة[١].

وكان سلاطين العراق يخضعون للسلطان سنجر ويذكرون اسمه في الخطبة قبل أسمائهم. وفي سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م ولأول مرة بدأ السلطانان يخطبان معاً في آنٍ واحدٍ وموضعٍ واحدٍ[٢].

وفي السنة ذاتها احتدم الصراع بين الأخوين السلطان محمود وأخيه مسعود، وتمكن محمود من إنزال الهزيمة بأخيه مسعود[٣]. وبعد موت السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣١م خلّفه ابنه داود على العراق، ولكن مسعود انتزعها منه مما أدى إلى استياء السلطان سنجر الذي لجأ إلى التحالف مع دبيس بن صدقة[٤]، وعماد الدين زنكي[٥]، واعداً الأول بمنصب حاكم الحلة، والثاني صاحباً للشرطة في بغداد، وقاتل مسعود وربح المعركة وعيّن طغرل بن محمد سلطاناً. وفي سنة ٥٢٧هـ/

---

[١] أقسرائي، تاريخ سلاجقة، ص٢٢٠؛ الوزنة، الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر، ص٩٢ – ٩٥؛ الخالدي، الحياة السياسية ونظام الحكم في العراق، ص٢٠٦؛ محمود والشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٦١١.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٨٥.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٩١ – ١٩٢.

[٤] **دبيس بن صدقة:** هو دبيس بن صدقة بن علي بن مزيد صاحب الحلة، قتله السلطان مسعود سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٠٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٣/ ص٣٢١ – ٣٢٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٩٠.

[٥] **عماد الدين زنكي:** هو عماد الدين زنكي بن آقسنقر، ولد سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٤م. اشتهر بالشجاعة وأسس الدولة الأتابكية في الموصل سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م. وكان له دور سياسي كبير مع الخلفاء والسلاطين. قتل على يد مملوكه سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٤٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢١؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج٤/ ص١٢٨.

١١٣٣م أصبح مسعود سلطاناً على العراق بعد هزيمة طغرل الذي توفّى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م[١].

أما من جانب الخلافة فإن شخصية قوية تسلّمت الخلافة متمثلة بالخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، والصراع على أشدّهِ بين المتنازعين على منصب السلطنة، وهو صراع عجزت معه الخلافة عن إرضاء أي من الأطراف المتنازعة التي تبادلت النصر والهزيمة مراراً، وكان على الخلافة أن تذعن للمنتصر على الدوام. ويبدو أن المسترشد عزم على استرجاع سلطة الخلافة وهيبتها والتخلص من نير السلاطين. ويصف ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) المسترشد بقوله: ((... **تمكّن من خلافته تمكّناً عظيماً ... فإنه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة ... واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب ...**))[٢].

ومن خلال هذه المدة من الصراع بين أعضاء العائلة السلجوقية حاول المسترشد بالله تأمين مركز قوي لنفسه بمناصرة السلطان الذي يمنحه امتيازات أكبر، وحينما شعر بقدرته الكافية أعلن استقلاله عن مسعود، وحين غادر الأخير إلى همذان سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م، قرر الخليفة بالاشتراك مع بعض الأمراء الذين تمردوا على مسعود لمحاربته، بيد أنهم تخلوا عن الخليفة في لحظة الشدّة وانهزموا. ويبدو أن مسعود استمالهم وأغراهم، فهزم جيش الخليفة ووقع المسترشد بالأسر، ثم اغتيل، واتّهم السلطان بتدبير اغتياله[٣].

إلاّ أن قتل المسترشد لم يوقف الصدام بين الخليفة والسلطان، فقد قامت الحرب بين مسعود والخليفة الراشد (٥٢٩ – ٥٣٠هـ/ ١١٣٤ – ١١٣٦م) الذي خلّف أباه المسترشد، وانهزم الخليفة ودخل مسعود بغداد، وغادرها الراشد، وأقدم السلطان على

---

[١] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٨٦ – ٢٧٨؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٠٠ – ٢٠٥.

[٢] الباهر، ص٥٠ – ٥١.

[٣] ينظر: الراوندي، راحة الصدور، ص٣٢٩ – ٣٣٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٦؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢/ ص٢٧؛ الآلوسي، الخليفة المسترشد بالله، ص٤٥ – ٥٠.

خلع الخليفة وتولية آخر مكانه، وهو عمه المقتفي لأمر الله بن المستظهر ((٥٣٠ – ٥٥٥هـ/ ١١٣٦ – ١١٦٠م)[1]. ومضى الراشد إلى الموصل ثم أُخرج منها وكان مصيره الاغتيال كما هو مصير أبيه سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨[2].

ويُعد أسر المسترشد ثم قتله، وخلع الراشد بعده في سنتين ضربة ساحقة نزلت بالخلافة، وحطمت قوتها، إذ استولى السلطان مسعود على كل أموال المسترشد والراشد، بل ونهب دار الخلافة، وتصرّف في دار الضرب وأخذ التركات، ثم طالب الخليفة المقتفي بمائة ألف دينار، فردَّ المقتفي بأنه لم يبقَ للخلافة سوى الدار: ((... **وما بقي إلاّ أن نخرج من الدار ونسلمها ...**))[3].

وقد تبين أن المقتفي لأمر الله خليفة قوي، إذ أسعفه الحظ بابن هبيرة[4]، الرجل الصلب سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٧م ليكون وزيراً له، وكان يؤمن باستقلالية الخلافة عن السلطة السلجوقية وعمل جهده لطرد السلاجقة من العراق، وهذا ما أكدّه ابن الجوزي بقوله: ((... **وكان الوزير مبالغاً في تحصيل التعظيم للدولة قامعاً للمخالفين بأنواع الحيل، حتى حسم أمور السلاطين السلجوقية**))[5].

---

[1] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٨٨؛ الراوندي، راحة الصدور، ص٣٣١؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص٤١٦ – ٤٢٥.

[2] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٥٦ – ٢٥٩.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٠.

[4] **ابن هبيرة:** هو أبو المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة. ولد سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م. دخل بغداد في صباه وتلقى العلم بها وجالس العلماء وتعلم الإنشاء، وقرأ التاريخ والأدب. اتصل بالخليفة المقتفي فولاّه بعض الأعمال، فأعجُب به واستوزره سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٧م وكان يقول ما وزر لبني العباس مثله، وأقرّه المستنجد بالوزارة إلى أن توفى سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م. ينظر: ابن حمدون ، التذكرة (مخطوطة)، ج١٢/ورقة ١٩١؛الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٢٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٥٠ – ٢٥١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١٩١.

[5] المنتظم، ج١٨/ ص١٦٧.

بدأ الخليفة المقتفي وابن هبيرة سلسلة من المواجهات بين أعوان السلطان، والرجال المتمردون على السلطان مسعود الذين جاءوا إلى بغداد لاستحصال الأموال، إلاّ أن الخليفة جمع بالأموال جنوداً وتمكن من طرد أولئك الأمراء[١].

وعند وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، انتهى تسلط السلاجقة على الخلافة، وقرر الخليفة ووزيره التحرر من كابوسهم، فكونت الخلافة لها جيشاً، وأصلحت أسوار العاصمة وتحصيناتها، وعيّن الخليفة عمّالاً للولايات[٢].

بعد هذا النضال انتصرت الخلافة على السلطنة بعد أن عانت من الخضوع والإذلال طوال مائة عام، وعلى الرغم من ذلك فإن الخلافة واجهت بضع حملات سلجوقية نجحت في دفع خطرها ومنها حصار بغداد سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، عندما هرب سليمان بن محمد بن ملكشاه من السلطان محمد بن محمود وقصد بغداد وطلب الأمان من الخليفة المقتفي، الأمر الذي أغضب السلطان محمد، فضرب حصاراً على بغداد، إلاّ أنه اضطر إلى مغادرتها سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م بسبب تمرد أخيه ملكشاه عليه[٣].

وفي سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م توفى المقتفي وورث الخلافة ابنه المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠م) الذي أقرَّ وزيره ابن هبيرة في الوزارة، وكان الصراع بين الخليفة والسلطان قد خفّت حدّته، بسبب التطاحن المستمر بين السلاجقة على السلطنة[٤].

وفي أواخر سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م قُتل سليمان شاه على يد رجاله وعلى أثر ذلك قُطعت خطبته في بغداد[٥]. وكانت خاتمة جهود السلاجقة لاسترداد نفوذهم مجيء

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٦٤ – ٦٥؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي لأمر الله، ص٩٩.

[٢] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٣٨.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١١١ – ١١٨؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص٦٨ – ٦٩؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي لأمر الله، ص١٠٠ – ١٠٢.

[٤] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٤٤ – ٤٤٨.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٤٦.

قائد تركماني اسمه (**شملة**) سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م، على رأس قوة سلجوقية مطالباً ببعض المناطق التابعة للعباسيين باعتبارها إقطاعاً لسيده السلطان السلجوقي أرسلان شاه الذي منحه إياها، وقد رفض المستنجد هذا الطلب ولم يجد صعوبة في طرد القوة الغازية[١].

ويبدو أن تخلص الخلافة من نير السلاجقة، لم يكن بفضل قوتها الذاتية بقدر ما كان ناتجاً عن انهيار معسكر السلاجقة وتمزق قوتهم، ودليلنا على ذلك ما كانت عليه الأوضاع في بلاط الخليفة المستنجد، فقد كان مقدم أمراء دولة الخليفة قايماز[٢] الذي تآمر مع أبي الفرج بن رئيس الرؤساء[٣]، وطبيب الخليفة، وأجبروا المستنجد على دخول الحمّام وأغلقوا عليه بابه وتركوه حتى مات[٤]. فالخلافة ما زالت أسيرة بيد المرتزقة الغرباء والمغامرين من أصحاب النفوذ.

وقد نصّب قتلة المستنجد ابنه المستضيء بالله (٥٦٦ – ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ – ١١٧٩م) بشرط أن يجعل ابن رئيس الرؤساء بمنصب الوزارة[٥]. ولم يكن لحكم

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٧٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٦

[٢] **قايماز:** هو قطب الدين قايماز، كان مملوكاً أرمينياً للخليفة المستنجد وعظم شأنه، واستولى على البلاد وتحكم بالدولة. توفّى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص٦٦.

[٣] **أبي الفرج بن رئيس الرؤساء:** هو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء بن المسلمة. تولى منصب أستاذ الدار في زمن المقتفي بعد وفاة أبيه وأقرّه المستنجد على ذلك. ولما تولى المستضيء الخلافة استوزره. وقتل على يد الإسماعيلية النزارية سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٨٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٢٤٥.

[٤] ابن أبي أصيبعه، طبقات الأطباء، ص٣٤٧ – ٣٤٨؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، مج٤، ق١، ص٤٥٣ – ٤٥٤؛ شبّر، خلفاء بني العباس، ص٢٦٥.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٩١.

المستضيء بالله أهمية سياسية سوى الحدث الوحيد المهم وهو نهاية الخلافة الفاطمية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[١].

وعندما تولّى أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء الخلافة (٥٧٥ – ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ – ١٢٢٥م) تدخل مباشرةً في شؤون السلاجقة وأقام الجواسيس في بلاطهم ليحصل على معلومات دقيقة تتعلق بنشاطهم وتحركاتهم[٢].

وفي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م أرسل وزيره هلال الدين أبو المظفر عبيد الله على رأس جيشٍ لمحاربة طغرل الثالث بن أرسلان شاه في همذان، لكن جيش الخليفة هُزم، وعند ذاك تحالف الناصر مع الخوارزميين[٣] بقيادة علاء الدين تكش ضد طغرل. وفي سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م هَزم خوارزم شاه طغرل وقتله في الري وحمل رأسه إلى بغداد[٤]. وبذلك تخلصت الخلافة تماماً من النفوذ السلجوقي، وأصبحت في منأى عن تحكّم سلاطين السلاجقة.

وقد تظافرت عوامل عدّة ساعدت على تحطيم قوة السلاجقة منها الانقسام والصراع بين الأبناء والأحفاد، ووجود الحاشية الفاسدة التي أوقعت بين السلاجقة للسيطرة على أرقى المناصب، فضلاً عن أثر النساء في إذكاء نار الفتنة بين رجال البيت الحاكم والتدخل في شؤون الحكم[٥].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٩٦؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٦؛ فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٧٤.

[٢] ابن الطقطقي، الفخري، ص٢٣٤؛ فريد بك، المصدر نفسه، ص٧٦.

[٣] **الخوارزميون:** (٤٩٠ – ٦٢٨هـ/ ١٠٩٧ – ١٢٣٠م) هم إحدى الأسر الإسلامية الساكنة في إقليم خوارزم شاه الذي يحده من الغرب والشمال بلاد الترك الغزية ومن الشرق بلاد ما وراء النهر. ينظر: حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٩٦؛ العبود، الدولة الخوارزمية، ص١٣٧.

[٤] الحسيني، زبدة التواريخ، ص٣١٣ – ٣١٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٢٣٢؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٦٣.

[٥] حلمي، السلاجقة، ص٧٦ – ٧٩.

لا شك أن تلك الأوضاع كانت من الأسباب الرئيسة في تكوين الرأي العام، من خلال المواقف التي اتخذت من الخلافة والناس وكان لابد لهذه المواقف من نتائج على الوضع العام – كما سنوضح في دراستنا لاحقا.

المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية (التباين الاجتماعي)

أولاً: طبقات المجتمع وسماته.

كانت للتطورات المعقدة التي مرَّ بها المجتمع العراقي في عهد بني العباس لاسيما بعد ضعف سلطة الخليفة وتسلط البويهيين والسلاجقة على الحكم أثر في ظهور طبقتين رئيسيتين حددهما ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) بقوله: **((فالرعايا على ضربين، خواص وعوام))**[١].

١- **طبقة الخاصة:** وتضم هذه الفئة أصحاب الخليفة وأقرباءه ورجال دولته البارزين مثل الوزراء والقادة والكتّاب، والقضاة، وأصحاب الأقطاع، ورؤساء التجّار، والعلماء، والأدباء، فضلاً عن الأتراك السلاجقة والمماليك الذين شكلوا معظم هذه الطبقة[٢]. وكان لهؤلاء باب خاص يدخلون منه لمقابلة الخليفة أُطلق عليه **((باب الخاصة))**[٣]. كما جعل لهم مطابخ وإسطبلات خاصة[٤]. وكان هؤلاء يختلفون من حيث النفوذ والسطوة باختلاف الخلفاء واختلاف الظروف المحيطة بهم[٥].

٢- **طبقة العامة:** ويشكلون الغالبية العظمى من الناس، ولهم مرافق خاصة بهم، ولهم باب عرف بـ **((باب العامة))** وتضم هذه الفئة: أصحاب الحرف، والصنائع، والتجّار، والفلاحين، والجند[٦] وصغار الموظفين، وصغار رجال الدين، وصغار التجّار من أصحاب الدكاكين، والباعة المتجولين، ويدخل ضمن هذه الفئة

---

[١] المصباح المضيء، ج١/ ص٢٧٦.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٤٧ – ١٤٨؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤/ ق٢/ ص٨١٢؛ ضيف، العصر العباسي الثاني، ص٥٣.

[٣] الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص٦٤، ٨٥.

[٤] النقيب، سياسة الخليفة الناصر لدين الله، ص١١٥.

[٥] زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٥/ ص٢٧؛ فهد، العامة ببغداد، ص١٢.

[٦] حسن، تاريخ الإسلام، ج٤/ ص٥٨٦؛ الدوري، تاريخ صدر الإسلام، ص٩١.

الرقيق، وصغار الجند، وأهل الريف[١]. وهم عادةً أقل منزلة من الفئة الخاصة من حيث المستوى المعاشي. ومن الجدير بالإشارة هنا أن هاتين الطبقتين ما تزالان موجودتين في عصرنا الحاضر.

وقد عاش العامة تحت وطأة الظروف السياسية المضطربة حياة قاسية،إذ عانَوا من الفقر والإرهاب ومطالب الحكام وتعديات الجند الشيء الكثير. ففي سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م دخل إلى دار الخلافة ثلاثة من أهل نهر الفضل وشكَوا للخليفة من أنهم صودروا وعوقبوا، وأنهم مضت عليهم أربعة أشهر وهم واقفون بالباب شاكين دون جدوى فوعدهم الخليفة المقتدي بإنصافهم[٢].

وقد ذكر أن أحد عمّال الخليفة المقتفي لأمر الله على منطقة نهر الملك[٣] بلغ به الظلم أنه كان يعذّب الرجال فيعلّقهم من أرجلهم، ويعذّب النساء لدرجة أنه يعلّقهنَّ من صدورهنَّ[٤].

ومن أكثر الأمور سوءاً ما كان يتعرّض له العامة من نزول الجنود السلاجقة في دورهم عند دخول هؤلاء ببغداد وغيرها من المدن، على أن هذا لم يكن يحدث دائماً، بل في أوقات الفوضى والحروب [٥].

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية التفاوت الكبير من الناحية الاقتصادية بين الحكام، وممن يُعدّون من الخاصة، وبين عامة الناس. وهذا التفاوت لم ينتج عن نشاط المترفين وجدّهم، وكسل المحرومين وخمولهم في معظم الأحوال. بل كان أكثر

---

[١] أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢٠٨؛ الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد، ص٢٠٩.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٥٦.

(٣) **نهر الملك:** هو النهر الذي يحمل من الفرات إلى دجلة أوله عند قرية الفلوجة ونهايته دجلة أسفل المدائن وكانت عامرة بالسكان وبها نخل وأشجار. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج١/ ص٣٧، ج٥/ ص٣٢٤؛ لسترانج، بلدان الخلافة العباسية، ص٩٤.

[٤] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مج٨/ ص٢٢٤.

[٥] ينظر مثلاً: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣، ١٨، ٢٩، ج١٧/ ص٢٣٦، ج١٨/ ص٣٠.

الناس جداً وكدحاً هم أقلهم نصيباً من ثروات البلاد، وأكثر معاناة من الحرمان والشقاء. فقد سكن الخلفاء والأمراء، والوزراء، وكبار القادة في قصور واسعة ومزوّدة بأثاثٍ فاخرٍ وكثير. أما دُور العامة فتغلب عليها البساطة واكتفت بأثاث بسيط يتناسب مع حالتهم الاجتماعية ومقدار دخلهم المتواضع[١]. كما كان هناك تفاوت في الأطعمة والملابس[٢].

ويمكن أن نلاحظ مظاهر أخرى من الحياة الاجتماعية منها: التفكك الاجتماعي، وتقطع أوصال المجتمع الأمر الذي نلمسه في ظهور جماعات وتكتلات متنوعة ومنها جماعات العيارين[٣] في العراق. هذا فضلاً عن انقسام الناس إلى فرق ومذاهب دينية متناحرة[٤]. وتكتل أهل الأحياء، وأهل الأسواق، وهو شعور بنوع من الوحدة والعصبية لحيّهم ولمهنهم[٥].

ثانياً: عناصر المجتمع:

كانت العامة من الناس في العراق تتألف من أجناس عدّة لوجود بغداد العاصمة السياسية للدولة العباسية، مما جعلها مقصد جميع أجناس الأمصار الإسلامية، إلى جانبِ تعدّد الأجناس في الجيش العباسي، لكن غالبيتهم العظمى كانت تتحدّث اللغة العربية، لغة البلاد الأصلية وتتأثر بالطابع العربي. ومن أهم العناصر التي سكنت العراق:

١- العرب:

وهم الأكثرية في العراق، ومن أشهر القبائل العربية التي كان لها النفوذ في القرن الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) قبائل

---

[١] النقيب، سياسة الخليفة الناصر، ص١١٦.

[٢] ينظر: فهد، العامة ببغداد، ص٩٦ – ١٩٢.

[٣] عن الرأي العام تجاه تجاوزات العيارين. ينظر: الفصل الثالث، المبحث الثاني.

[٤] عن الرأي العام تجاه الفتن الدينية والمذهبية. ينظر: الفصل الرابع، المبحث الرابع.

[٥] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٧٧.

خفاجة[١]، وقد انتشرت في الجنوب الغربي من الفرات بين الكوفة والبصرة[٢]. وقبائل بني أسد قرب الكوفة وعين التمر، ولما كان بنو مزيد ينتسبون إلى قبيلة أسد، صارت إمارة بني مزيد بالحلة هي نقطة جذب لابن جلدتهم فتوافدوا إليها واستقروا بها. ومما يؤكّد هذه الكثرة أنه قتل أربعة آلاف فارس عند جلاء المزيديين من الحلة سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م[٣]، وفي ذلك دلالة واضحة على كثرة أعدادهم سواء أكانوا في الجيش أم خارجه.

وكانت تسكن في الكوفة قبائل أخرى مثل خزاعة وبكر وبجيلة وقضاعة وحنظلة، ومذحج وعبد قيس[٤]. وسكنت في البصرة قبيلة ربيعة، ومضر، وسكنت بنو تميم في بادية البصرة الغربية[٥]. واستوطنت الموصل قبائل الخزرج والأزد وبنو تميم، وبنو وائل من بكر وتغلب، كما نزلها بنو قيس وهم من قبائل مضر[٦].

وقد اقتضت طبيعة النظام القبلي قيام نوعٍ خاصٍ من العلاقة بين القبائل والدولة، إذ عُدَّ شيخ العشيرة ذا سلطة منفردة على عشيرته أو قبيلته[٧] وهذه الولاية قامت على أساس الضرورات العملية، لأن السيطرة على أفراد وجماعات البدو عن غير طريق شيوخهم أمر متعذر كما قامت على أساس التقاليد والأعراف الراسخة من قرون طويلة تعود إلى عصر قبل الإسلام.

وغالباً ما كانت القبائل تحصل من الخلافة على رسوم سنوية من الطعام والتمر وغير ذلك، وأنهم يكتفون بلبن الإبل وخبز الشعير عندما تمنع الخلافة عنهم

---

[١] **بنو خفاجة:** بطن من بطون بني عقيل بن عامر بن صعصعة وقد انتقلوا إلى الجزيرة والعراق وأقاموا في باديتها، وسكن قسم منهم في المدن الواقعة على نهر دجلة والفرات. البراقي، تاريخ الكوفة، ص٤٢٧.

[٢] الصابئ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص٤٧٢؛ أمين، تاريخ العراق، ج١/ ١٤.

[٣] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٤؛ أبو الفدا، المختصر، ج٢/ ص١١٥؛ الخزاعي، الحلة في العصر العباسي الأخير، ض١٠٤.

[٤] أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص١٤.

[٥] الأصطخري، المسالك والممالك، ص٢١.

[٦] السويدي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص٤٤.

[٧] الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٩٩؛ الفرّاء، الأحكام السلطانية، ص٩٤.

المعونة[١]، كما حدث في سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م عندما منعت الخلافة المعونة عن خفاجة[٢].

٢- الأتراك:

دخل الترك العراق في أحوال مختلفة وأزمان متفاوتة، فكثر عددهم وقويت شوكتهم، بعد أن استخدمهم العباسيون في جيشهم لقابلياتهم القتالية[٣]. وظهر أثرهم في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٢٣ - ٨٤١م) وصارت لهم الكلمة العليا في البلاد[٤].

ويبدو أن العنصر التركي ظل مؤثراً في الوضع الاجتماعي العام في عصر السيطرة السلجوقية، ومما يُذكر في هذا المجال أنه في سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م أقطع الخليفة المسترشد بالله الحلة إلى خادمهِ إقبال المسترشدي ولقبه حسام الدين، وضم إليه عشرة آلاف فارس من العرب والترك والأكراد[٥]، وفي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م أقطعت الحلة إلى قطب الدين قايماز[٦].

٣- الأكراد:

سكن الأكراد القسم الأعلى من الجزيرة وفي الجهات الشرقية والشمالية الشرقية منها[٧]. وإن قسماً منهم تعايش مع العرب في بغداد، ومدن الفرات،

---

[١] عن الرأي العام تجاه القبائل التي سكنت العراق ينظر: الفصل الثالث، المبحث الأول.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٤٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٤٦؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص١٩٤.

[٣] الجاحظ، مناقب الترك، ص٤٣ - ٤٨.

[٤] أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص١٥.

[٥] الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص١٠٨.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٧٩.

[٧] أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص١٥.

ولاسيما مدينة الحلة إذ كانت هناك محلة خاصة بهم تُسمى (محلة الأكراد)[1].

وساند الأكراد الخلفاء العباسيين في صراعهم مع السلاجقة إذ اشترك الأمير مهلهل بن أبي العسكر الجاواني إلى جانب الخليفة المقتفي لأمر الله في صراعه مع السلطان محمد الذي سار سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م لاحتلال بغداد فكافأه الخليفة على ذلك وجعله والياً على الحلة[2].

ومن العناصر التي سكنت العراق الديالمة وهم الذين كانوا يسكنون جنوب شرق بحر قزوين، واستقر بعضهم قبل دخول البويهيين إلى العراق[3]، ثم ازداد عددهم في العصر البويهي (٣٣٤ – ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ – ١٠٥٥م) وأصبح لهم نفوذ كبير في العراق. كما سكن في العراق بعض الفرس والنبط الذين كانوا يتكلمون الآرامية[4].

ثالثاً: الفئات الدينية:

تعددت المعتقدات الدينية والمذهبية في العراق، وأفرزت تلك المعتقدات فئات دينية، ومن أهمها:

١- المسلمون:

من أشهر الأديان السائدة في العراق الدين الإسلامي، إذ أنه دينُ الدولة الرسمي، ومعظم سكّان العراق يدينون به على اختلاف مذاهبهم. وأشهر المذاهب السنة والشيعة. وكان أهل السنة في بغداد يمثلون الأكثرية من سكّانها[5].

ويمكن القول إن الخلافات المذهبية كانت تفرق بين الناس في العاصمة، وفي كثير من المدن الأخرى، وتؤدي إلى اضطرابات عنيفة وخسائر بالأرواح والممتلكات[6]. كان بالإمكان استخدامها ضد المتسلطين.

---

[1] ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١/ ص١٣٨.

[2] الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٤.

[3] مسكويه، تجارب الأمم، ج٢/ ص٤١.

[4] أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص١٥.

[5] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مج٨/ ص٣٥٩؛ القزاز، الحياة السياسية ، ص١٥١ .

[6] ينظر: الفصل الرابع، المبحث الرابع من هذه الدراسة.

أما السلاجقة فإن شأنهم شأن أغلب الأتراك، اعتنقوا مذهب أهل السنة منذ أن اتخذوا الإسلام ديناً، وعلى وفق المذهب الحنفي[١].

٢- **أهل الذمة:**

مع أن المسلمين هم الغالبية العظمى في العراق إلاّ أنهم لم يتعرضوا بسوء لباقي الفئات الدينية المتعايشة معهم ومنهم أهل الذمة[٢] إذ لم نجد في عصر السيطرة السلجوقية وقوع صدامات أو سوء علاقة مع باقي المعتقدات إلاّ ما ندر، وإنما كانت علاقاتهم طيبة وحسنة[٣]. ومن الفئات الدينية لأهل الذمة:

أ- **اليهود:**

وكانوا يتمتعون بالكثير من التسامح الديني ويقيمون شعائرهم بأمن وطمأنينة، وكان الكثير من الخلفاء يحضرون مواكبهم ويشتركون في الاحتفال بأعيادهم ويزورون أديرتهم ويغدقون عليهم الهبات والعطايا. وكان لليهود رئيس ببغداد يُطلق عليه **(رأس الجالوت)**[٤].

وقد أشار التطيلي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) في رحلته التي زار بها بغداد في عهد الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠م) عن أعداد اليهود بقوله: **((ويقيم في بغداد نحو أربعين ألف يهودي، وهم يعيشون بأمان وعز ورفاهة في ظل أمير المؤمنين الخليفة ... ولهم في بغداد عشر مدارس مهمة))**[٥].

ويبدو أن هذا العدد غير مقنع لأنه جاء من مؤرّخ يهودي، إلاّ أن أعدادهم كانت غير قليلة.

---

[١] براون، تاريخ الأدب في إيران، ج٢/ ص٢١١؛ أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص١٣٧.

[٢] **أهل الذمة:** الذمة في اللغة هي العهد والأمان والضمان، وقد أصبح رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين ومن أصحاب الأديان السماوية في ذمة العرب والمسلمين يؤمنونهم على أرواحهم وممتلكاتهم ويطلقون لهم الحرية الدينية مقابل دفع الجزية. ينظر: الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص٦٥؛ إدريس، الأحوال الاجتماعية والفكرية لأهل الذمة، ص٢١.

[٣] ينظر: روندو، النصارى في الشرق، ص٩.

[٤] التطيلي، رحلة بنيامين، ص١٣٦؛ إدريس، الأحوال الاجتماعية والفكرية لأهل الذمة، ص٦٧.

[٥] رحلة بنيامين، ص١٣٥.

إن هذه الأعداد لليهود في العراق، وكثرة كنائسهم التي بلغت حوالي ثمان وعشرون كنيساً[١]، وثبوت قبور زعمائهم يحمل على الاعتقاد بأن اليهود كان لهم تواجد واضح وأكثر هذا التواجد في منطقة (بو ملاحة)[٢] التي يوجد فيها قبر حزقيل المعروف **بـ (ذي الكفل)** الذي يقصده اليهود من مختلف البلدان حاملين الصدقات الوافرة ولاسيما في رأس السنة، وفي عيد الكفارة، وتقام الأفراح في تلك الأيام[٣].

ب- **النصارى:**

كان للنصارى في بغداد رئيس يُسمى **(الجاثليق)**، وتؤكد عهود الخلفاء للجثالقة على أن الجاثليق يتم اختياره من بين المطارنة وكانت هناك مراسيم لتتويجه[٤].

وقد انتشر النصارى في العراق ولاسيما في أحياء بغداد ودروبها، وهذا مؤشر على حالة التعايش بين المسلمين وأهل الذمة ولاسيما النصارى، وهي دلالة على الحرية التي كان يتمتع بها بقية الأديان في ممارسة شعائرهم الدينية، لذا كان أهل الذمة يرتبطون بعلاقات اجتماعية عدّة مع المسلمين منها علاقة الجوار[٥]. ولم يكن يكن للنصارى في بغداد حيٌّ خاص بهم، فمنهم مَن يسكن في الكرخ، وفي درب

---

[١] التطيلي،رحلة بنيامين، ص١٣٩.

[٢] الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ص٣١٩.

[٣] الهمذاني، جامع التواريخ، ج١/ ص٣١؛ كورية، يهود العراق، ص٤٩ – ٥٠.

[٤] ينظر: يحيى، أهل الذمة في العراق، ص٤٧ – ٥٠.

[٥] إدريس، الأحوال الاجتماعية والفكرية لأهل الذمة، ص٩٣.

الشاكرية[١]، وبالقرب من كنيسة سوق الثلاثاء[٢]، وفي درب دينار[٣]، وفي دروب باب المراتب[٤]. كما أقاموا في أرجاء محلة الشماسية، ولاسيما في دار الروم[٥]. ومن محلات بغداد قطيعة النصارى[٦].

وقد وردت إشارات تدل على مشاركة بعض المسلمين في تشييع جنائز أهل الذمة[٧]، ومشاركة بعض اليهود والنصارى في تشييع جنائز المسلمين[٨]. وكان الكثير من المسلمين يشاركون النصارى الاحتفال في أعيادهم الدينية، حتى أصبحت بعض الأعياد النصرانية أعياداً شعبية يشارك فيها الجميع[٩].

وكان النصارى أكثر تعايشاً واختلاطاً بالمسلمين من اليهود، فأحبار اليهود كانوا يحرمون أتباعهم أن يخالطوا مَن كان على غير ملتهم[١٠]. ويبدو أن هذا التشدد من علماء اليهود قد ساهم كثيراً في عزلتهم الاجتماعية وقلة المعلومات التاريخية عنهم.

---

[١] **الشاكرية:** محلة في الجانب الغربي من بغداد، من محلات الحربية نسبةً إلى فرقة من الجند. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٧.

[٢] **سوق الثلاثاء:** سُمي بذلك الاسم لأنه كان يقوم عليه سوق لأهل بغداد قبل أن يعمرها المنصور في كل شهر يوم الثلاثاء، فنُسب إلى اليوم الذي كان يقوم فيه السوق. الحموي، المصدر نفسه، ج٣/ ص٢٨٣.

[٣] **درب دينار:** من دروب بغداد الشرقية بالقرب من شارع المأمون حالياً. ينظر: الحموي، المصدر نفسه، ج٢/ ص٤١٩؛ إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص٧٩.

[٤] **باب المراتب:** محلة واقعة في الجانب الشرقي لبغداد، في القسم الجنوبي من دار الخلافة. ينظر: رؤوف، خطط بغداد، ص٣٦.

[٥] إسحاق، أحوال نصارى بغداد، ص٢٣.

[٦] **قطيعة النصارى:** محلة داخل بغداد في غربي الكرخ متصلة بنهر طابق. الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ص٣٧٨.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٠٦.

[٨] إدريس، الأحوال الاجتماعية والفكرية لأهل الذمة، ص٩٤.

[٩] ينظر: فييه، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ص٢٥٧؛ فهد، العامة ببغداد، ص٢٠٣ – ٢٠٨.

[١٠] السموأل، قصة إسلام السموأل، ص١٦٢ – ١٦٣.

أما الصابئة (المندائيون) في العراق فكانوا يسكنون جنوب العراق في منطقة الأهوار ، وعلى الضفاف الدنيا من نهري دجلة والفرات[١].

لم تذكر لنا المصادر التاريخية إلاّ القليل عن الصابئة المندائيين في بغداد، من خلال بعض الإشارات إلى بعض الشخصيات المندائية التي كان لها الأثر الكبير في مختلف العلوم[٢].

---

[١] دراوور، الصابئة المندائيون، ص٤٠.

[٢] إدريس، الأحوال الاجتماعية والفكرية لأهل الذمة، ص٩٣.

المبحث الثالث: البنية الفكرية للشخصية العراقية وأثرها في تكوين الرأي العام.

أولاً: الشخصية العراقية وتأثير الأوبئة والكوارث فيها.

شخصية الفرد تتأثر بالظروف المحيطة بها، وهي قد تكون ضعيفة أو قوية تبعاً لتفاوت الظروف في كل مجتمع، وسببها وقوع المجتمع تحت تأثير نظامين متناقضين من القيم، فيضطر بعض الأفراد من جراء ذلك إلى الاندفاع وراء أحد النظامين تارة، ووراء الآخر تارةً أخرى، فَهُمْ يناقضون أنفسهم دون اكتراث ظاهر.

والواقع أن هذا المعنى فيما يقصده علماء النفس من ازدواج الشخصية، أنه مرضٌ نادرٌ يصيبُ بعض الأفراد من جراء عوامل خاصة بهم، حيث يتقمص المصاب شخصية معينة تارة، ويتحول عنها إلى شخصية ثانية تارةً أخرى، وهو ينسى في أثناء تقمصه إحدى الشخصيتين ما فعل في أثناء تقمصه الشخصية الثانية. فازدواج الشخصية بالمعنى الاجتماعي ظاهرةٌ وليس مرضاً[١].

وقد أشار عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي إلى أن العرب مصابون بداء ازدواج الشخصية أكثر من غيرهم من الأمم، لوقوعهم تحت تأثير عاملين متناقضين هما البداوة، والإسلام. فهم في بادئ أمرهم بدو عاشَوا في الصحراء، ثم جاءهم الإسلام بعد ذلك حاملاً من التعاليم ما يخالف قيم البداوة القديمة، وإن هذه القيم تحرض على الكبرياء وحب الرئاسة، وتفتخر بالنسب، أما الإسلام فهو دين الخضوع، والتقوى، والعدالة وما أشبه[٢].

ويضيف الوردي قائلاً: **((... إن العربي بدويٌ في عقله الباطن، مسلمٌ في عقله الظاهر، فهو يمجّد القوة والفخار والتعالي في أفعاله، بينما هو في أقواله يعظ الناس بتقوى الله وبالمساواة بين الناس))**[٣].

ولم يكن جميع العرب في هذه الحالة سواسية، إذ أن الازدواج يظهر جلياً في تلك المناطق من بلاد العرب التي هي قريبة من البداوة من جهة ويكثر فيها رجال الدين

---

(١) الوردي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٢٣٩ – ٢٤٠.

(٢) وعّاظ السلاطين، ص١٩.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

من الجهة الأخرى. فالعراقي مثلاً أكثر ازدواجاً من غيره من أبناء الأمم العربية الأخرى ولذلك سببان:

أولهما: أن العراق تلقى من الموجات البدوية قسطاً يفوق ما تتلقى البلاد العربية الأخرى، وبذلك يكون قد وقع تحت تأثير القيم البدوية، أكثر من غيره من البلاد الأخرى.

وثانيهما: أن العراق منذ صدر الإسلام منبعٌ من منابع الفرق الدينية ومهبطٌ لكثير من مبادئ الإسلام وتعاليمه وأفكاره[١]. وبذلك يكون ازدواج الشخصية ظاهراً في العراق يُصاب به الكثير من أبنائه[٢].

كما أن ازدواج الشخصية في العراق لا يشمل جميع سكّانه على درجة واحدة، لأنه لا يظهر في المجتمع إلاّ إذا كان فيه نظامان متناقضان من القيم. وهذا أمر كثير الحدوث في المدن، وهو قليل في الريف ونادر في البادية[٣].

إن المجتمع البدوي يعيش في ظل ثقافة اجتماعية واحدة، وهو يكاد لا يعرف غيرها، فالفرد البدوي لم يتعلم في بيئته المنعزلة أفكاراً أو مُثلاً عليا تخالف القيم والعادات التي نشأ عليها منذ طفولته، والبدو حين يتعاطون الغزو والنهب والثأر والعصبية لا يدركون أنهم في ذلك يعصون الله أو يخالفون أوامر الدين[٤].

ويمكن القول في مثل هذا عن أهل الريف، ولاسيما أولئك الذين لم يتصلوا بالمدن وبمواعظها الدينية كثيراً، أنهم لا يعرفون في حياتهم الاجتماعية غير قيمهم العشائرية التي نشأوا عليها منذ طفولتهم. وقد يظهر الازدواج عند بعض الأفراد في الريف وهم الذين يخالطون أهل المدن ويتأثرون بمجادلاتهم المنطقية ومواعظهم الدينية، وهم قليلون نسبياً في شدّة ازدواجهم عمّا هو عليه في أهل المدن.

---

[١] للتفاصيل عن ازدواج الشخصية العراقية منذ صدر الإسلام ينظر: الوردي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٢٤٢ – ٢٤٥.

[٢] الوردي، شخصية الفرد العراقي، ص٣٩ – ٤٥.

[٣] الوردي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٢٤٦.

[٤] المرجع نفسه والصفحة.

أما أهل المدن فإن الفجوة بين تفكيرهم وسلوكهم واسعة جداً، مما أدى إلى استفحال الازدواج فيهم[1].

ومن العوامل التي ساعدت على تقوية بعض مظاهر الازدواج في الشخصية هي الكوارث الطبيعية التي فتكت بآلاف الأرواح بسبب كثرة الفيضانات، وتكرر وقوع الأوبئة المميتة في الإنسان والحيوان. ومن وقوع الزلازل والعواصف الشديدة والسيول الجارفة، والجفاف، تزامنت بشكل واضح مع السيطرة السلجوقية، وقد رافق تلك المتغيرات في الطبيعة ظلمٌ سياسيٌ، حتى يُخيَّل للفرد أن هناك علاقة بين السياسة والظواهر الطبيعية[2].

أثّرت الكوارث الطبيعية تأثيراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وساهمت في خلق كثيرٍ من الأزمات النفسية والاجتماعية، فضلاً عن أضرارها المادية والعمرانية الكبيرة. وتتمثل هذه الكوارث بالأوبئة التي تكرّر حدوثها، وأدّت إلى خسائر بشرية، وكوارث الفيضانات، ولعل أبلغها أثراً فيضان سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م[3]، وسنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[4]، وسنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م[5]،وسنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م[6]

هذا فضلاً عن حدوث حالات الجفاف المتكررة، وما ينتج عنها من شحة الموارد الغذائية، وتلف المزروعات، مما يؤدي إلى حالات الغلاء وارتفاع الأسعار، كالذي وقع في الموصل سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م بفعل قلة الأمطار[7]، وكارثة وقوع الزلازل

---

(١) الوردي، وعّاظ السلاطين، ص٢٤٧.

(٢) القيسي، طبيعة المجتمع العراقي في العصر العباسي المتأخر، ص١٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٠٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٣١٧؛ العبر، ج٣/ ص٢٦٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٠٩.

(٤) ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٣٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٣٢٩.

(٥) ينظر: ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص٢٠٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٥٠.

(٦) ينظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٧.

(٧) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٨٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩٩ – ٣٠٠.

التي تكرر حدوثها في الموصل وبغداد وواسط، مثل زلزال سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م[١] في بغداد، وسنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م[٢]، وسنة ٥١١هـ/ ١١١٧م[٣] في واسط، وسنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٠[٤] في الموصل.

وحدثت كوارث أخرى بسبب التبدلات المناخية من حرارة عالية، وبرودة قاسية، وسقوط الثلج والبرد، وكارثة اجتياح الجراد الذي دمّر المزروعات مما أفرز متغيرات جديدة على المجتمع العراقي[٥]، الذي صار في بعض سنوات هذه الكوارث بين نارين، نار السيطرة السلجوقية، ونار الأوبئة القاتلة.

لقد ابتُليت مدن العراق لاسيما بغداد في عصر السيطرة السلجوقية، بانتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة التي راح ضحيتها الكثير من أرواح الفقراء[٦]، ممن لم يستطيعوا الحصول على الغذاء الجيد والأدوية لمعالجتها. ومثال على ذلك ما حدث في سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٧٨م، إذ اجتاح بغداد وضواحيها وباء الطاعون ففتك بالكثير من الأرواح، وكانوا يوصون في حال صحتهم، وكان الميت يبقى دون تغسيل، والحفّارون يحفرون عامة ليلتهم، وعظمت معاناة الناس لكثرة الموت[٧]. ومن المفارقات العجيبة أن بعضاً من السلاجقة الأتراك قد تركوا بغداد تواجه هذه المحنة، ومن القصص على معاناة أهالي بغداد ما رواه ابن الجوزي قائلاً:

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٧٩.

[٢] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦/ ص١٣٨؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٠٥.

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٦٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٢١٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٣٠.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٧٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢٥.

[٥] القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص١١٤.

[٦] ينظر مثلاً: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٨٣، ٢٥٧، ج١٧/ ص٥٤، ج١٨/ ص١١٨.

[٧] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٢٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص١٢٠.

((أن درباً من دروب التوثة[1] مات جميع أهله فسدَّ باب الدرب))[2].

لقد أدّت هذه الأوبئة القاتلة والكوارث إلى خلق ثنائية فكرية لطبيعة المجتمع، فبينما اعتاد سكّان المدينة العراقية منذ طفولتهم على حب الغلبة والفخار والعصبية والثأر والاعتداد، كانت الأوبئة تجتاحهم بين حين وآخر، فتبعث فيهم نزعة مناقضة لما اعتادوا عليه، وهي الحزن والخنوع والشكوى من الزمان. مما يوضّح أن الشخصية في المدن صارت ذات طابعين مختلفين. أحدهما يميل نحو التألّم والخنوع والشكوى، والآخر يميل نحو التحدي والمغالبة[3].

ثانياً: مظاهر البذخ والترف:

إن معظم الحكّام في العصر السلجوقي يتصرفون بالأموال العامة وكأنها أموالهم الخاصة، وكان البذخ والثراء للطبقة الحاكمة يتجلّى في بناء القصور ومناسبات الزواج والأفراح، أو عند حدوث النكبات التي يتلوها نهب القصور.

وكانت حياة أكثر رجال الحكم تتسم بالبذخ والإسراف المتناهي، ومن هذه المظاهر أنه عندما تزوج الخليفة المستظهر أخت السلطان محمد بن ملكشاه وزُفَّت إليه سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م زينت بغداد، ووصل جهاز العروس على مائة واثنين وستين جملاً، وسبعة وعشرين بغلاً[4]، مما يدلُّ على أن الخلفاء العباسيين على الرغم من ضعفهم في ذلك الوقت فإنهم يعيشون عيشة تتسم بالبذخ، وقلّدهم الأمراء وكبار الدولة في هذا السلوك.

ومن مظاهر الترف والإسراف أيضاً ما قام به السلطان محمود بن محمد سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، إذ عمل وليمة كلّفت خمسين ألف دينار، وقد امتزجت هذه الوليمة بالأغاني واللهو بمناسبة شفاء وزيره السميرمي من المرض[5].

---

[1] **التوثة:** محلة في غرب بغداد متصلة بالشونيزية مقابلة لقنطرة الشوك. الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ص٥٦.

[2] المنتظم، ج١٦/ ص٢٤٠.

[3] الوردي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٢٥٥.

[4] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٢٠؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٧١؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص١٧٦؛ علي، الزواج السياسي، ص١٠٧.

[5] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥، ص٢٩٠.

وبمناسبة ختان أولاد الخليفة المسترشد سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م زينت بغداد وعملت زوجته الخاتون قباباً عليها من الثياب الديباج والجواهر ما أدهش الناس[١].

وعندما قُبض على وزير الخليفة، أبي القاسم الزيني وصودر سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م أُخذت من داره أموالٌ عظيمة، وأواني ذهب وفضة، ومراكب ذهب وثياب وآثاث، واستمر النقل من الدار ثلاثة أيام ولم تفرغ[٢].

وحين أُلقي القبض على أحد أعوان السلطان المُسمى **(ابن الهاروني)**[٣] سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م ظهر أنه غني جداً وله من الأموال والآثاث وأواني الفضة والذهب كميات كبيرة، وصل إلى الخليفة من ماله مائتا ألف دينار وله ودائع عند القضاة والتجّار[٤].

وفي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م تزوج السلطان مسعود فأمر أن تُنار بغداد ليلاً سبعة أيام وجعلها ساحة طرب ولهو ومجون[٥].

ومن الظواهر الاجتماعية انتشار الفقر بين الرعية والغنى بين الحكّام، إذ انتقلت أموال الأهالي قسراً إلى خزائن السلاطين فكانت لا تفرغ على الرغم من إسرافهم وتبذيرهم. ومما يُذكر أن السلطان محمد بن ملكشاه على الرغم من تعدد حروبه وتكاليفها كان يملك ثمانية عشر مليون دينار نقداً عدا الجواهر، وكان لكل قائد وأمير ثروة وخزانة خاصة ينفق منها على هداياه ومنحه وضيوفه[٦].

ومما يُذكر عن السلطان سنجر بن ملكشاه (ت ٥٥٢هـ/ ١١٥٥م) أن خزائنه ضمَّت من الأموال ما لم يُسمع بمثله في سابق العصور، وأنه كان معطاءاً مسرفاً،

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢١٩.

[٢] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مج٨/ ص١٤٠.

[٣] **ابن الهاروني:** كان يشغل منصب مختص الحضرة أو **(المكّاس)** أي المسؤول عن فرض المكوس في عهد الخليفة المسترشد بالله. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٠٧.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٥٧.

[٥] الذهبي، المصدر نفسه، ج٣٦/ ص٢٠٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٣/ ص٣٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢١٣.

[٦] حلمي، السلاجقة، ص٢٠٢.

ومن بذخه بلغ ما وهبه في خمسة أيام متتابعة سبعمائة ألف دينار، فضلاً عن عدد من الخيل والخِلع والآثاث[1].

ثالثاً: ظاهرة السلب والنهب.

من الظواهر الاجتماعية التي أثّرت على تكوين الرأي العام في عصر السيطرة السلجوقية ظاهرة السلب والنهب. إذ شهدت مدن العراق سلسلة من أعمال الاعتداء من قبل سلاطين السلاجقة المتنازعين وأمرائهم وأعوانهم، وكذلك من الزعامات المحلية والقبلية الطامعة التي كانت تستغل اضطراب الوضع السياسي وفقدان الأمن، فضلاً من اعتداءات العيارين.

فمنذ أول أيام دخول طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م انتشر الجنود المرافقون له في سواد العراق وكثر السلب والنهب في بغداد[2]. وهذا شأن الطبيعة البدوية التي تتميّز بحب النزاع واستمراره ولاسيما مع الأضعف طمعاً بما يملكون. وفي ذلك يقول ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م): **((إن البدو هم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم))**[3].

واستمرت هذه الحالة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م حتى زوال دولتهم سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، إذ تعرضت مدينة واسط سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م على يد قوات السلطان بركياروق في أثناء صراعه مع أخيه محمد بن ملكشاه إلى دخول العسكر في المدينة فعاثوا بها فساداً إذ قلعوا الأبواب واستخرجوا الذخائر، ونهبوها وفعلوا ما لم يفعله الروم[4].

وعند اشتداد الصراع بين السلطانين **(بركياروق ومحمد)** سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م تعرضت مدن العراق ولاسيما بغداد لأعمال الشغب والنهب والمصادرة من قبل

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢/ ص١٤٨.

(٢) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص١١؛ ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص٤.

(٣) المقدمة، ص١١٠.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٥٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤/ ص٢٢؛ الجبوري، العلاقات بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة، ص٥١.

جيوش السلاطين ونوّابهم الذين لم يمرّوا بقرية كبيرة أو صغيرة إلاّ أخذوا الأموال بالضرب والإحراق وأبطلت معايش الناس وغلت الأسعار[١]. وتكرر الاعتداء على مدن العراق وقُراه سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م[٢].

وتلقّت مدن العراق ومنها بغداد مزيداً من المضايقات والأزمات الاقتصادية، لاسيما حين يدخلها السلاطين بجيوشهم. ففي سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٥م، دخل السلطان محمود وعساكره بغداد على الرغم من معارضة الخليفة المسترشد بالله بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة للناس: ((**فنزلوا في دور الناس وانبثوا في الحريم وغيره**))[٣] فكثرت أعمال السلب والنهب[٤] والاعتداءات على الناس والخلافة[٥].

كما تعرضت مدن العراق لمزيد من أعمال السلب والنهب على يد القبائل البدوية كلما أحسّوا بضعف السلطة المركزية. وقد أنهكت أحوال الناس الاقتصادية والاجتماعية وأذلتهم. ومثال ذلك ما شهدته البصرة سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م من أعمال سلب ونهب لفساد الإدارة فيها وفقدان السلطة على يد قبائل ربيعة والمنتفق ومن انضم إليها من العرب فأُحرقت الأسواق والدور وأُستُبيحت المدينة لأكثر من شهر وتشرّد أهلها في السواد[٦].

وفي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٢م شهدت مدن السواد أعمال سلبٍ ونهبٍ على يد دبيس بن صدقة المزيدي (أمير الحلة) في أثناء المعارك بين السلطانين مسعود ومحمود، فنهب نهر عيسى[٧]، ونهر الدجيل[٨] فخرج أهلها مذعورين إلى بغداد ثم ذهب إلى

---

[١] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤/ ص٥٣؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٠٤.

[٢] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١١٣ – ١١٩.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٣٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٩٦.

[٤] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٣١٠.

[٥] عن الرأي العام تجاه تجاوزات السلاجقة. ينظر: الفصل الثاني، المبحث الأول من هذه الدراسة.

[٦] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٩٥.

[٧] **نهر عيسى**: من فروع دجلة غرب بغداد عليه قرى كثيرة. الحموي، معجم البلدان، ج٥/ ص٣٢٢.

[٨] **نهر الدجيل**: يقع شمال بغداد تُسقى منه مدن كثيرة. المصدر نفسه، ج٣/ ص٤٤٣.

بعقوبة وفرض عليها الحصار إلى أن أخذها عنوةً واعتدى على الناس وأحرق الغلاّت[1].

وقد شنَّ الأعراب سلسلة من الاعتداءات على مدن العراق وقوافل الحجّاج بهدف السلب والنهب. ففي سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م و ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م تعرّضت قوافل الحجاج العراقيين إلى اعتداءات الأعراب ومنها خفاجة[2]. وفي سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م وصل ركب الحجّاج العراقي قرب بغداد بعد عودتهم من إداء الفريضة، فخرج عليهم بنو خفاجة عند مدينة الحلة ونهبوا أموالهم[3].

وغالباً ما تكون هذه الهجمات بسبب سوء العلاقة بين القبائل البدوية وبين الخلافة، التي خصّصت رسوماً من الطعام والسمن لتلك القبائل مقابل حماية بعض المدن العراقية ومنها الحلة والكوفة، وتقوم الخلافة بقطعها لمعاقبة القبائل عندما تخرج عن طاعتها[4]. فما على القبائل إلاّ اللجوء الى عمليات السلب والنهب لتعوض عن النقص في الطعام.

لحركة العيارين أثر في عمليات النهب والسلب في مدن العراق لاسيما بغداد[5]، وغالباً ما كانت أفعالهم تروّع الأهالي المنهكين من السيطرة السلجوقية. إذ قتلوا الكثيرين ونهبوا ما يقع بأيديهم حتى وإن كانت عمامة فوق رأس، أو ثياب في حمّام[6]، مستغلين فقدان حالة الأمن، ودعم وإسناد السلاجقة وأتباعهم لهم، الأمر الذي أدّى إلى زيادة نشاطهم الهدّام. ففي سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م وعند دخول السلطان

---

[1] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٨٦ – ١٨٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٩٢ – ١٩٣؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٢٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٨٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦١٣.

[2] ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص٢٧؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٣٩، ٢٢٦؛ البراقي، تاريخ الكوفة، ص٤٢٨.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٧٦؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص٢٥٤.

[4] الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص٢٦.

[5] ينظر: الفصل الثالث، المبحث الثاني من هذه الدراسة.

[6] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٥٤، ٣٠٩.

مسعود إلى بغداد ونزول جنده في دور الناس ازدادت سرقة العيارين في النهار حتى ضيّقوا معايش الناس، محتمين بابن وزير السلطان مسعود وأخ زوجته اللذَيْن كانا يقاسمان العيارين فيما يسرقون، حتى تقوّى أمر العيارين إلى الحد الذي صار لهم جواسيس على الناس[1].

ومن الطبيعي أن يكون للرأي العام المتمثل بالسلطة وأبناء المدن العراقية موقفٌ تجاه عمليات النهب والسلب المتكررة للسلاجقة والزعامات المحلية، والأعراب، والعيارين، للحد منها طالما أثّرت على حياتهم الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية.

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٢٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٢٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٥.

المبحث الرابع: الأوضاع الاقتصادية.

إن المقوّمات التي تتشكل منها الحياة الاقتصادية لأي شعب هو الإنتاج، وطرائق توزيعه، وأساليب تبادل السلع في داخل البلاد وخارجها، لذلك فإن الحديث عن الأوضاع الاقتصادية لابد أن يتناول الزراعة، والتجارة، والصناعة، وما يتعلق بهما.

أولاً: الزراعة.

اعتمدت الحياة الاقتصادية في العراق اعتماداً رئيساً على الموارد الزراعية، حيث تميزت تربة أغلب مدن العراق بخصوبتها التي كونتها الترسبات الغرينية والرملية، مما جعل الأملاح فيها قليلة وذات صرفٍ جيدٍ، فضلاً عن احتواء تربتها على العناصر المعدنية. وتميزها بالظروف المناخية المناسبة التي شجّعت الفلاّح بأن يزرع أكثر من محصول في السنة الواحدة(١)، وتوافر الموارد المائية الآتية من مياه دجلة والفرات وتفرعاتهما(٢). وبذلك أصبحت الزراعة نشاطاً مربحاً للسكّان. فلا عجب إذا ما قيل أن اقتصاد العراق كان اقتصادٌ زراعيٌ بالدرجة الأولى وعليه يعوّل الناس في مواردهم(٣).

وقد بذل الحكّام جهوداً لتنشيط الزراعة وإنعاشها، منها إصلاح وسائل الري. ففي سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م قام العميد أبو الفتح بإصلاح بثوق الكرخ(٤).

وعندما انفجرت البثوق في منطقة الفلوجة سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م وانقطعت المياه من النيل وغيره في تلك المنطقة، وجلا أهل البلاد أمر الخليفة المقتدي بأمر الله بإصلاحها سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م(٥).

تكاد المصادر تُجْمِع على أن السلطان ملكشاه (٤٦٥ – ٤٨٥هـ/ ١٠٧٣ –

---

(١) الخلف، جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية، ص٩٧ – ١٠٣.

(٢) الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص١١٣.

(٣) حمادة، النظام الاقتصادي في العراق، ص٧١.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٨/ ص٤١١.

١٠٩٢م) قام بإصلاحات كثيرة منها حفر الأنهار وتعمير القناطر[١].

وفي سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م فوّض السلطان محمد بن ملكشاه عمارة العراق إلى أحد أعوانه وهو معروف الخادم فحفر الأنهار وكرى السواقي فعمَّ الرُخْص في العراق[٢].

ويمكن القول أن معظم الحكّام في العصر السلجوقي كانوا يدركون أهمية الانتعاش الزراعي، وقد بذلوا جهوداً وعنايةً ليست بالقليلة في سبيل ذلك.

وقد خلّف لنا الرحّالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وصفاً شيّقاً لازدهار الزراعة في مدن العراق أثناء زيارته لها، ومنها بغداد والموصل والحلة. فالمنطقة المجاورة للحلة وارفة الظلال بشجيرات الفواكه والقرى الواقعة على الطريق من الحلة إلى بغداد محاطة كلها ببساطٍ أخضرٍ من الزروع والأشجار والبساتين وحدائق النخيل[٣].

بيد أن الزراعة لم تَسلمْ من عوامل التخريب التي تمثّلت بعبث القبائل البدوية[٤]، وحروب المتنازعين من السلاطين والأمراء، التي رافقت عمليات النهب والسلب للجند، فضلاً عن أن السلاجقة اتّبعوا أسلوب إقطاع الأراضي لقادتهم وخواصّهم. فقد كان للاقطاع أثر كبير في تدهور الإنتاج الزراعي، وتردي حالة الفلاّح على يد المقطعين. مما نتج عنه تدهور المستوى المعيشي للناس[٥]، إذ استعمل السلاجقة نظام الإقطاع منذ سيطرتهم على العراق[٦].

وقد تطوّر نظام الإقطاع على يد الوزير نظام الملك (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) الذي عمل على تنظيمه بعد أن اتّسعت أعداد القوات السلجوقية ومتطلباتها، فأحلّ

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣٠٩؛ ابن الأثير، الباهر، ص١١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص٣٧١.

[٢] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مج٨/ ص١٨٦.

[٣] رحلة ابن جبير، ص١٧١ – ١٧٢.

[٤] عن عبث البدو ينظر مثلاً: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٨٢، ج١٧/ ص١٨٧، ٢١٩.

[٥] الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٨٩ – ٩٠.

[٦] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣.

الإقطاعات محل رواتب هذه القوات[١] لعجز الميزانية عن تسديد هذه الرواتب[٢] ولإرضاء قادتهم وتوثيق العلاقة بينهم وبين الأرض[٣]. وسُمي هذا بـ (**الإقطاع العسكري**). وقد رأى الوزير نظام الملك أيضاً أن تسليم الأراضي للمقطعين يضمن حمايتها لاعتنائهم بها[٤].

وعلى الرغم من حرص نظام الملك على تطبيق القواعد الصحيحة من قبل المقطعين، فإن الذين تملّكوا الأراضي صاروا يميلون إلى الاستغلال وكل إقطاعي عَدَّ إقطاعه ملكاً وراثياً[٥].

إن السلاجقة توسعوا بالإقطاع العسكري ومسكوا بزمامه، إذ يُذكر أنه كان في العراق واحد وأربعون أميراً إقطاعياً، ينتسب القليل منهم إلى الأسر العربية، أما الباقي فكان من السلاجقة وأعوانهم[٦].

وكان للمقطع حق إدارة المنطقة الإقطاعية إدارة مطلقة، يتمتع بكل الصلاحيات مقابل أن يدفع مبلغاً من المال إلى خزانة السلطان السلجوقي منها سنوياً، وتقديم المساعدات العسكرية للسلطان عند الحاجة[٧].

وقد ألحق الإقطاعيون أضراراً كبيرةً بأصحاب الأراضي بسبب استغلالهم ومعاملتهم بالقسوة، فاستشرى الظلم وعمَّ الفساد وأُهملت الأرض نتيجة استغلال الإقطاعيين للفلاحين لتحقيق الأرباح[٨]. ولكي يحصلوا على أكثر مما اتفق عليه مع السلطان السلجوقي، قاموا برفع أسعار الإنتاج الزراعي، فضلاً عن قيامهم بتقليل

---

[١] طرخان، النظم الإقطاعية في العصور الوسطى، ص١١.

[٢] نظام الملك، سياست نامة، ص١٦٠ – ١٦١؛ البنداري، دولة آل سلجوق، ص٦٠.

[٣] محمد، المقاومة العربية، ص٤٠؛ الجبوري، العلاقات بين الخلفاء، ص٤٣.

[٤] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/ ص١٥٣ – ١٥٤.

[٥] المصدر نفسه، ج١/ ص٢٣٤، ٢٥٢، ٢٥٣.

[٦] علي، مختصر تاريخ العرب، ص١٤.

[٧] المعاضيدي، واسط في العصر العباسي، ص١٥١؛ الجبوري، العلاقات بين الخلفاء، ص٤٤ –٤٥.

[٨] ابن الأثير، الباهر، ص٧٩.

عوائد الفلاّحين والمزارعين وأجورهم، وفرضوا عليهم رسوماً إضافيةً وأجبروهم على السخرة، مما دفع الكثير من الفلاّحين إلى منح أراضيهم للمقطعين طلباً لحمياتها، وترك البعض الآخر منهم الزراعة وهجروا قراهم[١].

وازدادت الزراعة سوءاً بالكوارث الطبيعية التي حلّت بالبلاد مخلّفة وراءها الكثير من المآسي والدمار، وتلف الكثير من المحاصيل الزراعية والغلاّت، وإزهاق الأرواح، ونشر الخراب في القرى والمدن، ولاسيما حوادث الفيضانات، والزلازل، وما خلّفته من غلاء ومجاعات وأوبئة[٢].

ويمكن القول إن الفلاّحين قد عاشوا تحت وطأة قوتين عاتيتين هما قوة الطبيعة، وقوة الإقطاع وقسوته وسطوته فكانت حالتهم على العموم مزرية من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، مما أدّى إلى التذمر العام، وهو جزء من الرأي العام.

ثانياً: التجارة.

تُعد التجارة ضرورة من ضرورات الحياة الحضرية، وهي تنشط وتتسع وتتنوع بتنوع السلع الداخلة منها كلما ارتقت حياة الإنسان وتعددت مطالبه. وعلى الرغم من الاضطراب في العصر السلجوقي، فقد شهدت الحركة التجارية في العراق نشاطاً مرموقاً. إذ كانت مدن العراق عامرة الأسواق كثيرة المتاجر[٣]. فأسواق بغداد تعج بالنشاط التجاري حتى قال ابن جبير: ((**إنها تشتمل من الخلق على بشرٍ لا يحصيهم إلاّ الله** ...))[٤]. وقد وصف الرحالة ناصر خسرو الذي قام رحلته بين سنتي (٤٣٧ – ٤٤٤هـ/ ١٠٤٥ – ١٠٥٢م) أسواق مدينة الأُبُلة جنوبي العراق بأنها: ((**من أحسن الأسواق في العالم**))[٥] وكانت أسواق مدينة الحلة مشحونة

---

[١] الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٩٦؛ المعاضيدي، واسط في العصر العباسي، ص٢٢٣.

[٢] ينظر مثلاً: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥/ ص٣٤٧؛ ج١٦/ ص٥، ٨٨، ٢٤٠، ج١٧/ ص٩٥، ٢٩٦، ج١٨/ ص٢٠٠، ٢٠٥.

[٣] رايس، السلاجقة، ص١٣٠.

[٤] رحلة ابن جبير، ص١٨٢ – ١٨٣.

[٥] سفرنامه/ ص٩٩.

بمختلف أنواع البضائع[١]. وكذلك الحال بالنسبة إلى تكريت في الشمال[٢]، بل إن بعض القرى كانت لها أسواق تضاهي أسواق المدن[٣].

أما الموصل فقد كانت التجارة فيها على درجةٍ عاليةٍ من الازدهار، وكان بها أربعة أسواق أو أكثر للصنف الواحد من البضاعة[٤]. وكذلك الحال بالنسبة لمدينة واسط التي اشتهرت بكثرة الإنتاج الزراعي مما أدّى إلى تصديره للمدن المجاورة ولاسيما في ظروف الأزمات. وكان في هذه المدينة سوقٌ خاصةٌ بالصيادلة، إذ تُباع الأدوية والعقاقير المستعملة في ذلك العصر[٥].

وكانت الحركة التجارية بين العراق والشام نشطة، فقد كانت السفن تملأ الفرات وتنقل البضائع الشرقية والبضائع المحلية[٦].

وتورد لنا بعض المصادر عن نشاط تجاري بين العراق وسواحل الخليج العربي، إذ ذكر ابن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) عن عادة تجار عراقيين السفر إلى البحرين للحصول على اللؤلؤ من المغاصات هناك[٧].

أما في مجال التجارة الدولية فقد جرت العادة بأن ينقل تجار العراق بضائع الهند على ظهور السفن عبر الخليج العربي فشط العرب ودجلة إلى بغداد والموصل ومن هناك إلى بلاد الشام[٨]. وقد شاهد ناصر خسرو في ختام رحلته في مياه الخليج بين البصرة وعبادان منارتين خشبيتين بطول أربعين ذراعاً، وعلى رأس كل منهما مصباح داخل غطاء زجاجي لإرشاد السفن حتى لا ترتطم بالأرض في المياه الضحلة[٩].

---

[١] ابن جبير، الرحلة، ص١٦٩؛ الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص١١٦.

[٢] ابن جبير، المصدر نفسه، ص١٨٦.

[٣] المصدر نفسه، ص١٧٢؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢٣٦.

[٤] ابن جبير، المصدر نفسه، ص١٨٨ – ١٨٩.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٥٧؛ المعاضيدي، خطط مدينة واسط، ص١٨٦.

[٦] ابن جبير، الرحلة، ص١٨٠؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢٤٠.

[٧] وفيات الأعيان، ج٤/ ص١٠٣.

[٨] حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٩٠.

[٩] سفرنامة، ص١٠٠.

وقد تعرضت حركة التجارة في العراق في عصر السيطرة السلجوقية إلى الكثير من النكبات في أثناء انعدام الأمن والاستقرار الذي يُعد عاملاً مهماً لنشاط وازدهار التجارة. بسبب سلوك معظم الحكّام السلاجقة وأتباعهم، ومنها فرضهم الضرائب الثقيلة على صغار التجّار وأصحاب المحال التجارية[١]. فضلاً عن أعمال السلب والنهب التي قامت بها القبائل البدوية في وسط وجنوب العراق على قوافل التجّار[٢].

أما العيارون فقد أذاقوا التجار والمموّلين ضروباً من التنكيل والرعب كلما شعروا بضعف السلطة الحاكمة، وخاصةً في بغداد، وأخبارهم كثيرة التردد على صفحات الحوليات التاريخية[٣].

ومن الضرائب التي عانى منها الناس بصورة عامة ولاسيما التجّار منهم هي **(المكوس)**[٤]. فقد فرض عليهم السلطان محمود بن محمد سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م أن يرفعوا إليه: **((ثلثي ما يأخذونه من الدلالة في كل ما يُباع))**[٥]. فضلاً عن أنه أعاد المكوس والضرائب الأخرى[٦].

وهناك ضرائب كثيرة كانت تُفرض على الباعة والتجّار تم التوصل إلى معرفتها من خلال إلغائها من قبل الخلفاء العباسيين، مما يدل على وجودها سابقاً. ففي سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ألغى الخليفة المستنجد بالله الضرائب الخاصة ببيع الخيل والجمال

---

[١] الراوندي، راحة الصدور، ص٢٦٠.

[٢] ينظر: ابن الأثير، ج٩/ ص٩٥، ٢١٥، ٢١٩، ٢٥٠؛ ابن جبير، الرحلة، ص١٦٧ – ١٦٨.

[٣] ينظر مثلاً: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٨٤، ٣٠٩، ٣٢٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٨١ – ٢٨٢، ج٣٦/ ص٢٢٠؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٤ – ٦٣٥.

[٤] **المكوس:** ضرائب تُفرض على البضائع المنقولة داخل العراق من منطقة إلى أخرى وكذلك تُفرض على البضائع المجلوبة من خارج العراق. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٦/ ص٢٢٠؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢٠٠ – ٢٠٣.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٨٩.

[٦] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٩٠.

والغنم والسمك والمدبغة في جميع أنحاء العراق[١]. مما يدل على أن السلاجقة فرضوا الضرائب على جميع أنواع المبيعات.

ثالثاً: الصناعة.

كانت صناعة النسيج من أهم الصناعات المزدهرة في مدن العراق، إذ اشتهرت بغداد بنسيج الأقمشة العتابية المصنوعة من الحرير والقطن، والمنسوبة إلى محلة العتابية (إحدى محال بغداد) التي كانت مركز صناعة هذه الأقمشة[٢].

وقد عُرفت منطقة قصر ابن هبيرة بالحلة بكثرة الحاكة[٣]، وبصناعة الصوف في تكريت[٤]. وقد اشتهرت واسط بصناعة الستور الواسطية[٥]. أما في الموصل فقد كانت عدد خانات الحياكة فيها تسعمائة وثمانية خانات[٦].

وإلى جانب صناعة النسيج كانت هناك صناعة الأسلحة والأعتدة الحربية، وصناعة السفن والمراكب المقاتلة في بغداد[٧]. وكذلك صناعة الآجر **(وهو قالب الطين المشوية)**، وصناعة الجص، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن الجوزي من أنه نزل في البصرة سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٦م برد كبير رمى الأبراج المبنية بالجص والآجر[٨].

وكانت الموصل تصنع بعض الأدوات الحديدية مثل الأسطال والسكاكين والنشّاب والسلاسل[٩]. واشتهرت الحلة بصناعة العطور والمسك التي ربما كانت موادّها تُجلب من مناطق أخرى ويتم تصنيعها في الحلة[١٠].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٤١.

[٢] ابن جبير، الرحلة، ص١٨٠.

[٣] الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص١١٥.

[٤] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٢٣، ١٢٨.

[٥] المصدر نفسه، ص١٢٩.

[٦] أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢٥٠.

[٧] المرجع نفسه، ص٢٥١.

[٨] المنتظم، ج١٦/ ص٣٠١.

[٩] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥.

[١٠] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٤٠؛ الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص١١٥.

وقد اشتهرت مدن جنوب العراق بصناعة الحُصُر[١]. ومما لا شك فيه أن معظم الصناعات المذكورة في مدن العراق تعتمد على الجهد اليدوي وتُدار بقوة الإنسان[٢]، الإنسان[٢]، وبعضها تقام في البيوت الخاصة، وغالباً ما تنتقل أسرار المهنة الصناعية من الآباء إلى الأبناء.

تعرّض أصحاب المهن الصناعية إلى أضرارٍ كبيرةٍ بسبب الضرائب المفروضة عليهم من لدن السلاطين السلاجقة وعمّالهم دون مراعاة تأثيراتها المخرّبة على اقتصاد البلد، ومثال ذلك ما قام به شحنة بغداد سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م بفرض مبالغ من الأموال على سكّان المحال حددها بعد تدخّل النقباء فأهلك ذلك الضعفاء من أصحاب المهن، واضطر بعضهم إلى استجداء الناس لجمع المبلغ المفروض عليهم[٣].

وفي سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م اختفى أرباب الأموال والمهن الصناعية في بغداد بسبب ظلم الشحنة للرعية ومصادرته أموال الناس[٤]

لم يتوقف السلطان محمود بن محمد عن فرض ضرائب أرهقت كاهل الناس، وأهل الحرف الصناعية. ففي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م قرّر أن يأخذ الأموال من

---

[١] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١١٨.

[٢] الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص١١٦.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٨٤ – ٨٥؛ القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٧٩.

[٤] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٩٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥، ص٢٧٩؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٥٤؛ الجبوري، العلاقات بين الخلفاء، ص٣٨.

دور الحريم ودكاكينه ومساكنه أجرة شهر، فتذمّر الناس وكثرت الشكايات[١].

وكذلك الحال فيما يتعلق بالسلطان مسعود، ففي سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م طالب بالأموال، فقدّمت له سلطة الخلافة عشرة آلاف دينار جُبيت من الناس بما فيهم الصنّاع وأصحاب الدكاكين[٢].

نستنتج مما سبق ذكره أن الضرائب الكثيرة المفروضة على كاهل الناس، ومنهم أصحاب الحرف الصناعية، أدت إلى تضرر هذه المهنة التي يعتاش عليها الكثير من السكان، وتأخرها لفقدانها الحماية والدعم من قبل الدولة.

ويمكن القول أن الأوضاع الاقتصادية السيئة التي شهدها العراق في ظل السيطرة السلجوقية في ميادين الزراعة، والتجارة، والصناعة، قد عملت على بلورة الرأي العام من خلال المواقف التي اتخذتها الحكومة والعوام من مختلف طبقات المجتمع للتغلب على تلك الأوضاع – كما سنوضح لاحقا.

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٩٢.

[٢] المصدر نفسه، ج١٧/ ص٣٢٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

الفصل الثاني

المبحث الأول: تجاوزات السلاطين وأتباعهم (الأمراء والجند)

أثارت تصرفات السلاجقة وأتباعهم من الأمراء والجند الرأي العام في العراق إذ ارتكبوا أسوأ الأفعال وأشنع الجرائم. وما أن بدأت السيطرة السلجوقية على العراق سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، حتى بدأت الإساءات للناس، فاستباحوا المساكن والأموال والأعراض، ونهبوا كل ما يقع في متناول أيديهم[١]، فبعد أيام قلائل من دخولهم بغداد نهبوا دروبها ومحالها، كما نهبوا الأموال التي خبأها الناس في مقابر الخلفاء، اعتقاداً منهم بأن السلاجقة سيمتنعون عن ارتكاب الجرائم فيها لمكانتها عند المسلمين[٢]. فأثارت هذه الأعمال الرأي العام في العراق وظهرت ردود الأفعال وموجة من الغضب بين أوساط الناس مما نتج عنه صدامات بين أهل بغداد وجند السلاجقة.

وقد أشار إلى ذلك المؤرخ ابن الجوزي بقوله: ((**وثارت بين العوام والأتراك فتنة أدّت إلى قتل وأسر، فنهب الجانب الشرقي بأسره وذهبت أموال الناس**))[٣].

كما هاجم أهالي باب الأزج[٤] العساكر السلجوقية بعد نزولها بأسواقها وتعالت صيحات الرفض فارتجّ البلد من أقطاره وأقبل الأهالي من كل جانب يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد[٥]. وقدّم أهالي بغداد العديد من الشهداء والجرحى،

---

[١] ابن الحداد، الجوهر النفيس، ص٤٤؛ أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص٦٤.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٢٤؛ طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٧٦.

[٣] المنتظم، ج١٥/ ص٣٤٥؛ وينظر: القلقشندي، مآثر الأنافة، ج١/ ص٣٣٨.

[٤] **باب الأزج:** محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحال كبار في شرق بغداد، وتشمل الآن محلة باب الشيخ ورأس الساقية وقسم من المربعة. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج١/ ص١٦٨؛ جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٧٦.

[٥] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٢٣؛ فهد، العامة ببغداد، ص٣١١.

وتمكّن السلاجقة من إخماد هذه الانتفاضة[1]. وكان هذا طبيعياً لجيش مدرّب تجاه أناس يعوزهم التنظيم والسلاح[2].

أما موقف الخلافة تجاه أعمال السلب والنهب والاعتداء من لدن جند السلاجقة، فقد قام الخليفة القائم بأمر الله بمراسلة السلطان طغرل بك مستنكراً ومهدداً بمفارقة بغداد في حالة استمرارها بقوله: **((... إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن تعظيم الأوامر الشريفة تزداد وحرمة الحريم تعظّم وأرى الأمر بالضد ...))**[3].

إن ما سنذكره من تعديات السلاجقة على العراقيين ستثبت أن الخليفة العباسي كان في استعانته بالسلاجقة ضد البويهيين كالمستجير بالرمضاء من النار.

ويمكن القول: أن الهجوم الذي قام به أهالي بغداد على السلاجقة لم يكن إلاّ وسيلة للتعبير عن الرأي العام ، بيد أن افتقادهم لقيادة تنظّم صفوفهم، جعل من وقفاتهم قليلة التأثير على السلاجقة الذين كانوا بأقوى حالاتهم في تلك المدّة.

من جانب آخر استمر السلاجقة في استباحة حرمات الناس، ففي سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، أراد السلطان طغرل بك أن يبني داراً في بغداد فأمر بهدم الدور والدروب والمحال والأسواق القريبة من موقع داره[4]. كما استمر جنده في إيذاء الناس والنزول في مساكنهم، وفرضوا عليهم دفع مبلغ من المال، فبادروا إلى جمعه وحمله[5]. وإزاء هذا التمادي والغي تذمّر الناس في بغداد، وبالغوا في وصف حالهم واجتمعوا إلى دار الخليفة القائم بأمر الله للشكوى[6]، مما زاد من استياء الخليفة وضاعف من غضبه، فأرسل وزيره إلى السلاجقة مستنكراً ومهدداً طغرل بك الذي اضطر إلى

---

[1] أبو الفدا، المختصر، ج٢/ ص١٧٣.

[2] فهد، العامة ببغداد، ص٣١٣.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٢٤.

[4] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٤.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٣٢؛ الجبوري، العلاقات بين الخلفاء، ص٣٢.

[6] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٠٨.

التدخل فأمر بإسقاط الضريبة عن الأهالي وأمر جنده بإيقاف الفساد والخروج من دور الناس[١]. كما عزم طغرل بك على الرحيل من بغداد للتخفيف عن أهلها[٢].

وفي السنة نفسها تزوج الخليفة القائم من أرسلان خاتون خديجة بنت داؤود **(شقيق طغرل بك)**[٣] وهي محاولة من السلاجقة لمعالجة الفتور الذي طرأ على العلاقات بين الطرفين[٤]، وتذمّر الخليفة واستنكاره لتجاوزات عسكر طغرل بك على الرعية[٥].

ويبدو أن صيحات العامة واحتجاجهم، وتهديدات الخليفة على تجاوزات السلطان والجند، أدت إلى تحقيق مطالبهم ولو بشكل مؤقت، والدليل على ذلك أن السلطان طغرل بك عندما دخل بغداد سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م لم يسمح لأحد من أتباعه بالنزول في دور الناس[٦]. وكان للرأي العام في العراق ولاسيما في بغداد أثر كبير تجاه تجاوزات السلاجقة المتكررة، وكانت لهم مواقف مشرّفة في زمن الأحداث. ففي سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م تفاقم ظلم وعبث السلاجقة أصحاب السلطان، فكانوا يأخذون عمائم الناس[٧]. والمعروف أن العمامة تمثل قيمة اجتماعية ومعنوية عليا، فأراد السلاجقة إذلال الأهالي من خلالها، وممن أخذوا عمامته نقيب العلويين **(ابن المهتدي)** لذلك أسرعت العامة إلى أخذها فاستردوها[٨]. إن موقف العامة هذا يؤكد دفاعهم عن القيم الاجتماعية والدينية التي تربَوا عليها.

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٤.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٣٢؛ ابن الحداد، الجوهر النفيس، ص٤.

[٣] فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٦٥.

[٤] قامت زيجات متعددة بين الطرفين منذ دخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م حتى نهاية حكم الخليفة المقتفي لأمر الله سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ضماناً وتوثيقاً من السلاجقة لاستمرار العلاقات الحسنة مع الخلافة. ينظر: علي، الزواج السياسي، ص٨٥ – ١٢٥.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٤؛ حلمي، السلاجقة، ص١٥٩.

[٦] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٣٧.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٩.

[٨] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

وفي سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م حينما قدم طغرل بك إلى بغداد، لم يكتفِ جنده بالنزول في دور الناس، بل أوقدوا أبواب هذه الدور وسقوفها الخشبية لكي يتدفأوا بها، كما أنهم كانوا يتعرّضون لحرمات الناس، حتى أن قوماً من الأتراك صعدوا إلى جامات حمّام ففتحوها وطالعوا النساء ثم نزلوا فهجموا عليهن فأخذوا من أرادوا منهن وخرجت البقية عراة على الطريق[١]. وكانت لهذه الحادثة أثر في نفوس أهل بغداد الذين اجتمعوا وهاجموا الجند وخلصوهنَّ من أيديهم[٢].

في حين كان للعامة والخليفة المقتدي (٤٦٧ – ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ – ١٠٩٤م) مواقف وإجراءات حازمة للحد من الهيمنة السلجوقية. ففي سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، ضرب أحد الخدم لخاتون السلجوقية زوجة الخليفة واحداً من الباعة، فاستغاث البائع بالعامة، وحدثت نقمة شعبية، فأسرع الخليفة المقتدي بطرد الخدم السلاجقة من حريم دار الخلافة، وأُخرجوا عن آخرهم على أقبح صورة[٣]. وهذا ما عزّز دور الخليفة القيادي والتزامه بمصلحة وكرامة الناس[٤].

وقد تعرّضت مدن العراق لاسيما مدينة واسط سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م لأعمال السلب والنهب في أثناء الصراع بين السلطان بركياروق وأخيه محمد بن ملكشاه من قبل جيش السلاجقة وأمرائهم[٥]. فكتب الخليفة المستظهر إلى السلطان بركياروق كتاباً مشحوناً بالتهديد والغلظة لما فعله عسكره من أعمال سلب ونهب وتخريب للمناطق التي مروا بها ، فأمر بركياروق جنوده بالكفِّ عن ذلك[٦].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٧٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٩٤؛ شبّر، خلفاء بني العباس، ص٢٦٢.

[٢] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٥٤؛ فهد، العامة ببغداد، ص٣١١.

[٤] العلي، العراق في التاريخ، ص٤٤٦؛ محمد، المقاومة العربية، ص١٢٢.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٢.

[٦] المصدر نفسه، ج١٧، ص٥٣.

وتكررت هذه الأعمال سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م في أثناء المعارك بين السلاطين سنجر ومحمد من جهة وبركياروق من جهة أخرى[١]. إذ نهب عسكر بركياروق مدينة واسط، فقصد إليه القاضي أبو علي الفارقي[٢] فوعظه وسأله منع العسكر من النهب فامتنع وغادرها[٣].

إن استجابة بركياروق وجنده لمواعظ القاضي الفارقي دليل على تأثيره في الرأي العام، وذلك أن العلماء والقضاة يمثلون شريحة من المجتمع العراقي ولهم كلمة مسموعة لديهم.

ويبدو أن حكومة بغداد وعلى رأسها الخليفة تحاول أن تمنع الجند من الاعتداء على الفلاحين، إلاّ أنها لم تكن تنجح في مسعاها على الأغلب، وذلك لأن الجند لم يكونوا ليرتدعوا إلاّ بأمر من السلطان وحده، كما حدث في رمضان سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م حينما دخل **(ينال)** أحد أعوان السلطان محمد بغداد فأفسد القرى ونهب الأموال وأكثر الظلم. وعندما ضجَّ الناس بالشكوى وبالغوا في وصف حالهم، أرسل إليه الخليفة المستظهر قاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني[٤] ليعرّفه قبح الظلم وحرمة الشهر، إلاّ أنه لم يتّعظ، واحتبس سفناً وصلت للخليفة ففرض عليها شيئاً من

---

[١] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣١ – ٣٣؛ طقوش، تاريخ السلاجقة، ص١٦٧.

[٢] **أبو علي الفارقي:** هو الحسن بن إبراهيم بن مرهون أبو علي الفارقي شيخ الشافعية. ولد سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م سكن واسط ووُلي القضاء بها سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، وكان حسن السيرة. توفّى سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٦٠٨ – ٦٠٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١١/ ص٢٨٥ – ٢٨٦؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٥٣؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج١/ ص٣٠٣.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٦٨.

[٤] **أبو الحسن الدامغاني:** هو علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الملك أبو الحسن الدامغاني قاضي القضاة بن قاضي القضاة. توفّى سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٨٩؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٠٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٨٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص٤٠.

المال ثم سار إلى أوانا[1] فنهبها وعاث فيها إلى أن هرب من السلطان محمد فجرّد له جيشاً فقتله[2].

ومن التجاوزات الكثيرة التي أثارت الرأي العام في بغداد ما حدث سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م إذ هاجم أحد الجنود السلاجقة رجلاً يوم زواجه واعتدى على زوجته[3]. مرتكباً بذلك أبشع مخالفة لتعاليم السماء والأعراف الاجتماعية، وقد خلّفت هذه الجريمة تذمراً كبيراً بين الأهالي فاستغاث الناس، وأغلقوا الأسواق وضجّوا، وكثر الدعاء ليلاً ونهاراً لإرغام المسؤولين على معاقبة المخالف،وعوقب المعتدي باعتقاله لأيام معدودة لكن عقوبته لم تكن بمستوى الحدث[4].

وفي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م أعيدت ضريبة المكوس والمواصير[5] وألزم الباعة أن يرفعوا إلى السلطان محمود بن محمد ثلثي ما يأخذونه من الدلالة لكل ما يُباع، فضلاً عن أنه فرض ضرائب أخرى أرهقت كاهل الناس لتوفير احتياجات الجيش المقيم في بغداد، حتى فرغت خزائن الوكلاء، واستقر أن يأخذ من دور الحريم ودكاكينه ومساكنه أجرة شهر[6].

وإزاء هذا الوضع السيئ الذي عاشه الأهالي في العراق من جرّاء فرض الضرائب الثقيلة فقد كثرت الشكايات للسلطان معلنين تذمرهم وذلك للتخفيف عنها، فنودي برفع ذلك وإعادة ما جُبيَ على يد أعوانه، ولجأ إلى الاستقراض من ذوي الأموال[7].

---

[1] **أوانا:** بليدة من نواحي دجيل ببغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت. الحموي، معجم البلدان، ج١/ ص٣٩٥.

[2] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٦٢.

[3] ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٩/ ص١٧٧.

[4] الجبوري، العلاقات بين الخلفاء والسلاطين، ص٣٧.

[5] **المواصير:** مفردها ماصر، وهي حبال تستخدم لمنع السفن من السير قبل أداء الضريبة. الزبيدي، تاج العروس، ج٣/ ص٥٤٤.

[6] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٩٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٩٠.

[7] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢١١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٠، ص٨٩.

ونرجح أن موقف العوام في وصف حالهم عن طريق الشكوى قد أرغمت السلطان وأعوانه للحد من فرض الضرائب الإضافية على الناس خوفاً من تحوّل هذه الشكايات إلى ثورةٍ ضد السلطان وجيوشه. لذلك ما أن غادر السلطان محمود وجيوشه بغداد سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م حتى نودي بإسقاط المكوس والضرائب وما أقرَّ على الباعة من قبل الخليفة المسترشد بالله[١].

ولعلَّ أوضح شاهد لمعاناة المجتمع العراقي من تجاوزات السلاجقة وظلمهم عندما سقط الوفر على بغداد سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م ولمدة خمسة عشر يوماً، حيث حاكى الشاعر هبة الله بن الحسين البغدادي (ت٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) ذلك الظلم بأبيات من الشعر معبّرا عن تلك الأحوال بقوله[٢]:

يا صدور الزمان ليس بوفْرٍ	**ما رأيناهُ في نواحي العراقِ**
إنما عمَّ ظلمكم سائرَ الخلقِ	**فشابت ذوائب الآفاقِ**

ومن عوامل إثارة الرأي العام في العراق أن السلطان محمود عزم على التوجه نحو بغداد سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، غير أن الخليفة طلب تأجيل قدومه وأرسل من يخبره بتردي الأوضاع الاقتصادية[٣]. ولم يوافق السلطان على ذلك، فسار على رأس جيش متوجهاً إلى بغداد، فلما علم الخليفة المسترشد بذلك اتخذ بعض التدابير لمواجهة الموقف فأمر بعمل: ((**المضارب وإعداد السلاح وجمع العساكر، ونودي ببغداد بعبور الناس إلى الجانب الغربي ...**))[٤]. وقد وصف لنا ابن الأثير مدى تعاطف الرأي العام مع الخليفة ، بقوله: ((**... فلما خرج الخليفة بكى الناس جميعهم بكاءً عظيماً لم يُشاهد مثله**))[٥].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٩٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٦٠.

[٢] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص١٩٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢١١ – ٢١٢.

[٣] ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٩/ ص٢٣٧؛ طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٢٢٩.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٣٢.

[٥] الكامل، ج٩/ ص٢٣٨.

ويبدو أن السلطان محمود أدرك خطورة مغادرة الخليفة دار الخلافة، فأرسل إليه يستعطفه في العودة إلى داره، لكن جواب الخليفة جاء صارماً بقوله: **((... يجب أن تتأخر هذه السنة عن العراق، فلا تقبل ما بيني وبينك إلاّ السيف))**[1] ولما تيقّن من إصرار السلطان محمود على توجهه نحو بغداد انتهز فرصة حلول عيد الأضحى فخطب بالناس خطبة بليغة تنم عن ثقافة دينية وفقهية وأدبية واسعة[2]. أراد من خلالها إثارة حماس الرأي العام ووقوفه إلى جانب الخلافة والدفاع عن العراق فنجح فيما أراد، حيث بكى الناس بعد الخطبة ودعَوا لخليفتهم بالنصر والتوفيق[3]. ووصف المؤرخ اليافعي (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) هذه المناسبة بأنها كانت: **((يوماً مشهوداً ما عهد للإسلام مثله منذ دهر))**[4].

وبعد أن اقترب السلطان محمود مع جيشه أمر الخليفة إخلاء جميع مَن في دار الخلافة في الجانب الشرقي سوى حاجب باب النوبى[5]، وأمر بجمع السفن ونقلها إليه في الجانب الغربي[6] بهدف حرمان العدو من الاستفادة منها. وأمر كذلك بإغلاق أبواب دار الخلافة باستثناء باب النوبى[7].

وفي ١٨ ذي الحجة من السنة نفسها وصل السلطان محمود ونزل بالشماسية[8] ودخلت بعض عساكره إلى بغداد، واعتدَوا على السكان إذ نزلوا في دورهم، وقد

---

[1] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٣٢.

[2] ينظر: ابن الجوزي، المصباح المضيء، ج١/ ص٥٩٦؛ ابن دحية، النبراس في خلافة بني العباس، ص١٤٦ – ١٤٨.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٣٣ – ٢٣٦.

[4] مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٢٤.

[5] **باب النوبى:** أحد أبواب دار الخلافة،وفيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد. ينظر: جواد وسوسه، دليل خارطة بغداد، ص١٥٨.

[6] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٣٦.

[7] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[8] **الشماسية:** وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد وإليها ينسب باب الشماسية وكانت فيها دار معز الدولة أحمد بن بويه. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣/ ص٣٦١.

واصل السلطان مراسلة الخليفة ملتمساً عودته إلى دار الخلافة ويطالبه بالصلح، إلاّ أن ذلك قوبل بالرفض من قبل الخليفة المسترشد بالله[١].

وأثناء ذلك كانت المناوشات المتكررة تجري بين القوات الغازية بالجانب الشرقي وبين قوات الخليفة بالجانب الآخر، ووقف العوام خلالها إلى جانب قوات الخليفة، فكانت تسبُّ السلطان وقواته أفحش سب وتترامى معهم بالنشّاب[٢]، دون أن تضع بحسبانها ما سيحل بها إذا ما انتهت المعركة لصالح الأعداء بالنهاية[٣].

وقد زادت الأحداث توتراً عندما انتهك عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها في محرم سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م واعتدَوا على النساء، وقد أشار ابن الجوزي الى ذلك كونه شاهد عيان بقوله: **((فرأيتهنَّ وأنا صبي يستغثنَ، وقد جئنَ صارخات ... وضجَّ الناس كأن الدنيا تزلزلت))**[٤]، وهذا مما أثار الرأي العام وسخطه وضجوا لِمَا حدث، فلما علم الخليفة بذلك خرج من سرادقه وأمر بضرب الكوسات[٥]، والبوقات ونادى لإثارة الهمم :**(يا آل هاشم)**، وأمر بتقديم السفن بالعبور فعبر عسكر الخليفة والناس دفعة واحدة يحملون السلاح لقتال السلاجقة[٦]. فلما رأى السلاجقة عسكر الخليفة قد عبر انهزموا ووقع فيهم السيف واختفَوا في السراديب فدخل عسكر الخليفة فأسروا وقتلوا جماعة من الأمراء[٧].

وقد هاجمت العامة دور أصحاب السلطان فاستولَوا على ما فيها وهرب أصحاب السلطان فحوصروا في الدروب والمضايق، وقُتل الكثير منهم على أيدي العامة[٨].

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٣٨.

[٢] اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٢٧.

[٣] محمد، المقاومة العربية، ص١٣٠.

[٤] المنتظم، ج١٧/ ص٢٤١.

[٥] **الكوسات:** معناها الطبول. ابن منظور، لسان العرب، ج٦/ ص٢٠٠.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٤١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٣٩.

[٧] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٨] ابن خلدون ، العبر، ج٩، ص٢٣٩.

ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل من بغداد والسواد مما أدى إلى انسحاب القوات السلجوقية إلى خارج بغداد[١].

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن المعركة بين العامة بقيادة الخليفة المسترشد بالله، وبين السلطان محمود وجيشه، ما هي إلاّ وسيلة للتعبير عن الرأي العام تجاه تجاوزات السلاجقة وانتهاكاتهم لحرمة الخليفة والناس في العراق، فكانت النتيجة أن دبَّ القتل والأسر والخسائر الفادحة في صفوف المعتدين من السلاجقة، ولم يكن هذا ليحدث لولا التفاف الرأي العام حول الخليفة للدفاع عن أرضهم وممتلكاتهم وللحد من اعتداءات السلاجقة.

وفي سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م وقع الخلاف بين السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٧ – ٥٤٧هـ/ ١١٣٢ – ١١٥٢م) والخليفة المسترشد بالله، وكان سبب ذلك أن الخليفة لم يُظهر حماسة كبيرة للسير مع مسعود لقتال خصومه، ثم أن خوف الأمراء من مسعود بعد استيلائه على همذان عقب وفاة أخيه طغرل بك سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م والتجائهم إلى الخليفة[٢]، قد شجع المسترشد على الاستعداد لقتال مسعود، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة في بغداد، وصمم على السير لقتاله[٣]، وأخذ الأمراء يحسنون له الرحيل ويسهلون عليه الأمر، ويهونون من شأن مسعود حتى خرج لقتاله على رأس جيشٍ بلغ سبعة آلاف فارس في موكب مهيب بصحبة كبار الشخصيات وعدد من الشعراء والأطباء والفقهاء والصوفية، وكان العوام يضجون بالدعاء ويقرّبون منه[٤]. ولكن الخليفة هُزم بسبب غدر الأمراء الذين فارقوه وانضموا إلى جيش مسعود[٥]، حتى وقع في الأسر هو وعدد كبير من أصحابه[١].

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٣٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٩٧.

[٢] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٩٩؛ اليزدي، العراضة في الحكاية السلجوقية، ص١١٩؛ حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٢٨.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٩٣ – ٢٩٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٨١.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٢٩٤؛ حسن، مقاومة الخلافة العباسية، ص١٦٩.

[٥] ينظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، (مخطوطة)، ج١٢/ ورقة ١٨٢؛ البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٦٥.

ويمكن القول أن المسترشد نجح في كسب الرأي العام واستمالته إلى جانبه والتفاف الناس حوله ومؤازرته في معاركه مع السلاجقة، وكان المتطوعون من أهل بغداد والسواد يهبّون لمرافقته كلما خرج لصد هجوم أو تأديب متمرد. وظهر ذلك واضحاً عندما عزم السلطان محمود سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م على دخول بغداد رغماً عنه[٢].

وقد بلغ تعلّق العوام بالخليفة المسترشد بالله ذروته عندما وصل خبر وقوعه أسيراً في قبضة السلاجقة، فقد خلّف موجة عارمة من الاستنكار بين العامة، فأثار أهل بغداد ومنعوا الخطبة، وكسروا المنبر غير مبالين بما يمكن أن يلاقونه على يدي الشحنة الذي أرسله السلطان مسعود بعد المعركة مباشرةً، إذ قام بمصادرة أملاك وغلات الخليفة[٣]. وقد انتهز جماعة من الباطنية[٤] فرصة وجود الخليفة في خيمة دون حراسة فهجموا عليه وقتلوه ومثّلوا به أبشع تمثيل[٥].

وكان لهذا الحدث أثر كبير في إثارة الرأي العام، فبعد وصول الخبر إلى بغداد، اشتدَّ ذلك على الناس وخرجوا حفاة مخرقين الثياب والنساء ناشرات الشعور يلطمنَ ويقلنَ المراثي وذلك لأن المسترشد كان محبباً فيهم لبرّه ولما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بالرعية[٦].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٩٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٤٦.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٣٨؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص٧٣.

[٣] ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية، ص١٠٠؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٦.

[٤] عن الرأي العام تجاه الباطنية (الإسماعيلية) ينظر: الفصل الثالث، المبحث الثالث من هذه الدراسة.

[٥] ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢١؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٠٨؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٦؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص٧٤؛ حسن، الفتوة، ص٩١.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٩٩؛ ابن دحية، النبراس، ص١٥٠.

وأشعار النساء البغداديات اللاتي ينظمنها في وقت اللطم طريفة المعنى، وإن كانت على غير صواب اللفظ، وكان مما لطمنَ به أن قلنَ[1]:

يا صاحب القضيب ونور الخاتم	**صار الحريم بعد قتلك مأتم**
اهتزت الدنيا ومَن عليها	**بعد النبي ومَن وُلي عليها**
قد صاحت البومة على السرادق	**يا سيدي ذا كان في السوابق**
ترى تراك العين في حريمك	**والطرحة السوداء على كريمك**

بعد قتل المسترشد بويع ابنه الراشد بالله المنصور (٥٢٩ – ٥٣٠هـ/ ١١٣٤ – ١١٣٥م) واستمر السلطان مسعود في مضايقة الراشد[2]، واستفزاز الرأي العام، فسرعان ما أرسل إليه في محرم سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م أحد أعوانه وهو (**برنقش الزكوي**) مطالباً إياه بتسديد مالٍ كان سابقاً قد طلبه من المسترشد بالله ومقداره أربعمائة ألف دينار، فلما أجابه الخليفة الراشد بعدم استطاعته دفع المال حاول هذا الرسول بمن معه من الجند إقتحام دار الخلافة وأخذ الأموال منها[3]. مما أثار غضب وسخط الرأي العام الذي استنفر للوقوف إلى جانب عسكر الخليفة والدفاع عن مدينتهم حتى جرت المعركة بين قوات الخلافة والسلاجقة، ودار بين الطرفين قتال شديد انتهى بطرد الأعداء وهزيمتهم[4].

وقد التهب حماس عامة الناس بهذا النصر ورفضهم لمضايقات السلاجقة واستولَوا على كل ما في دار السلطان[5]. كما واصلوا تحصينهم لسور مدينة بغداد[6]. وحملوا السلاح للدفاع عنها عند محاصرة السلطان مسعود لها في رمضان

---

(١) ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٥٢.

(٢) البكجري، مختصر تاريخ الخلفاء، ص١٥٧.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٠.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٨٨؛ فهد، العامة ببغداد، ص٣١٤؛ السامرائي وآخرون، تاريخ الدولة العربية، ص٢٩٥.

(٥) ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ محمد، المقاومة العربية، ص١٤٤.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٠٦.

من السنة ذاتها، وهزمته فرجع إلى همذان، إلاّ أن تخاذل بعض الأمراء السلاجقة[١]، الذين كانوا مع الراشد ومغادرتهم بغداد، ووصول إمدادات لجيش السلطان، قد مكّن السلطان مسعود من دخول بغداد وخلع الراشد وذلك بإلصاق بعض التهم به ، وإرغام القضاة والشهود والفقهاء على تأييد هذه التهم وخلعه، وتولية المقتفي لأمر الله مكانه[٢].

يتبين لنا من خلال ذلك استمرار دعم الرأي العام المتمثل بعامة الناس للخليفة وتأييده له، وكان من نتيجة ذلك أن حقق الخليفة الراشد الانتصار على قوات السلاجقة، إلاّ أن خيانة بعض الأمراء المنضمين إلى جيش الخليفة ووصول الإمدادات إلى السلطان مسعود قد مكّن الأخير من الانتصار على عسكر الراشد، ومن ثَمَّ خلعه.

واصل السلطان مسعود سياسته الاستفزازية القائمة على إفلاس الخلافة، حتى لم يبقَ للخليفة إلا العقار الخاص به، لكن الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ – ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ – ١١٦٠م) على الرغم من ذلك ظل قادراً على اتخاذ القرار المناسب في التصدي للسلاجقة، ففي سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م أقام السلطان مسعود داراً لضرب النقود في بغداد، حينها أمر الخليفة بالقبض على المسؤول عن ضرب النقود، وقابله السلطان مسعود بسجن حاجبه، فأضرب الخليفة وذلك بإغلاق المساجد فظلّت مغلقة ثلاثة أيام، إلى أن أطلق سراح الحاجب دون أن يطلق الخليفة سراح المسؤول عن ضرب النقود[٣].

ويبدو أن الخليفة لجأ إلى ممارسة سلطته الدينية لإجبار السلاجقة على الإذعان لأمره خوفاً من إثارة الرأي العام ضدهم[٤]. ومن الجدير بالإشارة إلى أن قوة السلاجقة

---

[١] أبو الفدا، المختصر، ج٣/ ص١١.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣١٠ – ٣١٢؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٠٣؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢١٠.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص٤٨؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

[٤] فوزي، حكام بلاد فارس، ص٢٣.

العسكرية كانت كبيرة إذا ما قورنت بقوة الخلافة العسكرية الضعيفة بسبب التعهد الذي قطعه الخليفة للسلطان مسعود بعدم تكوين جيشٍ خاصٍ به.

وفي سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ازداد اضطراب الأوضاع السياسية والعسكرية في البلاد، نتيجة تصاعد حدّة التنافس على الحكم بين الأمراء والملوك السلاجقة، إذا استغل الخليفة المقتفي هذا النزاع فعمل على تشكيل جيش نظامي للخلافة، ونجح في ذلك ثم أمرهم بإصلاح سور بغداد وترميمه، وحفر الخنادق وتحصينها استعداداً للطوارئ(١).

وفي السنة نفسها سار جماعة من الأمراء إلى بغداد ومعهم محمد شاه بن السلطان محمود بهدف محاصرة مدينة بغداد، وقد صمموا على خلع السلطان مسعود والانتصار عليه فعاثوا بالبلاد فساداً وتخريباً(٢).

وإزاء هذا التمادي والاعتداء على الحرمات والممتلكات تذمّر الرأي العام في بغداد، وهبَّ الناس ملبّين نداء خليفتهم بلبس السلاح فخرجت العامة بالعدّة التامّة، وأبدَوا حينها شجاعة فائقة ودوراً متميّزاً في دفع الأمراء السلاجقة عن بغداد على الرغم من الخسائر البشرية التي منيت بها العامة إذ قُتل منهم ما يقارب خمسمائة رجل(٣).

وشارك صبيان بغداد بقتال الأعداء فخرجوا يقاتلون بالميازر(٤) الصوف والمقاليع(٥) وقتلوا جماعة منهم(٦).

إن التعاون المشترك بين الخليفة والعوام أفرز نقطتين مهمتين أولاهما: تعبئة الرأي العام وسرعة استجابة أهل بغداد لنداء الخليفة ووقوفهم إلى جانبه، والدليل على ذلك أنه بعد انتهاء المعركة نادى الخليفة بإصلاح السور فخرج الناس بالدبادب

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٥٥؛ الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي، ص١٤٧ – ١٤٨.

(٢) الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢٤.

(٣) ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٦٥ – ٦٦.

(٤) **الميازر**: تستخدم لصد نبال السلاجقة. فهد، العامة ببغداد، حاشية ص٣١٤.

(٥) **المقاليع**: تستخدم لرمي الحجارة. مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢/ ص٤٢٧.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢٤.

والبوقات وجاء أهل المحال فحفروا الخندق وعمّروه، معبرّين عن ذلك بفرحتهم بانتصارهم على السلاجقة[١].

وثانيهما: التزام الخليفة المباشر بمصالحهم فحين فشلت حركة الأمراء طلبوا العفو من الخليفة لقاء ما فعلوا[٢]، إلاّ أنه رفض الصفح عنهم إلاّ بعد أن يستحلوا من أهالي القتلى من العامة[٣].

ونتج عن هذا الانتصار الإحساس بالارتياح والطمأنينة بين عامة الناس، وأعقب ذلك انخفاض أسعار السلع الغذائية، وكثرة الخيرات، وخروج أهل السواد إلى قراهم[٤].

وفي سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م وبفضل تعاون الخليفة ووزيره ابن هبيرة، وتأييد الرأي العام لهما وتعبئته تم تحرير مدن الحلة وواسط والكوفة من سيطرة السلاجقة، وقد احتفل العوام باستقبال الجيش المنتصر بفرح لمدة أسبوع وعُلقت الزينة[٥].

وفي أواخر سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م عاود السلاجقة استفزاز الرأي العام بتجاوزهم على الخليفة، وأهل بغداد وذلك عندما قدم السلطان محمد شاه وجنده لمحاصرة بغداد مطالباً بإعادة الخطبة التي قطعها الخليفة[٦]. وإزاء ذلك تحرك المقتفي ووزيره ابن هبيرة بتنظيم شؤون بغداد، وبناء الاستحكامات لمواجهة الحصار واستطاعوا تعبئة العوام، وتجنيدهم للدخول في المعركة[٧]. حتى إذا وصل محمد شاه في منتصف محرم سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م كان الجميع على استعداد لمواجهته. وقد أثار الخطر المحدق ببغداد الرأي العام وسخطه، وأسقط كل أشكال التمايز الطبقي والاجتماعي،

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٦٦.

[٢] الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢٤.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٦٦؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي لأمر الله، ص١٠٠.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٦٤.

[٥] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٨، ص٨٣ – ٨٥؛ الدهش، الوزير العباسي يحيى بن هبيرة، ص٧٣.

[٦] البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٢٨.

[٧] الدهش، الوزير العباسي ابن هبيرة، ص٩٣.

فهبَّ العامة والتجّار والرؤساء للدفاع عن بغداد[١]، فضلاً عن الحجاج الذين وصلوا وقتئذٍ عظم الأمر في نظرهم وهم يرَوْن عاصمة دولتهم في هذه الظروف فدخلوها على الرغم من الحصار الشديد[٢].

وقدّم شباب بغداد صوراً بطولية في أثناء مقاتلتهم للجيش السلجوقي بشتى أنواع الأسلحة من مقاليع وزراقات نار وميازر الصوف وقوارير النفط[٣]. حتى بلغ أن أصحاب المراكب في بغداد أخذوا يقلبون مراكبهم في نهر دجلة وهي محملة بالجند السلجوقي، بعد أن أرغمهم السلطان محمد على نقل جنده إلى الجانب الشرقي من بغداد، حتى أصبح الجند لا يثقون بالركوب فيها[٤].

لقد ضرب أهل بغداد مثلاً في البطولة والشجاعة في قطع إمدادات الجيش السلجوقي القادمة إليه من جهة الموصل وغيرها، عن طريق النهر، الأمر الذي امتنع فيه أمير الموصل عن تزويد المواد الغذائية وغيرها بعد هذه العملية[٥].

في هذه الأثناء كان الخليفة ووزيره الكفء ابن هبيرة قد اتخذا قراراً بتشجيع الناس المقاتلين على قتال المعتدين وهو منح كل مَن يُجرح في أثناء القتال خمسة دنانير مما زاد بالمقاتلين قوة وعزيمة فأثخنوا الغزاة قتلاً وتجريحاً[٦]. ومن الطرائف التي سُجلت في أثناء المعركة أن بغدادياً جُرح جرحاً بسيطاً فسارع إلى الوزير مطالباً بالدنانير الخمسة، غير أن الوزير ردعه بتبرير أن جرحه بسيط لا يستحق هذا المبلغ، عندها سارع البغدادي بالعودة لمواصلة القتال ثم عاد بعد مدّة محمولاً إلى

---

[١] الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٤٥؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٩٩.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١١٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٨/ ص٩؛ لسترانج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص١٨٠.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص١١٢.

[٤] البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٣٠.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١١٢؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي، ص١٠١

[٦] البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٢٩ – ٢٣٠.

الوزير وهو ممسك بأحشاءه وقال: أيكفي هذا يا مولاي؟ فضحك منه الوزير وضاعف له المبلغ وكلّف من يهتم بجرحه إلى أن يبرأ[1].

وقد عبّر الرأي العام في بغداد بعد ذلك عن سَخَطه واستيائه من السلاجقة وذلك بهجوم العامة على الدار السلطانية التي كانت رمزاً من رموز السيطرة الأجنبية في العراق واستطاعوا إجلاء السلاجقة عنها وأبعدوهم ونهبوا ما فيها من أموال وقلعوا أبوابها[2].

وفي غمرة هذه الانتصارات اضطر محمد شاه بعد أن انقسم عليه أعوانه وحلفاؤه إلى الانسحاب من بغداد بعد فشل الحصار الذي دام أكثر من ثلاثة أشهر، بفضل المقاومة الباسلة للجيش والعوام الذين أصبحوا يداً واحدة بقيادة المقتفي لأمر الله ووزيره ابن هبيرة[3]

وبهذا الانتصار ارتفعت هيبة الخلافة فضلاً عن إنها ضربة كبيرة للسلاجقة في العراق فلم يعد لهم بعدها تصرّف وسطوة[4].

وقد عبّر الرأي العام عن تأييده وتجاوبه مرة أخرى مع الخلافة من خلال مساهمته في احتفالات الخلافة العباسية، التي تجلّى فيها الطابع الوطني، فبعد فشل محاولة السلاجقة احتلال بغداد، خرج الناس يلعبون بأنواع اللعب فرحاً بالانتصار، كما أن الصبيان الذين قاتلوا السلاجقة أخرجوا الطبول والأبواق وأسلحتهم وأخذوا يلعبون ويضحكون وخرج كلهم في هذا الاحتفال[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٠٩؛ الدهش، الوزير العباسي يحيى بن هبيرة، ص٩٤؛ الجزراوي، بغداد بعض الغريب والطريف، ص١٠٦

(2) ابن الأثير، الباهر، ص١١٤؛ البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٣٤.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤١٠؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٤٥؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٩٩.

(4) ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١١٨؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي، ص١٠٢.

وقد واصل الخليفة المقتفي القضاء على مظاهر التسلط السلجوقي. ففي سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨هاجم الأمير سنقر الهمذاني سواد بغداد ونهبه[١]، مما أثار سَخَط الرأي العام، فجهّز الخليفة جيشاً للقضاء على سنقر، فأذعن الأخير للصلح، إلاّ أنه تمرّد بعد ذلك واتفق مع أمير آخر يُدعى قويدان[٢]، فقاتلهما الخليفة فهربا إلى ملكشاه بن محمود الذي كان بالأحواز وحرضوه على قصد بغداد فاتجهوا مجتمعين لتحقيق أطماعهم، فلما وصلوا مدينة واسط نهبوا قراها نهباً فاحشاً، مما أدى إلى تذمر أهالي المدينة، فخرجوا لمقاومة المعتدين ففتحوا، بثوق النهر وأغرقوا الكثير من عساكرهم فرجع ما تبقى منهم إلى الأحواز[٣].

وفي السنة التالية ذهب الخليفة إلى واسط ليتفقّد أهلها ومرَّ بسوقها وأبصر جامعها[٤]. مما يؤكد صدق ومكانة العلاقة بينه وبين الرعية وقد زادتها ثباتاً تلك المواقف البطولية لأبناء المدن ضد الاعتداءات السلجوقية.

وأخيراً نستنتج أن الرأي العام في العراق كان مؤثراً وفاعلاً، ولم يكن صامتاً تجاه تجاوزات السلاطين السلاجقة، وأمرائهم، وجندهم، على حرمة ومقدرات البلد منذ سيطرتهم على العراق متخذاً وسائل عدّة للتعبير عن تذمره، فمرّة تعلو الصيحات بالشكوى، وإذا لم ينفع ذلك في إيقاف الانتهاكات تتحول الشكايات إلى مصادمات مباشرة مع السلاجقة، وفي أحيان كثيرة يعبر الرأي العام عن سَخَطه بالاشتراك مع الجيش، ولبس السلاح للدفاع عن مصالحهم وكرامتهم. ومن نتائج تلك المواقف أن تحققت

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٢٠؛ ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٤٢.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٢٥؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٣] ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٤٢.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٣٤؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٥١.

مطالب عامة الناس، وذلك بالانتصار في معظم المواجهات والمعارك التي خاضوها ضد المعتدين من السلاجقة.

المبحث الثاني: تجاوزات الوزراء

في سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م دخل البويهيون بغداد على عهد الخليفة المستكفي (٣٣٣ – ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ – ٩٤٦م) واستبدّوا في الحكم وزال نفوذ الوزراء، وأصبح للأمير البويهي وزير وللخليفة كاتب فقط[١]. وفي سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م دخل السلاجقة بغداد، وأعادوا نظام الوزارة، وعيّن الخليفة القائم رئيس الرؤساء بن المسلمة (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) وزيراً له. ومن وزرائه أيضاً فخر الدولة محمد بن جهير[٢].

وكان للسلاجقة وزراء أيضاً، فمن وزراء السلطان طغرل بك أبو نصر الكندري (ت٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م)[٣]. وكان منصب الوزارة يُعد أعلى مقام في الدولة السلجوقية[٤].

وأخذ الوزراء العباسيون في العصر السلجوقي يتلقبون بألقاب جديدة مضافة إلى أسمائهم، فابن جهير وزير المقتدي لقب بـ**(فخر الدولة)**[٥]، وهبة الله بن المطلب وزير المستظهر لقب بـ**(أبي المعالي)**[٦]،و تلقّب ابن صدقه[٧] وزير المسترشد بألقاب عديدة

---

[١] ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٢؛ أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص١٧.

[٢] **فخر الدولة بن جهير:** هو فخر الدولة أبو النصر محمد بن محمد بن جهير. ولد بالموصل سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م وبها نشأ، وقد وزر للخليفة القائم وابنه المقتدي. توفّى سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٦٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٣٦؛ الصلابي، دولة السلاجقة، ص٢١٣ – ٢١٥.

[٣] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص١٥١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥/ ص٤٩ – ٥٠.

[٤] أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص١٩.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٩٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٣٦٩.

[٦] ابن الطقطقي، الفخري، ص٢٢١.

[٧] **ابن صدقة:** هو جلال الدين أبو الرضا محمد بن أحمد بن صدقة تقلد الوزارة للخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م، وعزله عنها مكرهاً سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، وأعيد إليها سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، وقد ناهض النفوذ السلجوقي وقاد جيشاً لمحاربة السلطان طغرل بك سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م الذي قصد بغداد وأرغمه على العودة. توفّى سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م. ينظر: ابن حمدون، التذكرة (مخطوطة)، ج١٢/ ورقة ١٨٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٤٨.

منها **(جلال الدين، سيد الوزراء، صدر الشرق والغرب)**، وتلقّب أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير المقتفي بـ**(عون الدين)**[1].

وتلقّب وزراء السلاجقة بألقاب مختلفة مثل عميد الملك، ونظام الملك، ومؤيد الملك، ومعين الدين، وشهاب الدين، وغيرها من الألقاب[2].

وكان معظم الوزراء في العصر السلجوقي أما من رجال الأدب والكتابة، وإما من الفقهاء، فعميد الملك الكندري كان شاعراً ضليعاً في الأدب العربي والفارسي[3]. وكان نظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) محدثاً وفقيهاً [4]. وعون الدين بن هبيرة محدثاً، وفقيهاً، وأديباً، وله مؤلفات عديدة في هذه العلوم[5].

ومن الملاحظ أن السلاجقة الذين سيطروا على أجهزة الحكم كانوا يتدخلون في تنصيب وخلع الوزير، ومثال ذلك في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م طلب السلطان ملكشاه من الخليفة المقتدي عزل الوزير أبي شجاع الهمذاني، فنفّذ الخليفة طلب السلطان وعزل الوزير [6].

ومن وظائف الوزير العباسي الإشراف على جميع الدواوين، واستعراض حساباتها وأعمالها[7]. وكذلك الوزير السلجوقي، فهو المساعد للسلطان ويقدم النصح والمشورة له، وكانت له سلطات واسعة، فهو يشرف على جميع الدواوين في الدولة

---

[1] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٦٦؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص٢٣٠.

[2] الصلابي، دولة السلاجقة، ص١٩٤ – ١٩٥.

[3] أبو عزة، الحضارة العربية في المشرق، ص٨٠.

[4] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥/ ص٣٩٥ – ٣٩٧.

[5] ينظر: المصدر نفسه، ج٨/ ص٢٧٤؛ أبن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، مج٤، ق٢، ص٣٢٢.

[6] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٦٦؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص٢١٩؛ ابن خلدون، العبر، ص٥٨٩.

[7] حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٦٥.

السلجوقية[1]، مما جعل هذا المنصب من المناصب التي تشتد حولها المنافسة، وتكثر حول المضطلعين بها الدسائس والمؤامرات[2].

وكان لتصرفات بعض وزراء الخليفة والسلطان أثر كبير في استفزاز الرأي العام وإزعاجه، مما ترتب على ذلك ردود فعل من قبل عامة الناس الفئة الأكثر تضرراً من تلك التجاوزات.

ففي سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، أي بعد سنة من دخول السلاجقة بغداد طلب رئيس الرؤساء وزير الخليفة القائم بأن تنصّب أعلام سود في الكرخ[3]. وكان يجتهد في أيذائهم، وإنما كان يدفع منهم عميد الملك الكندري على حد قول ابن الجوزي[4]. وهذا يعني أن النزاع بين الوزراء يتحمل نتائجه الأهالي. فرئيس الرؤساء أراد إيذاء أهالي الكرخ وإثارتهم بسبب نزاعه مع الوزير السلجوقي الكندري.

وفي السنة نفسها أمر رئيس الرؤساء صاحب الشرطة أن يقتل أبا عبد الله بن الجلاّب شيخ البزازين بباب الطاق[5]، وصلب على باب دكانه[6]، بتهمة ميله إلى طائفة مذهبية معينة فأثار فتنة بين محلتي الكرخ وباب البصرة[7]، مما أثار حفيظة أهالي الكرخ وباب الطاق وانزعاجهم وتذمرهم.

ولما حصلت المجافاة بين القائد التركي البساسيري والخليفة القائم قيل أن سببها الوزير بن المسلمة رئيس الرؤساء، الذي اتهمه البساسيري بالاتصال بالسلاجقة وقدومهم إلى بغداد لحسابه الخاص ومن وراء الستار[8]. إلى أن تمكن البساسيري

---

[1] السمرقندي، جهار مقالة، ص٢٣ – ٢٤.

[2] للتفاصيل، عن الامتيازات والشارات للوزير العباسي والسلجوقي. ينظر: الصلابي، دولة السلاجقة، ص١٩٥ – ١٩٩.

[3] **الكرخ:**محلة في وسط بغداد. الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ص٤٤٨.

[4] المنتظم، ج١٦/ ص٦.

[5] **باب الطاق:** محلة ببغداد في الجانب الغربي قرب نهر القلائين شرقاً. الحموي، معجم البلدان، ج٥/ ص٣٢١.

[6] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٦٨.

[7] **باب البصرة:** محلة كبيرة في بغداد شرق الكرخ. الحموي، معجم البلدان، ج٥/ ص٣٢٢.

[8] طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص٢٣٩؛ يونس، تطور الفكر الإمامي في العراق،ص٤٢.

سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م من السيطرة على بغداد بعد خروج السلطان طغرل بك منها لمحاربة أخيه إبراهيم ينال الذي تمرد عليه[١]، وقبض البساسيري على الوزير ابن المسلمة فسبته العامة، وهمّوا بضربه فمنعهم البساسيري وحبسه. وبعد أيام قليلة أُخرج من السجن. وقد اجتمعت العامة وعبّرت عن سَخَطها لما فعله بهم، إذ أركبوه جملاً وطيف به في محال الجانب الغربي ووراءه من يصفعه بقطعة من جلد[٢]. وابن المسلمة يقرأ قوله تعالى: (([illegible]

[illegible]

[illegible]))[٣] وشهّر في بغداد، ونثر عليه أهل الكرخ لما اجتاز محلتهم خلقان المداسات وبصقوا في وجهه[٤]، لِمَا لاقوه من أذى على يديه، ولُعن وسُبَّ في جميع المحال، ثم أُعيد إلى معسكر البساسيري وقد نُصبت له خشبة وأُنزل من الجمل وأُلبس جلد ثور ووضعوا قرون على رأسه وجُعل في فكيه كلاّبان من حديد وصُلب فبقي يضطرب إلى آخر النهار ومات[٥].

يمكننا القول إن تجاوز الوزير ابن المسلمة على أهالي بعض المحال في بغداد قد ولَد تذمراً وانزعاجاً وفتنة بين محلتي الكرخ وباب البصرة، وعندما أُلقي القبض عليه من قبل البساسيري انقسم الرأي العام على أثر الفتنة على قسمين، قسم رفض

---

[١] فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٦٥؛ طقوش، تاريخ السلاجقة، ص٨٠.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣١ – ٣٦؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٤؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٣/ ص٤٢٤؛ الحديدي، العلاقات السلجوقية-الفاطمية، ص٩٩.

[٣] سورة آل عمران، آية ٢٦.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٤٤.

[٥] ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٠/ ص٣٦، ٢٥١؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٥/ ص٢٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٧٩؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٣/ ص٤٢٤؛ الحديدي، العلاقات السلجوقية – الفاطمية، ص٩٩.

حركة البساسيري، وهم الذين يساندون الوزير ابن المسلمة، والقسم الآخر هم أهل المحال التي تبغض ابن المسلمة، إذ عبّروا عن تأييدهم للبساسيري وانضموا له ليثأروا من عدوهم لما قام به من إيذائهم.

وفي سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م احترقت بغداد الكرخ وبين السورين ومن جملة ما احترق خزانة الكتب التي وقفها ابن اردشير[١] الوزير وكان بها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد من مختلف العلوم، وكان بعض العامة قد نهبوا بعضها، لما وقع الحريق، فحضر الوزير عميد الملك الكندري فأزالهم وقعد يختار من الكتب خيرها ويأخذها لنفسه[٢].

إن تجاوز الوزير الكندري على خزانة الكتب قد أثار تذمّر أهالي بغداد لاسيما العلماء، وقد وصف المؤرّخ ابن الأثير تطاول الكندري هذا بقوله: ((**فنسب ذلك إلى سوء سيرته، وفساد اختياره، وشتّان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمّر المدارس ودوّن العلم في بلاد الإسلام جميعها ووقف الكتب وغيرها**))[٣].

وفي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م أمر الخليفة القائم بعزل الوزير فخر الدولة بن جهير بسبب تجاوزه عليه[٤]. وعند حلول سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م ولأهمية الحدث بدأ ابن الجوزي كلامه حول التنافس لنيل منصب الوزارة بقوله: ((**إن الرغبات في الوزارة زادت فطلبها من لا يصلح**))[٥]، واستقر الأمر على ابن عبد الرحيم مما أثار استياء وتذمر أهالي بغداد، فكتب العوام الرقاع وألصقوها في الجامع باللعن لمن يسعى للوزارة لابن عبد الرحيم وذلك لأنه كان مع البساسيري عند سيطرته على بغداد سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م

---

[١] **ابن أردشير:** هو سابور ابن أردشير بن فيروزيه أبو نصر الجوزي، ولد سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، وتولى الوزارة لبني بويه سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م. وقد اشترى داراً سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م بين السورين ببغداد وسماها دار العلم، وحمل إليها الكتب من سائر العلوم والآداب، ورتب فيها قواماً وخزاناً. توفّى سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م. ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥/ ص٤٥ – ٤٦.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٥٠؛ الصفدي، المصدر نفسه، ج١٥/ ص٤٦.

[٣] الكامل، الجزء نفسه والصفحة.

[٤] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٠٦؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٥٨٥.

[٥] المنتظم، ج١٦/ ص١١١.

وشارك في نهب دار الخلافة والحرم بشهادة زوجة الخليفة القائم بقولها: **((هذا الرجل من جملة من نهبني))**[1].

وأمام اعتراض العوام على مرشح الوزارة الجديد، وتذمرهم أمر الخليفة بإعادة فخر الدولة بن جهير إلى الوزارة مرة ثانية بعد أن عفا عنه[2]. ففرح الناس حتى صام بعضهم وتصدق آخرون، وعند مجيئه ولقائه الخليفة التفَّ حوله العوام، وهم يضجون بالدعاء له والسرور به، ومدحه الشاعر ابن الفضل بقصيدة بدأها بقوله[3].

قد رجع الحق إلى نصابه   وأنت من دون الورى أولى به

ما كنت إلا السيف سلته يد   ثم أعادته إلى قرابه

يمكن أن نستنتج من هذه الحادثة أن للرأي العام أثر كبير في إبعاد مَن لا يصلح للوزارة، وذلك بالتعبير عن رأيهم بالوسائل السلمية وذلك بكتابة الرقاع وإلصاقها في الأماكن العامة لإرغام الحكومة على تحقيق مطاليبهم، وإعادة مَن يرغبون به وهو فخر الدولة بن جهير.

وفي سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م أمر الخليفة المقتدي بعزل الوزير عميد الدولة بن وتعيين أبي شجاع محمد بن الحسين الروذراوري (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وزيراً له[5]، وكان أبو شجاع يملك عند توليه الوزارة ستمائة ألف دينار أنفقها كلها في أعمال الخير مثل بناء الأوقاف والمساجد، والإنعام على الفقراء واليتامى، وتوزيع الأدوية مجاناً في

---

[1] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٨١.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١١١ – ١١٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٣٨؛ الصفدي، الوافي بالوافيات، ج١/ ص١١٣.

[4] **عميد الدولة بن جهير**: هو أبو منصور عميد الدولة محمد بن محمد بن جهير (وهو ابن الوزير فخر الدولة) كان من أعظم الوزراء وأبعدهم أثراً في سياسة الدولة، تولى الوزارة لأكثر من مرة. توفّى سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٥٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٤٠٠.

[5] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٢٨؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص١٣٧.

أوقات حدوث الوباء وإرسالها إلى جميع أنحاء البلد[١]. وقد أجمع مترجموه على عفّته عن الأموال وكثرة صدقاته، وأحصى مَن تولّى صدقاته الأموال التي صرفها في هذا الباب فبلغت مائة ألف دينار، وقال أيضاً: **((وكنت واحداً من عشرة يتولّون صدقاته))**[٢]. ويبدو من ترجمة الوزير أبي شجاع أن إحسانه كان ينطلق من إيمانه بمبدأ الإحسان، وليس بقصد الدعاية وعلو الجاه.

وقد نجح في ضبط أمور الدولة في أثناء وزارته، وحفظ للخلافة هيبتها واحترامها[٣]، وكان شديداً في تطبيق أحكام الشرع، ولم يترك فرصة للموظفين والعمال لاستغلال وظائفهم والاعتداء على أموال الناس[٤]. فعمَّ الأمن وزاد الرخاء وانخفضت الأسعار[٥].

وصف ابن خلكان حالة الخلافة في عهده ، بأن أيامه أوفى الأيام سعادة للدولتين **(الخلافة العباسية والدولة السلجوقية)**[٦].

ونال الوزير محبة واحترام الرعية لسيرته الحسنة، وظل يلي الوزارة حتى سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م إذ طلب الوزير نظام الملك من السلطان ملكشاه الكتابة إلى الخليفة المقتدي بعزل أبي شجاع، واستوزر الخليفة عميد الدولة بن جهير بأمر من الوزير نظام الملك أيضاً بعد أن تزوّج ابن جهير من زبيدة ابنة نظام الملك[٧]. وهذا دليل على أن الوزير السلجوقي كثيراً ما يتدخل في شؤون الوزارة العباسية.

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٢ – ٢٣.

[٢] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص٢٢١ – ٢٢٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٢٩؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص١٣٩.

[٣] ابن خلكان، المصدر نفسه، ج٤/ ص٢٢٢.

[٤] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص١٣٨.

[٥] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص٢٢٢.

[٦] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٩٢؛ علي، الزواج السياسي، ص١٠٤.

ومن أسباب عزل أبي شجاع إنه كان يعارض طلبات رجال الديوان والجيش، التي تتنافى مع الشرع[1]، ومنها إنه كان شديداً على أهل الذمة، وقد ألبسهم الغيار[2]. وكان يخالف أوامر الديوان والعسكر لأنها مخالفة للشرع. فضجر منه الخليفة[3]، وصادف أن استُبيحت سمرقند[4] على يد السلطان ملكشاه، وعندما جاء البشير إلى بغداد قال أبو شجاع: ((**وأي بشارةٍ هذه، كأنه قد فتح بلداً من بلاد الكفر، وهل هم إلاّ قوم مسلمون استُبيح منهم ما لا يُستباح من المسلمين، فبلغ هذا السلطان مع ما في قلب الخليفة فعزله**))[5] فانصرف إلى داره وأخذ ينشد[6].

تولاّها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق

وقد عبّر العامة عن تذمرهم من السلطان ملكشاه ووزيره بعد خلع أبي شجاع، فعند خروج الأخير إلى المسجد ماشياً التفَّ الناس بكثرة حوله يصافحونه، ويدعون له، ومعه جماعة من العلماء والزهّاد[7]. فقيل للخليفة أراد بهذا التشنيع عليه، فصدر أمر الخليفة بأن يلزم أبو شجاع داره، ولا يخرج، فبنى في داره مسجداً يصلي فيه. وقد توفّى في سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م في مدينة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[8].

---

[1] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٢٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣/ ص٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٣٧.

[2] **الغيار**: علامة أهل الذمة كالزنار للمجوس (الحزام الذي يشدّه على أوساطهم) ونحوه، وقيل أنه علامة اليهود وغيره. الزبيدي، تاج العروس، ج١٣/ ص٢٨٩.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٩٣.

[4] **سمرقند**: مدينة من ما وراء النهر. ينظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص٤٠٦.

[5] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٩٣.

[6] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٣٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٦٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٣٠؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص٢٣٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص١٣٢.

[7] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٩٣؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[8] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٣٣.

نستنتج من ذلك أن الرأي العام في العراق قد عبّر عن تذمره هذه المرة من السلطان ملكشاه ووزيره بوسيلة سلمية، وهو التفافهم حول وزيرهم المخلوع أبي شجاع، ومصافحته والدعاء له، لسيرته الحسنة، وذلك لأن قرار العزل جاء من الخليفة مباشرةً، وبأمر من السلاجقة الذين كانوا يسيطرون على سياسة الخليفة والوزراء في العراق.

شهدت سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م قيام وزير السلطان محمود بن محمد وهو أبو طالب السميرمي[١]، بالتجاوز على ممتلكات الناس وحقوقهم في العراق ولاسيما مدينة بغداد، وذلك بإعادة فرض المكوس والضرائب بعد أن أسقطها السلطان محمد سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م[٢].

وقد وصف ابن الجوزي ظلم السميرمي وتعسفه بقوله: **((وكان مجاهراً بالظلم والفسق وبنى ببغداد داراً على دجلة ودمّر المحلة المعروفة بالتوثة ونقل آلاتها إلى عمارة داره فاستغاث أهلها إليه فحبسهم ولم يخرجهم إلاّ بغرم))**[٣] وكان يقول: **((لقد سننت على أهل بغداد السنن الجائرة، فكل ظالم يتبع أفعالي ...أنا قد فرشت حصيراً في جهنم، وقد استحييت من كثرة التعدي على الناس وظلمي مَن لا ناصر له))**[٤].

---

[١] **السميرمي:** هو كمال الملك أبو طالب علي بن أحمد السميرمي، وسميرم قرية بأصبهان، تولى ديوان (اشراف المملكة) وارتفعت منزلته فتولى الوزارة للسلطان محمود سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م. ينظر: ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١٨/ ص١٠٧ – ١١٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٤٣٢ – ٤٣٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٠/ ص٨٩.

[٢] أبو شامة، الروضتين، ج١/ ص١٠٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٨٥.

[٣] المنتظم، ج١٧/ ص٢١٢؛ وينظر: مقدسي، خطط بغداد، ص٣٥.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٤٣٢.

وإزاء هذا التمادي والغي من قبل الوزير السميرمي تذمر الناس، وضجوا بالشكوى علناً، إلى أن قام عدد من العامة سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بعملية فدائية وقتلوا السميرمي جزاء جرائمه وظلمه لهم[١].

وكانت زوجة السميرمي يوم مقتله قد خرجت بموكب كبير اشتمل على نحو مائة جارية وجمع من الخدم والجميع بمراكب الذهب، فلما سمعنَ بقتله عُدنَ حافيات حاسرات، وقد تبدّلنَ بالعز هواناً، وبالمسرة أحزاناً، فسبحان مَن لا يزول ملكه على حد قول ابن الأثير[٢].

وكان من نتائج استفزاز الرأي العام قتل الوزير السميرمي، وقيام الخليفة المسترشد بإلغاء المكوس والضرائب التي أمر السلطان محمود بفرضها على التجار والباعة بعد مغادرته بغداد[٣].

ويبدو أن الرأي العام هذه المرة اتّخذ وسيلة أخرى للحد من ظلم وتعسّف وزير السلطان، وهي العملية الفدائية التي أسفرت عن قتله.

تكررت عملية فرض الضرائب والتجاوز على ممتلكات الخلافة والأهالي من قبل السلاطين ووزرائهم. ففي سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين أنو شروان بن خالد، واستوزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن مسلمة الدركزيني[٤]. وفي سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م ورد الدركزيني إلى بغداد حاملاً رسالة إلى الخليفة من السلطان مسعود يطالبه بمائة ألف دينار يجبيها من ماله ومن الناس، ومن دار الخلافة، مما تسبب تذمراً للرأي العام إذ ضجَّ الناس بالشكوى للخليفة المقتفي فبعث الأخير قائلاً: ((**ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى، وعاد أصحابه عراة، ووُليَّ الراشد ففعل ما فعل، ثم رحل وأخذ ما بقي من الأموال ولم يبقِ في الدار سوى الآثاث، فأخذته جميعه،**

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢١٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٤٠٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٠/ ص٨٩.

[٢] الكامل، ج٩/ ص٢١٦.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٠٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٦٠.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٩٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٩٩.

وتصرفت في دار الضرب، ودار الذهب، وأخذت التركات[١]، والجوالي[٢]، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال، وما بقي إلاّ أن نخرج من الدار ونسلمها، فإني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً))[٣].

أظهرت رسالة الخليفة وقوفه بوجه الوزير الدركزيني والسلطان مسعود، وأظهرت كذلك استنكار الرأي العام لتجاوز السلطان ووزيره على السلطة والعوام في بغداد، وما أن قرأ السلطان مسعود هذه الرسالة حتى أدرك شدّة تذمّر المقتفي لأمر الله واستياء الناس فاضطر للتنازل عن طلبه فأسقط ستين ألف دينار وطالب بأربعين. وأما ما قرّر من أموال الناس فأنكره السلطان ولم يكن منه وإنما بتدبير من الوزير الدركزيني[٤] وهذا يؤكد أن الوزير الدركزيني قد تجاوز صلاحياته في فرض الضرائب الثقيلة على الناس من دون الحصول على موافقة السلطان.

وقد تم قتل الوزير الدركزيني سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م من قبل السلطان مسعود، وذلك للشكايات الكثيرة التي كانت تصل إليه من قبل أرباب الأعمال ورجال الدولة بسبب تدخلّه في أعمالهم[٥].

اتضح من خلال تلك الأحداث أن الرأي العام عبّر عن استنكاره من تجاوزات السلاجقة ولاسيما السلطان مسعود ووزيره بوسائل جديدة هي الرسائل ومنها رسالة الخليفة المقتفي لأمر الله إلى السلطان.

وكان لظلم بعض الوزراء للرعية أثر كبير في إثارة الرأي العام ففي سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م بعث الخليفة المستنجد بالله إلى ابن البلدي[١]، وقلّده الوزارة. وقد اشتهر

---

(١) **التركات:** ويُقال لها التركات الحشرية، وهي إرث مَن لا وارث له من الرعية، والدولة ترثهم بحكم الشرع الإسلامي. ينظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٤٢.

(٢) **الجوالي:** مال الجوالي (جمع جالية) وهي الجزية على أهل الذمة، ينظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٤٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣/ ص٥٣٠.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦، ص١٩٩؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

(٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٣٠.

بظلم الرعية على اختلاف طبقاتهم ومهنهم. حتى صار ظلمه أمراً مألوفاً، مما أثار حفيظة الأهالي والموظفين. وعلى الرغم من أن بعض التجاوزات التي صدرت من الوزير ابن البلدي بحق الكتّاب والعمال جاءت بأمر الخليفة المستنجد[2]. إلاّ أن ذلك لم يعفِ الوزير من العقوبة إذ ظنَّ هؤلاء الموظفون إنه هو الذي سعى بها، فبعد وفاة المستنجد سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م وبيعة ابنه المستضيء بأمر الله كان ضمن مَن بايعه بعض موظفي الخلافة المعادين لابن البلدي، فاشترطوا على المستضيء بعد مبايعته معاقبة الوزير ابن البلدي، فأجابهم لذلك[3]. فاستدعى ابن البلدي إلى دار الخلافة فلما دخل قبض عليه، وسُلِّم إلى قوم كان الوزير قد آذى بعض ذويهم إذ أنه قطع أنف امرأة ويد رجل لجناية جرت منهما، فلما تسلموه قطعوا أنفه ثم يده ثم ضرب بالسيوف وألقي في دجلة، وأُخذ جميع ما في داره[4].

ويبدو أن مَن سعى من الموظفين إلى قتل الوزير ابن البلدي قد ندم على ذلك، فبعد تصفيته ودخول بيته،رأيا أوامر الخليفة المستنجد بالله يأمر وزيره بالقبض عليهم، ومراجعة الوزير للخليفة في هذه الأوامر، فلما وقفا عليها عرفا براءته: **((فندما حيث فرّطا في قتله))**[5].

وهذا لا يمنع من أن الوزير ابن البلدي كان شديداً في تنفيذ أوامر الخليفة، فضلاً عن إنه تجبّر تجبّراً زائداً، وأن الناس لم يجدوا مَن يسمع شكواهم، مما أدى إلى تذمّر الرأي العام، وبعد وفاة الخليفة الذي كان يسنده في تجاوزاته، تم قتله أبشع قتله.

---

[1] **ابن البلدي:** هو شرف الدين أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي، كان ناظراً بواسط وأظهر في ولايتها كفاية عظيمة فأحضره الخليفة المستنجد واستوزره. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٩/ ص٢٤٣ – ٢٤٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧/ ص٢٦١ – ٢٦٢.

[2] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٩.

[3] المصدر نفسه، ج١٠/ ص٢٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٧.

[4] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٩١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧/ ص٢٦٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٢١٧.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٢٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٩/ ص٢٤٣.

وكان لظلم الوزير ابن العطّار[1] للرعية أثر كبير في التمثيل بجثته بعد قتله بأمر الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ – ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ – ١٢٢٥م) وذلك أن الدولة في العصر العباسي الأخير أخذت تستحصل الضرائب بطريقة ضمان الأراضي الزراعية، فقسمت البلاد إلى عدد من الضامنين، فكان لكل واحد منهم منطقة معينة يشترط عليه عند الاتفاق معه أن يؤدي مبلغاً معيناً إلى بيت المال. ومن الذين ضمنوا منطقة واسط أثناء خلافة المستضيء ابن العطار وكان صاحب المخزن[2]، وقد تحكّم في كثير من شؤون الدولة تحكّما كبيراً ولاسيما الأمور المالية، واستولى على جميع المعاملات المالية التي لها علاقة بمنطقة واسط واحتكر البلاد بسائرها[3] حتى ولاّه الخليفة المستضيء الوزارة لأنه قد أقرضه مبالغ ضخمة من المال[4]. ونال من الوجاهة ما لم ينله غيره[5]. ويشير أحد المؤرخين إلى أنه كان قاسياً فاتكاً جبّاراً لا يعرف الرحمة إذ منع البيع من خزائن الغلاّت والحبوب في سنوات الجدب، في وقت كانت الغلاّت كثيرة والحبوب موجودة بسبب احتكاره لها. مما أثار الرأي العام واشتدت بغضته في قلوب الناس، ولاسيما أرباب دولة الخليفة وكانوا يقولون: ((**سبب غلو الأسعار منعه بيع الغلاّت**))[6]، وصادف أن تفشّى الوباء حتى مات من الخلق ما لا يُحصى[7].

---

[1] **ابن العطار:** هو ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر بن الحسين المعروف بابن العطّار، كان أبوه تاجراً كثير المال، فلما مات أبوه بسط يده في المال وخالط الدولة حتى تقرّب من الخليفة المستضيء، وصار عنده الجاه الكثير. قتل سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م. ينظر: ابن الأثير ،الكامل، ج١٠/ ص٩٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص٨٤ – ٨٥؛ النقيب، سياسة الخليفة الناصر، ص٨٢.

[2] **صاحب المخزن:** هو الذي يتولى الخزانة ويكون بمثابة المساعد لتولي ديوان النفقات. فهد، العامة ببغداد، ص٤٨.

[3] الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٣.

[4] ابن الطقطقي، الفخري، ص٢٣٤؛ سعادة، من تاريخ بغداد، ص١٢٢.

[5] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٠/ ص١٨٨.

[6] الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٣.

[7] المصدر نفسه والصفحة.

وعندما بويع الناصر بالخلافة أقرَّ ابن العطّار وزير أبيه على قاعدته أياماً يسيرة، ثم قبض عليه فعذّب بأنواع العذاب، وسمح للعامة بنهب داره وحرقها، فمات بعد أيام قلائل[١].

وكان السبب المباشر لقتل ابن العطار أنه حاول إبعاد الناصر لدين الله عن الخلافة، وإعطائها إلى أخيه الأمين أبي منصور تحقيقاً لرغبة المستضيء إلاّ أنه أُجبر على أخذ البيعة للناصر رغماً عنه، فلما تمت البيعة للناصر قام بقتله شر قتله[٢]. فضلاً عن ظلمه وتجبّره على الرعية[٣].

وكان من نتيجة تجاوزات الوزير وصاحب المخزن ابن العطار على قوت الناس، وأرواحهم، إنه بعد قتله نُقل ليلاً إلى دار أخته فجعلته في تابوت وأرادت إخراجه حتى لا يعلم به أحد[٤]. وهذا دليل على أن أخت الوزير كانت تعلم بأنه شخصية غير مرغوب فيها من لدن العوام لكثرة ظلمه لهم.

إلاّ أن العامة كانت لهم عيون تنتظر خروج جثته، فلما خرج تابوت ابن العطّار ولم يكن من وراءه احد يحرسه، ووصل إلى خارج باب النوبى من دار الخلافة، أشار بعض مَن كان العين على خروجه إلى الناس والمماليك المتضررين من سياسته بقوله: **((هذا تابوت ابن العطّار))**[٥] فتكاثرت العوام على أخذه وألقي من رؤوس الحمالين، وكُسر وأُخرج من التابوت ومُزّقت أكفانه وربطوا في إحدى رجليه حبلاً من ليف وسحبوه في أسواق ودروب بغداد[٦]، حتى أن بعضهم وضع بيده مغرفة (قلم)

---

[١] القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢/ ص٥٧؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٥٣.

[٢] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص٨٥.

[٣] ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٢١؛ سعادة، من تاريخ بغداد، ص١٢٢.

[٤] الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٢.

[٥] المصدر نفسه والصفحة.

[٦] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٠/ ص٣٧، ١٨٩.

وقد غمسوها في العذرة وقالوا: ((**وقّع لنا يا مولانا**))[1]. ومن الناس مَن قطع خنصره وأُذُنَه[2]. ثم تدخل الحرس في تخليص جثته الممزقة ودفنها[3].

وعلى الرغم من أن ما فعله العامة بجثّته يتنافى مع القيم والتعاليم الإسلامية، إلاّ أن ذلك كان نتيجة لغضب الرأي العام تجاه ظلم الوزير ابن العطّار الذي منع بيع الغلاّت بسبب احتكاره لها وسبّب بموت الكثير من الناس بعد تفشي الوباء.

نستخلص مما عرضناه أن الرأي العام في العراق اتّخذ وسائل عدّة للتعبير عن تذمّره واستنكاره لسياسة التجاوزات لبعض وزراء الخليفة والسلطان للحد من سطوتهم وظلمهم. ومنها ارتفاع الأصوات بالشكوى للسلطة العليا، وفي بعض الأحيان يكون قتل الوزير الظالم للرعية بعملية فدائية كوسيلة للتعبير عن سَخَط الرأي العام.

وكان عزل الوزراء ومصادرة أموال بعضهم، وسجن، وقتل، والتمثيل بجثة البعض الآخر نتيجة حتمية لتذمّر الرأي العام من سياسة السطوة والاعتداء على العوام.

وفي مقابل ذلك التفَّ الرأي العام حول بعض الوزراء الذين اتّسموا بحسن السيرة والعدالة وإنصاف الرعية، فغالباً ما تقوم العامة عند اللقاء بهؤلاء الوزراء بمصافحتهم والدعاء لهم، وإطلاق أشعار المدح تعبيراً عن سرورهم، وهذا دليل على أن هؤلاء الوزراء قد عملوا على كسب الرأي العام.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٩٨؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج٢/ ص٥٧.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص١٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص٨٥.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٦٠؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢/ ص٥٧.

المبحث الثالث: تجاوزات كبار الموظفين.

أولاً: تجاوزات الشحنة والعميد.

الشحنة وظيفة سلجوقية جديدة استحدثها السلاجقة ،يُعيَّن صاحبها من قبل السلطان مندوباً عنه في المدن التابعة له، ومهمته الدفاع عن المدينة، والحفاظ على الأمن، ويقوم بجمع الضرائب والأموال، ويرأس الشرطة، كما يتولّى التحقيق بالجرائم أحياناً. ويأتمر بأمره مجموعة من الجنود[١]. وندرك أهمية هذا المنصب من سير الحوادث ومجرياتها منذ سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م، إذ عين السلطان طغرل بك الأمير برسق (ت٤٩٠هـ ١٠٩٦م) شحنة على بغداد[٢].

أما العميد فهو من المناصب التي عُرفت أيضاً ببغداد زمن السلاجقة، وهو يُعين من قبل السلطان السلجوقي، وكان مختّصاً بالإشراف على الإدارة المدنية، إلاّ أن هذا لا يمنع من تعاون الشحنة والعميد في إدارة الولاية والوقوف جنباً إلى جنب على رأس قوات حربية، إذا ما حدث شيء يعكّر صفو الأمن[٣].

وسلطات العميد أوسع من سلطات الشحنة، فالعميد يشرف على العراق بأجمعه، بينما الشحنة يُعين للإشراف على مدينة معينة[٤]. ويعد نائباً للسلطان في العراق[٥]، وأول عميد في العراق من قبل السلاجقة كان أبو نصر أحمد بن علي ، الذي قتله البساسيري مستغلاً وجود السلطان طغرل بك في الموصل سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، وكان هذا العميد يتسم بالشجاعة وحسن السيرة[٦].

---

[١] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٠٣، ٤١٠؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، مج٤/ ق٢/ ص٢٠٦؛ باشا، الفنون الإسلامية، ج٢/ ص٦٢٣؛ جواد، أولية الشرطة، ص٢٢.

[٢] ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص١٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠/ ص٧٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٥٤.

[٣] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٤٢؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص١٢٥.

[٤] أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص٣٢.

[٥] ابن الدبيثي، المختصر المحتاج إليه، ج١/ ص٢٦٥.

[٦] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٤٤.

ونلاحظ أن بعض مَن تولّى منصب الشحنة والعميد تجاوز اختصاصاته، وقام بأعمال عسكرية واسعة، وكان بعضهم يقوم بتصرفات تسبب غضب الخليفة وتذمّر الرأي العام كما فعل شحنة بغداد كوهرائين[١]. سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م الذي عمل على تأجيج نار الفتنة بين محلتي القلائين[٢] والكرخ مما دفع الناس إلى شتمه وشتم السلطان ملكشاه الذي قلّده، فما كان من الشحنة كوهرائين إلاّ أن زاد من تعسّفه فعبر إليهم وقتل منهم جماعة وأحرق بعض الأماكن[٣].

وفي سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م حدثت ببغداد فتنة بين أهل سوق الثلاثاء وأهل سوق المدرسة بسبب الاعتقاد[٤]، فنهب بعضهم بعضاً، وكان الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك (ت٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) بالدار التي عند المدرسة فأرسل إلى العميد والشحنة فحضرا ومعهم الجند، فضربوا الناس وقتلوا بالنشّاب بضعة عشر حتى انتهت الفتنة، وكتبا إلى مؤيد الملك، فردَّ على ذلك مادحاً الشحنة والعميد لإجراءاتهم في حل المشكلة، وجاءت النساء على باب النوبى يلطمنَ على أزواجهنَّ المقتولين[٥]، وعندما رأى مؤيد الملك ذلك كتب اليهم يوبخهم لسوء تصرفهم دون معاقبتهم[٦].

وبدلاً من تهدأة الفتنة بالطرق السلمية عمدَ إلى قتل مجموعة من الناس بصورة عشوائية، مما يدل على استهزائهم بأرواح المسلمين من أهل بغداد، فأدى ذلك إلى

---

[١] **كوهرائين:** هو سعد الدولة كوهرائين، كان خادماً للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بويه ثم انتقل إلى خدمة السلطان ألب أرسلان السلجوقي ثم خدم السلطان ملكشاه بعد وفاة ألب أرسلان. وقد أقطعه واسط وجعله شحنة على بغداد. ولما اختصم السلطان بركياروق ومحمد كان مع بركياروق وقتل سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤/ ص٢٣؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٥٩٧ – ٥٩٨.

[٢] **القلائين:** محلة كبيرة في بغداد في شرقي الكرخ أهلها سنّة. الحموي، معجم البلدان، ج٥/ ص٣٢٢.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٥٧.

[٤] المصدر نفسه، ج١٦/ ص١٩٠ – ١٩١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤١٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٥٨٥.

[٥] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦/ ص١٩١؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٦] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

سَخَط واستياء العوام من عمل الشحنة والعميد. وما توبيخ مؤيد الملك للشحنة والعميد إلاّ لتهدئة الرأي العام عما سبباه من أذى وقتل لأهل المحال المتنازعين لأنه لم يأمر بتأديبهما ومعاقبتهما.

ولم يسلم الخلفاء من تجاوزات من شغلوا وظيفة العميد، فكثيراً ما كانوا يتدخلون في شؤون الخلافة، من خلال مراقبة الخليفة وحاشيته[١]. عن طريق النظّار[٢] الذين يتلقون أوامر العميد ويقوموا بتنفيذها. إذ تجاوز عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث على ممتلكات الخلافة وتدخّل في شؤونها مما أثار تذمّر الخليفة المقتدي فعمد سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م إلى إرسال الشيخ أبي إسحاق الشيرازي[٣] حاملاً رسالة إلى السلطان ملكشاه شاكياً العميد لتجاوزه على ممتلكات الخلافة وطالبه أن ينهي ما يجري على العراق من النظّار[٤]. وعند وصول الشيرازي أخبره بما يجري من الأذى والضيق على أهل العراق والخلافة، واصفاً له تذمّر السلطة والناس من تجاوزات العميد عليهم. فما أن علم السلطان بذلك حتى أمر باستدعاء العميد ومعاقبته وذلك بإعفائه من منصبه بعد إهانته كما رفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة[٥].

وفي سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م تكرر الاعتداء من قبل شحنة بغداد على العوام في أثناء الفتنة بين محلتي الكرخ وباب البصرة إذ أُحرق شطرٌ من المحلتين، فما كان

---

[١] ابن الدبيثي، المختصر المحتاج إليه، ج١، ص٢٦٥؛ المعاضيدي، التنظيمات الإدارية بواسط، ص٥٢٥.

[٢] **النظار**: مفردها ناظر ووظيفته التدقيق والمراقبة. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٤/ ص٢٦٢.

[٣] **أبو إسحاق الشيرازي**: هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي. ولد سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، كان أحد شيوخ عصره علماً وزهداً وعبادةً وسخاءً. توفّى في بغداد سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢/ ص١٤٩ – ١٦٣؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج١/ ص٣٦٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦/ ص٤٢ – ٤٤؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١١٠ – ١٢٣.

[٤] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص٢١٨؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢/ ص٢.

[٥] النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٤١؛ القلقشندي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

من الشحنة إلاّ أن عبر إلى محلة باب البصرة فأحرق جزءاً منها وقتل هاشمياً مما أدّى إلى تحرّك أهل باب البصرة وعبروا إلى الديوان، فأغلقوا الدكاكين، ورجموا أصحاب الشحنة، فتوقف الأخير عن إيذائهم بعد أن أنفذ مَن أصلح بينه وبين أهل باب البصرة[١]. ونستدل أن الشحنة غالباً ما كان سيئاً في تدخله لحل المشاكل بين محال بغداد، مما يوقع خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، ويثير بذلك الرأي العام الذي خرج ليعبّر عن سَخَطه بمقاومة الشحنة وأعوانه ليكف بذلك أذاه عن محالهم.

كان لبعض نواب السلطان من الشحنة والعميد أثر في توسيع شقة النزاعات الطائفية في بغداد مثلما حدث في شهر صفر سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م عندما ثارت فتنة مذهبية بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة وقُتل منهم جماعة[٢] ومال الشحنة سعد الدولة كوهرائين والعميد كمال الملك أبو الفتح الدهستاني إلى أهل محلة الكرخ في بداية الأمر وقاتلوا أهالي محلة باب البصرة، ثم حاصرا المحلتين أياماً فلم يقدر أحد أن يظهر، ولم يرفعا الحصار إلاّ بعد أن جمع لهما مالاً تولّى جبايته نقيبا المحلتين[٣]، وبعد انتهاء الحصار تعالت أصوات أهالي المحلتين بالشكوى إلى الخليفة، فأمر بالقبض على النقيبين اللذين توليا جباية الأموال فحبسهم فأنكرا ما فعلا، ثم أرسل إلى العميد والشحنة وأمرهما بإرجاع الأموال إلى أصحابها[٤].

وعلى الرغم من السطوة والنفوذ الإداري والعسكري لنوّاب السلاطين من الشحنة والعميد وتجاوزاتهم على العوام، إلاّ أنهم جوبهوا برد فعل كبير من الرأي العام متخذاً وسائل عدّة للتعبير عن تذمّره، وواحدة من هذه الوسائل، هي المصادمات مع الشحنة وعساكره، وهذا ما حدث سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م حيث شرع أهل باب البصرة ببناء القنطرة الجديدة ونقلوا الآجر في أطباق الذهب والفضة وبين أيديهم البوقات والدبادب[٥]، معبّرين بها عن فرحتهم بما ينجزون، وجاء أبناء المحال الأخرى

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٤٢.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٤٩؛ أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص٣٢.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٥٦.

[٤] المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص٣٢.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٥٤.

لمساعدتهم، فاستغل الشحنة سعد الدولة كوهرائين حادثة مزاح بعض العاملين وامرأة تبيع الماء فهجمت عساكره عليهم، وضربوهم بالمقارع، فما كان موقف أبناء المحال من التمادي السلجوقي إلاّ أن قاموا بسل سيوفهم واشتبكوا مع العسكر، وهجم أحدهم على كوهرائين وطعنه ومرّغه بالطين[١]. فحمل أصحاب الشحنة على العامة فقاتلوهم، وحرصوا على الظفر بالذي طعن الشحنة كوهرائين. إلاّ أنهم لم يصلوا إليه لتعاون الأهالي على إخفائه على الرغم من قيام العساكر بقتل أحد العوام الذي كان مجرداً من السلاح، وقطع أعصاب ثلاثة أفراد[٢]. وقد عبّر الرأي العام في هذه الحادثة عن التضامن الشعبي بين أهل بغداد لمواجهة اعتداءات السلاجقة.

وقد تكررت صورة التضامن الشعبي مرة ثانية في سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م عندما نادى بعض عساكر شحنة بغداد أيلغازي[٣] على ملاح كان يعمل لنقل الناس عبر دجلة ليعبر بهم، وحينما أبطأ في عبوره رمَوْه بالنبال فمات[٤]. مما أثار غضب العامة، فسارع أصحاب القتيل بالقبض على القاتل لينال جزاءه، إلاّ أن ابن الشحنة وأصحابه هاجموهم وخلصوه من أيديهم، فثارت العامة وفي مقدمتهم أهالي محلة الملاحين، وشارك معهم أهل سوق الثلاثاء، وهاجموا العسكر فانهزموا إلى الشحنة مستغيثين، فهاجم الشحنة ومَن معه محلة الملاحين للانتقام من أهلها، غير أنهم تكبدوا الكثير من القتلى، وانهزم مَن سلم منهم للعبور بالسفن التي يقودها بعض أبناء

---

(١) ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٣) **أيلغازي:** هو نجم الدين إيلغازي بن أرتق التركماني صاحب ماردين وديار بكر وحلب. له غزوات ومواقف مشهورة مع الفرنج. توفّي سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٣٨٥؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٣٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠/ ص١٧ – ١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٢٢٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٥١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤/ ص٤٥ – ٤٦؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٠٣؛ فهد، العامة ببغداد، ص١١١.

المحلة الذين ما أن وصلت سفنهم إلى منتصف النهر حتى ألقَوا بأنفسهم في النهر وتركوا الأعداء يغرقون، فكان الغرقى أكثر من القتلى[١].

وقام الشحنة أيلغازي بعد هذه الحادثة بجمع التركمان لنهب الجانب الغربي من بغداد، فأرسل إليه الخليفة المستظهر بالله بعض الفقهاء، ومنعه من ذلك فامتنع[٢]. وهذا يؤكد تأييد الخليفة للرأي العام في تصديه للشحنة وعساكره.

اتسمت السياسة الضريبية لسلاطين السلاجقة ونوّابهم من الشحنة بالتعسف والظلم للناس في العراق. ففي سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م عجز الشحنة في بغداد عن أمر العيارين الذين تنفذوا كثيراً، وقد ترك الجانب الغربي من مدينة بغداد دون شرطة، ولما عجزوا عن العيارين الأقوياء التفتوا إلى الضعفاء، فكانوا يقبضون عليهم ويحرقون بيوتهم، ولم ينقطع شر الشحنة إلا بعد أن تسلّم نقيب الهاشميين الأمر[٣]. لكن الأمر لم ينتهِ إذ قام الشحنة بفرض مبالغ من الأموال على سكان المحال، فاجتمع الناس إلى الديوان شاكين من سياسة الشحنة التعسفية، فقام بتخفيض المبالغ المفروضة بعد تدخل النقباء، وعلى الرغم من ذلك فقد تأذى ضعفاء الناس فاضطر بعضهم اللجوء إلى الاستجداء لجمع المبالغ المفروضة عليهم[٤].

لعل لجوء العوام للشكوى من تجاوز الشحنة وعساكره قد حدد قيمة الضريبة المفروضة على الأهالي، ولم يلغها، مما أدّى إلى تضرر العامة من ذوي الدخل المحدود، فضلاً عن الأذى الذي لحق بهم من تعديات العيارين الذين استفحل أمرهم بسبب ضعف الشحنة أيضاً.

وغالباً ما يستبد الشحنة برأيه عند فرض الضريبة أو إسقاطها قاصداً فيها إيذاء الناس عند جمعها. ففي سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م أخذ شحنة بغداد منكبرس يوغل في

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٥١؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٠٣.

[٢] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص٤٦.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٨٤.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٨٤ – ٨٥؛ الجبوري، العلاقات بين الخلفاء، ص٣٨.

الظلم والتعسف ضد الرعية، ويصادر أموالهم[1]. فاختفى أرباب الحرف والأموال، وانتقل جماعة إلى دار الخلافة خوفاً من مصادرة أموالهم، فتوقفت أعمال الناس وأكثر أصحابه الفساد[2]. وقد استغاث الناس لهذا الحال، وأغلق أصحاب المهن أسواقهم[3]، وسمع السلطان محمود بن محمد بما يفعله الشحنة منكبرس وأتباعه، فأرسل إليه يستدعيه ويحثه على اللحاق به وهو يمتنع[4]. ولما علم أهل بغداد بتغيّر السلطان عليه واستدعائه إليه. اتفق الرأي العام على الانتقام منه، وعندما أحسَّ منكبرس بذلك غادر بغداد خوفاً من الثورة عليه. وقد صادف في هذه السنة أن اتفق ظلم الطبيعة مع ظلم الشحنة، إذ انقطع الغيث، وعدمت الغلاّت في العراق، وارتفعت الأسعار، وأكل الناس النخالة، وعظم الأمر على أهل بغداد بما كان يفعله منكبرس بهم على حد قول ابن الأثير[5].

وقد قام الخليفة المسترشد بالله من جراء ذلك على تهدئة الرأي العام وامتصاص غضبه مما يفعله الشحنة بهم، فعمل على منع مصادرة أموال الناس، وأمر أن لا يؤخذ من الضرائب إلاّ ما جرت عليه العادة القديمة[6]. إلاّ أن هذا لم يمنع من استمرار تذمّر الرأي العام من سياسة الشحنة منكبرس لما خلّفه من آثار اقتصادية على دخل أهل بغداد، إلى أن قُتل منكبرس على يد السلطان محمود سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م وذلك لاستبداده بالأمور: **((وما فعله بالعراق من الظلم ... فقتله صبراً وأراح العباد والبلاد من شرّه))**[7].

---

[1] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٩٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٧٩؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٥٤.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٧٧.

[3] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٩٠.

[4] ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦١٣.

[5] الكامل، ج٩/ ص١٧٩.

[6] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[7] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٨٧؛ وينظرمع بعض الأختلاف : النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٩١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٧٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٨٤.

وفي سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م عند وصول خبر أسر الخليفة المسترشد بالله من قبل السلطان مسعود إلى بغداد، عزم الشحنة بكبه التجول في الأسواق مما أثار الرأي العام، فاجتمع العوام على رجمه وهاجوا فاقتتل أصحاب الشحنة والعوام[١]. فقتل من أهل بغداد مائة وثلاثة وخمسين، واستمرت المصادمات إلى أن نادى الشحنة بأن السلطان مسعود سائر إلى العراق بصحبة الخليفة المسترشد وذلك لتهدئة الرأي العام وفعلاً سكن الناس[٢].

وفي السنة نفسها قام الشحنة والعميد بمحاولة لتخريب أسس النظام الاقتصادي في العراق، إذ عطّلا دار الضرب وعملا دار ضرب عندهم في سوق العميد ودار الشحنة، وقبضوا على عامل الجوالي، وكتبوا إلى ضامن المباني ودور الدولة يأمرونه بأن يسلّم أموال ضمان العقار إليهم، وقبضوا على عامل التركات الحشرية وطالبوا بالتركات المتجمعة عنده[٣]. وقد تمادى الشحنة بكبه في ظلمه لأهل بغداد إذ قام بنقض سور بغداد، والأكثر قسوة من هذا إنه أجبر أهل الجانب الغربي من بغداد سخرةً على نقض السور قائلاً لهم: **((أنتم عمرتموه بفرح فانقضوه كذلك))**[٤].

وبعد وفاة الخليفة المسترشد، تولّى أمور الخلافة ابنه الراشد (٥٢٩ – ٥٣٠هـ/ ١١٣٤ – ١١٣٦م) فأمر أن يُنادى بين الناس: **((أن لا يَظلِم أحد أحداً ... ومَن كانت له مظلمة فليشكها إلى الديوان النبوي))**[٥]. لكن أعمال بكبه في نقض السور ومصادرة الأموال لم تتوقف، فضلاً عن قيامه بالمناداة في الناس أن تتقدم الشكاوى

---

[١] النويري، المصدر نفسه، ج٦/ ص٣٤٩؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٧٦؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٥٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٠.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٩٦.

[٣] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٤] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٥١؛ مقدسي، خطط بغداد، ص١٧٤.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٠٠.

والمظالم إليه[١]. مما أدّى إلى استياء العوام. وقد أشار ابن الجوزي إلى ذلك بقوله: **((فارتابت قلوب الناس وانزعجوا))**[٢].

ويبدو أن الشحنة بكبه أراد أن يقطع الطريق على أي مظلمة تستهدفه، وكان لعمله هذا أثر في استفزاز الرأي العام المتمثل بسلطة الخليفة والعوام. وكانت نهايته سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م أن قبض عليه عماد الدين زنكي (صاحب الموصل) وأغرقه فمات، وذلك لخيانته إذ ثبت إنه كان على اتصال بالسلطان مسعود بعد أن انضم إلى الخليفة الراشد وعماد الدين زنكي في الدفاع عن بغداد ضد هجوم السلطان مسعود المتوقع[٣].

وقد وصف بعض مَن تولّى منصب الشحنة بالظلم والجور والفساد في بغداد. ففي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م قتل شحنة بغداد صبياً مستوراً من أهل محلة المختارة[٤]، مما أدّى إلى ثورة الناس على هذا الشحنة، فما كان من السلطان مسعود إلاّ أن عمل على تهدئة الرأي العام وكسبه فأمر بصلب الشحنة فصُلب، ثم أنزل العوام جثته وقطّعوه إرباً إرباً نتيجةً لظلمه وتعسفه[٥]. وهو شعور جمعي بالظلم[٦] وردُّ فعله هو القيام بهذا السلوك الذي يُسمى الغوغاء[٧].

---

[١] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٢] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٣] المصدر نفسه، ج١٧/ ص٣٠٨؛ القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٧٨.

[٤] **المختارة:** محلة كبيرة من محال الجانب الشرقي من بغداد. الحموي، معجم البلدان، ج٥/ ص٧١.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٠٦.

[٦] القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٧٩.

[٧] **الغوغاء:** جماعة من الأفراد يتصرفون بطريقة عدوانية لمقاومة من يعترضهم، أو للقيام بعمل غير مشروع، وذلك بتأثير الإثارة العاطفية. ينظر: بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص٢٧٠؛ القيسي، المرجع نفسه، ص١٠١.

وحَكَمَ العراق شحنة آخر عُرف بظلمه الشديد وتعسفه وهو مسعود بلال[١]، الذي هرب من بغداد بعد وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٤م وفي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٦م وصل مسعود بلال إلى همذان مع بقية الأمراء المتحالفين معه لتحريض السلطان محمد على دخول بغداد فأذن لهم بالمسير دون مرافقتهم[٢]، فاندفعوا بأعداد كبيرة من القوات[٣]، وساقوا بين أيديهم التركمان وأهاليهم ومواشيهم[٤]. وعند وصولهم إلى مدينة شهربان نهبوا ممتلكات الناس وظلموا أهلها، مما أثار الرأي العام. مقابل ذلك عمل الخليفة المقتفي على تعبئة العوام وتهيئة جيشه لقتال مسعود بلال والأمراء يرافقه وزيره ابن هبيرة[٥]. والتقى الجيش عند بكمزا[٦]، واقتتلوا فانهزمت ميمنة جيش الخليفة حتى بلغت الهزيمة بغداد، ونُهبت خزائنه. وهنا اتضحت شجاعة الخليفة المقتفي وقدرته على تغيير مجرى الأحداث فقاتل بنفسه إلى جانب المقاتلين فرفع الطرحة عن رأسه ولبس الحديد وكبّر وصاح: **((يا آل مضر كذب الشيطان وفر))**[٧] وقرأ قوله تعالى ((وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً))[٨] وحمل باقي العسكر معه فانهزم الشحنة مسعود بلال وجميع مَن معه، وظفر جيش الخليفة بهم، وغنم عسكره

---

[١] **مسعود بلال:** تولى شحنة بغداد أثناء حكم السلطان مسعود في بغداد، وكان من الخدم الخصيان الحبشيين الكبار من أمراء دولته. وورد عن الحسيني بلفظ مسعود البلالي. الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤١.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٩٦.

[٣] الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٣ – ٢٤٥.

[٤] البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢١٧ – ٢٢١.

[٥] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٩٦؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٣٤ – ١٣٥.

[٦] **بكمزا:** منطقة بالقرب من بعقوبة على مسافة مرحلتين من بغداد، والمرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في يومين سيراً. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٤٠؛ البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٢٩.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٩٦؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٤٠؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٧/ ص٤٧.

[٨] سورة الأحزاب، آية ٢٥.

جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك[(١)]. وبيع كل كبش بدانق[(٢)] لكثرتها، وكانوا قد حضروا بنسائهم وأولادهم، وجميع مالهم فأخذ جميعه، وبعد ذلك أمر الخليفة قواته بإعادة ما أُخذ من أولاد السلاجقة ونسائهم[(٣)].

وقد وصل مسعود بلال وأتباعه إلى واسط بعد هزيمتهم فسيّر إليهم الخليفة جيشاً بقيادة الوزير ابن هبيرة فهزمهم[(٤)]. وقد وصف العماد الأصفهاني ذلك بقوله: **((ووقف بعد الهزيمة مسعود في قلبه ثابتاً قلبه، راجياً أن يثوب إليه حزبه، فهبَّ إليه ابن هبيرة فهبرهُ))**[(٥)].

ويمكن القول أن عبث وفساد الشحنة مسعود بلال وأتباعه التركمان واستفزاز الأهالي في مدن العراق ولاسيما بغداد أدّى إلى التفاف الرأي العام حول الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة ومساندة جيشهم في أثناء تعبئته ، مما أدّى إلى هزيمة الشحنة وأتباعه من الأمراء، ومن ثَمَّ تخليص العوام من ظلمهم.

ثانياً: الفساد الإداري لكبار الموظفين.

لعب الفساد الإداري والمالي لكبار الموظفين في العراق دوراً رئيساً في إثارة الرأي العام للسلطة والعوام، مما ترك أثراً في اختلال القيم الاجتماعية والاقتصادية.

ومن مظاهر هذا الفساد: الرشوة، والتزوير، والاحتيال، والسرقة من أموال الدولة، مستغلين بذلك مناصبهم الرفيعة في السلطة.

ففي سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م، أُشيع في بغداد أن داراً لضرب الدراهم أُسست في الخفاء، صدر عنها آلاف الدراهم المزيّفة، فأمر الخليفة المقتدي بأمر الله بمعاقبة المزورين، فأُلقي القبض على جماعة من أعيان بغداد ووجهائها كانوا متورطين في

---

(١) العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٤٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٩٧؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٣٥.

(٢) **دانق:** يساوي $\frac{1}{6}$ درهم. ينظر: هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٤٦.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٩٧؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٦.

(٤) الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٣٥؛ الدهش، الوزير العباسي يحيى بن هبيرة، ص٨٨.

(٥) تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٤٠.

هذه العملية. منهم نجم الدين حيدر بن الأيسر وكيل الديوان وابن الأخضر التي قُطعت يده بسبب توليه مهمة نقش السكة المزورة[١].

وينقل لنا ابن الجوزي صورة من طمع صاحب المخزن ابن طلحة[٢]، الذي تمرّغ في وحل الرشوة والابتزاز. ففي سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م كثرت الشكايات من عمال دور الضرب بسبب خسارتهم، فأمر الخليفة التحقق من ذلك، فتبيّن أن ابن طلحة كان يأخذ من العمّال كل شهر سبعين ديناراً، فثبت ذلك عليه، فأمر المسترشد بمعاقبته وإعفائه من منصبه: ((**فانكسر صاحب المخزن بذلك كسرة عظيمة ... فصار صاحب المخزن يجلس ساعة في المخزن بعد أن كان فيه معظم النهار ...**))[٣].

وفي سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م استغلّ ابن الهاروني المسؤول عن المكوس في عهد الخليفة المسترشد بالله الصراع بين الخليفة الراشد والسلطان مسعود فبالغ في فرض المكوس والمواصير واستحصل على أموال كثيرة، إذ أخذ كميات كبيرة من هذه الأموال وخبأها لصالحه. وكان لتصرفات ابن الهاروني هذه أثر كبير في استنكار الرأي العام في العراق فكثرت الشكايات إلى الخليفة الراشد، الذي أمر بمحاسبته، فأُلقي القبض عليه وقُتل وصُلب على خشبة قصيرة، وسُلّم إلى العوام فمثّلوا بجثته[٤].

وقد ظهرت لابن الهاروني بعد قتله من الأموال والآثاث وأواني الذهب والفضة الشيء الكثير، إذ قامت السلطة بمصادرتها ووصل إلى الخليفة من ماله مائتا ألف

---

[١] مجهول، الحوادث الجامعة، ص٤٠٧؛ الجزراوي، بغداد، بعض الغريب والطريف، ص١٤٦.

[٢] **ابن طلحة:** هو كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن علي بن طلحة الرازي ثم البغدادي، وُلي منصب حاجب الباب ثم المخزن وكان قريباً من الخليفة المسترشد بالله، وبنى مدرسة في جانب داره سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م وسُميت المدرسة الكمالية. توفّي سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م. ينظر: ابن حمدون، التذكرة (مخطوطة)، ج١٢/ ورقة ١٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٥٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٨/ ص١٩٤ – ١٩٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٤٥.

[٣] المنتظم، ج١٧/ ص٢٦٩.

[٤] المصدر نفسه، ج١٧/ ص٣٠٧.

دينار، وكانت له ودائع عند القضاة والتجّار[١]، جمع أغلبها عن طريق ابتزاز الأهالي من ذوي الدخل المحدود الذين يعانون من ضنك العيش.

وبلغ الفساد الإداري في بغداد أن صار أمر العباد بيد ابن البلنكري[٢]، وهو خاص السلطان مسعود، ويشغل منصب مختص الحضرة (المكاس)، وكان يبالغ في أذى الناس في ابتزاز أموالهم وفرض المكوس متى شاء وإسقاطها متى أراد. مما أثار استياء العوام ببغداد. وكان ابن البلنكري يصف قسوته وتعسفه على أهل العراق بقوله: ((**أنا قد فرشت حصيراً في جهنم**))[٣]. إلى أن مرض ومات في سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م[٤] فتخلّص من شرّه العباد.

وقد أشار ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م إلى مسألة تفشّي الرشوة وابتزاز الناس عند موظفي الدولة ومنهم حاجب الباب[٥] أبي الفتح بن الصيقل الهاشمي الذي اتُّهم بابتزاز الأهالي، فكثرت شكاواهم إلى الخليفة المقتفي بالله، فأمر بالقبض عليه، وأحضر أهل الشكوى وحاسبوه على ما أخذ منهم وطُرد من منصبه وأُخرج بعدها إلى بيته[٦] جزاءً على ظلمه وابتزازه لأهل بغداد من الداخلين إلى دار الخلافة.

وفي السنةِ ذاتها أشار ابن الجوزي إلى ظلم وتعسف عامل نهر الملك أحمد بن محمد الحويزي[٧]، الذي كان يؤذي الناس ويعلق الرجال في السواد ويعذبهم حتى

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٠٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٥٧.

[٢] **ابن البلنكري:** هو خاص بك ابن البلنكري التركماني أتابك جيش السلطان مسعود. الذهبي، المصدر نفسه، ج٣٧/ ص٢٨.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٧٨؛ الذهبي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٥] **حاجب الباب:** ويُسمى بالبواب لمنعه الناس من الدخول. وهو حاجب باب دار الخلافة. المناوي، التعاريف، ص٢٦٨.

[٦] المنتظم، ج١٨/ ص١٠١.

[٧] **الحويزي:** هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سليمان العباسي. من أهل الحويزة في خوزستان. قدم إلى بغداد وتفقه بالنظامية واختصَّ بالديوان. وعلت منزلته. قُتل سنة ٥٥٠هـ/

يأخذ أموالهم، والعجب أنه كان يتصنّع الزهد حتى يرقى إلى مرتبة أعلى من هذه الوظيفة[١]. وقد عبّر الرأي العام عن سَخَطه من ظلم وابتزاز الحويزي بأن وثبَ عليه ثلاثة أشخاص ليلاً فضربوه بالسيوف إلى أن قتلوه[٢]. ولما جيىء به إلى بغداد ليُدفن ضرب الناس تابوته بالآجر، وأرادوا إحراقه لولا تدخّل الأستاذ دار[٣] فدُفن وخُفي قبره حتى لا تنبشه العوام[٤] وبعد مدة خسف قبره[٥]، فظهر من العوام من لعنه وسبّه[٦]، بسبب استغلال منصبه في تعذيب الناس وابتزاز أموالهم، وفساده الإداري.

وقد تطوّر اسلوب تعاطي الرشوة في اتجاهات رهيبة لتشمل القضاة أيضاً. ففي سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ضاق البغداديون ذرعاً بقاضيهم ابن المرخم[٧]، الذي قلّده الخليفة المقتفي القضاء سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م[٨]، وقد أُشيع عنه أنه لم يترك أياً من الخصومات التي تعرض عليه دون أن يستفيد منها برشوة. مما أغضب الرأي العام الذي عبّر عن تذمّره بالشكوى إلى الخليفة المستنجد بالله، إذ أمر وزيره ابن هبيرة إلى إلقاء القبض عليه في الساعات الأولى من توليه الوزارة، وتحت ضغط العامة من

١١٥٥م. ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨/ ص٧٩ – ٨٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١٥٥.

[١] المنتظم، ج١٨/ ص١٠٢.

[٢] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٧/ ص٣٨٨.

[٣] **الأستاذ دار**: ووظيفته تفقد أحوال الحاشية لدار الخلافة على اختلاف طوائفها وأنواع وظائفها وينظر في أمورهم، كما يتولى أمر الإنفاق على المأكل والمشرب. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٦٧.

[٤] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨/ ص٨١.

[٥] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١٥٥.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٠٢.

[٧] **ابن المرخم**: هو أبو الوفا يحيى بن سعيد بن مظفر البغدادي. اشتغل بالطب والنجوم، وعلا شأنه في عهد الخليفة المقتفي إذ ولاّه القضاء، وكان من سيئات المقتفي. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٨/ ص١٨٧؛ المقري، نفح الطيب، ج٢/ ص١٣٣.

[٨] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٤٨.

البغداديين استصفيت أمواله وضرب ابنه فأقرَّ بأموال كثيرة للناس أُعيد أغلبها إلى مستحقيها، ثم أُودعَ السجن إلى أن مات[١].

وقد سخر الشاعر ابن الفضل[٢] من القاضي ابن المرخّم عند توليه القضاء وتعاطيه الرشوة، مشيراً إلى ظلمه وفساده بقوله[٣]:

يا حزينة الطمي الطمي	**قد وُلّي ابن المرخّم**
بدواته المفضضة	**ووكيله المكعسم**
وَي على الشرع والقضا	**وَي على كل مسلم**
أترى صاحب الشريعة	**قد جُنَّ أو عُمي**

وقد امتدَّ الفساد الإداري في بغداد إلى وظيفة الحسبة[٤] وهي المؤسسة التي يُفترض بها مراقبة السوق والحد من تجاوزات وفساد الباعة. ففي سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م قام المحتسب علاء الدين بن الزينبي بالتجاوز على الطحّانين، وأخذ منهم الأموال مما أثار حفيظتهم، فمضوا ومعهم الناس واستغاثوا شاكين إلى دار الخلافة، فأمر الخليفة المستنجد بإعفاء ابن الزينبي من وظيفة الحسبة[٥].

ومن الأمثلة على الفساد الإداري لأمراء الجيش ما جرى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، من الخلاف بين قائد الجيش قطب الدين قايماز بن عبد الله، والوزير محمد بن عبد

---

[١] النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٦؛ الدهش، الوزير العباسي يحيى بن هبيرة، ص٥٩.

[٢] **ابن الفضل:** هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن محمد القطّان، محدث وشاعر. توفّى سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٥٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٨/ ص٢٧٥ – ٢٧٧.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص١٥٧ – ١٥٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٦؛ المقري، نفح الطيب، ج٢/ ص١٣٥.

[٤] **الحسبة:** وظيفة دينية جليلة رفيعة الشأن، موضوعها التحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الخارج من الطريق لإصلاحه في معيشته وصناعته. والحسبة مشتقة من قولك ((حسبك أي بمعنى أكفف)) وهي من النظم الاقتصادية التي عرفها العرب المسلمون ووضعوا أسسها والمستلزمات الموضعية لتطبيقها. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤/ ص٣٨.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٤٨.

الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء (ت٥٧٣هـ/ ١١٧٧م) وقد تجاوز القائد قايماز على الخليفة المستضيء بأمر الله طالباً منه عزل وزيره وإخراجه من البلد. وحفظاً للنظام من الاضطراب وتطميناً للرعية عمد الخليفة إلى عزل الوزير[١].إلاّ أن قايماز عصى الخليفة عندما سيّر جيشه إلى منطقة الغراف، فنهبوا الناس، وبالغوا في أذاهم، وقتل بعضهم وأغرق آخرين، وكان يساعده في ظلمه علاء الدين تتامش بن قماج أخو زوجته[٢] (ت٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) مما أدّى إلى إثارة الرأي العام لأهالي الغرّاف الذين جاءوا شاكين إلى دار الخلافة، حتى أنهم منعوا خطيب جامع القصر من الخطبة كي يجلبوا انتباه الخليفة إلى شكواهم[٣]. وقد استمر قايماز وتتامش في ظلمهم، وقصدوا بعد ذلك دار صاحب المخزن ظهير الدين بن العطّار وأحرقوه، فلما علم الخليفة من تجاوز قائد الجيش وصهره على الرعية وموظفي الخلافة، صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وقال: **((مال قطب الدين لكم ودمه لي))**[٤] فقصد العوام كلهم دار قطب الدين قايماز، فهرب من داره من باب فتحه من ظهرها لكثرة مَن على بابه من الخلق[٥]، وخرج من بغداد ومعه صهره تتامش، ونُهبت داره ودور الأمراء الذين هربوا معه وأحرق بعضها، ونهبت أموالهم[٦]، ومات قايماز قبل وصوله

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٦١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٩/ ص٦٠.

[٢] النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٨.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢١٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٧٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٩/ ص٦١.

[٤] النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٨؛ شبر، خلفاء بني العباس، ص٢٩٢.

[٥] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩١؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٥١.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢١٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٧٢.

إلى الموصل سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م[١]. وبعد أن سكنت الفتنة أُعيد الوزير ابن رئيس الرؤساء إلى عمله[٢].

يتبين لنا من سير الأحداث أن قايماز قد استغل موقعه قائداً للجيش، وفضّل مصلحته الشخصية على المصلحة العامة للدولة، فتطاول على الخلافة والرعية، متناسياً غضب الرأي العام المتمثل بثورة العوام واستياء الخليفة، إذ اجتمعا للقصاص منه، وقد ولّى هارباً بعد نهب أمواله وحرق ممتلكاته، جزاءً لفساده الإداري وظلمه. وقد وصف أحد الشعراء نتيجة تصرفات قطب الدين قايماز وصهره ونتائجها ببعض الأبيات الشعرية[٣].

إن كنت معتبراً بملكٍ زائلٍ	**وحوادث عنقية الإدلاجِ**
فدع العجائب والتواريخ الأولى	**وانظر إلى قيماز وابن قماجِ**
عطف الزمان عليهما فسقاهما	**من كأسه صرفاً بغير مزاجِ**
فتبدلوا بعد القصور وظلّها	**ونعيمها بمهامةٍ وفجاجِ**
فليحذر الباقون من أمثالها	**نكبات دهرٍ خائنٍ مزعاجِ**

يبدو أن الخليفة الناصر لدين الله كان شديداً في محاسبة المفسدين إذ أشار الأيوبي (ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) في حوادث سنة ٥٨٣هـ/ ١١٧٧م أن عامل نهر الملك أبو الحسن بن الضحّاك قام بإكراه الفلاحين على العمل سخرة، مما ولّد تذمراً في صفوف المزارعين، ولاسيما الذين سكنوا منطقة نهر الملك، ولما علم الخليفة بذلك عاقبه بقطع يده[٤]، جزاءً على فساده في استغلال جهود الفئات المنتجة من الفلاحين.

---

[١] النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٨؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٢١١؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٢٢٦.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢١٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٩/ ص٦٢؛ ابن الوردي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج٢/ ص٥٢.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٧٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٨.

[٤] مضمار الحقائق، ص١١٥.

يمكن أن نستنتج مما سبق أن الفساد الإداري والمالي في العصر العباسي المتأخر لم يقتصر على مؤسسة دون أخرى، إذ شمل بعض أمراء الجيش وقادته، والحجاب، والقضاة، والمحتسبين، وصاحب الخزانة، وغيرهم من موظفي الدولة، مما سبب تذمراً للرأي العام الذي قام بدوره بمحاسبة المفسدين وبطرق شتى، فمنهم من أُعفي من منصبه ومنهم مَن سُجن، وبعضهم قُتل، وهي نتيجة حتمية لما فعله المفسدون من التجاوز على شرف المهنة الوظيفية، وظلمهم للرعية، على حساب مصالحهم الشخصية.

الفصل الثالث

المبحث الأول: الموقف من الزعامات المحلية والقبائل البدوية.

حافظت الكثير من القبائل العربية التي استوطنت العراق في مراحل زمنية متعاقبة على عاداتها وتقاليدها، فلم تستقر في المدن أو تمتهن الزراعة في السواد، إنما انتشرت بحثا عن الماء والكلأ في الجزيرة بين النهرين، وفي السواد نزولاً إلى البصرة[١].

توزعت هذه القبائل على أراضي السواد والجزيرة، واستقرت فيها حتى صارت مع مرور الزمن موطناً ثابتاً لها، على أن الظروف السياسية وعلاقات الجوار المضطربة بين القبائل قد فرضت على القبيلة الهجرة من موطنها إلى موطن آخر ، كما حدث لبني خفاجة عندما هربوا أمام قبيلة عبادة سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م إلى نواحي البصرة وتركت القبيلة موطنها بين الكوفة والحلة لتستقر فيه قبيلة عبادة[٢].

وقد سبق أن ذكرنا أهم القبائل التي سكنت مناطق العراق وعاصرت الخلافة في عصر السيطرة السلجوقية، وطبيعة النظام القبلي وعلاقتها بالخلافة[٣].

شهدت مدن وقرى العراق سلسلة من أعمال التخريب والفساد والنهب والسلب على أيدي القبائل البدوية والزعامات المحلية لهذه القبائل كالإمارة المزيدية[٤]، التي اتخذت الحلة مقراً لها كلما أحسوا بضعف السلطة المركزية، وشكلت هذه

---

[١] القزاز ، الحياة السياسية في العراق، ص١٩٣.

[٢] ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٠١ – ١٠٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٦٧.

[٣] ينظر: ص ٣٨ فما بعد من هذه الدراسة.

[٤] **الإمارة المزيدية:** ينتسب المزيديون إلى مزيد بن مرثد بن الديّان، وهم من بني أسد بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار، من العرب العدنانية، وكان لبني أسد بطون عديدة أشهرها (بنو دودان) التي ينتمي إليها المزيديون ومنازلهم في الجزيرة العربية في بعض مواضع نجد، وقد هاجر بنو مزيد واستقروا في الكوفة وأطرافها قبل سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م، ويعد علي بن مزيد (ت٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) المؤسس الحقيقي للإمارة المزيدية، وقد أدت الإمارة دورا كبيرا في التصدي للبويهيين ومن بعدهم السلاجقة، إلى أن خضعت لسلطة الخلافة سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م. ينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج١١/ ص٢٤٤؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٦٥ – ٤٦٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج١/ ص٢٤٤؛ ابن وهاس، العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك (مخطوطة)، ورقة ٥١٧؛ ابن أبي عذيبة، تاريخ دول الأعيان (مخطوطة)، ج٤/ ورقة ٣٠٩؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ج١/ ص٢١؛ ناجي، الإمارة المزيدية، ص٥٢؛ محمد، المقاومة العربية، ص٥٨ – ٨٣.

التجاوزات وسيلة لإعاقة تقدم الخلافة وتخريب كيانها الاقتصادي بسبب اعتداءاتها على الأمن، وقطع طرق المواصلات. وكانت المدن والقرى القريبة من منازلهم تعيش حالة فزع وخوف من هجماتهم وغزواتهم. بيد أن للرأي العام المتمثل بسلطة الدولة والأهالي أثر كبير في القصاص من المعتدين والحد من هذهِ الانتهاكات. ففي سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وبعد وفاة السلطان طغرل بك طمع مسلم بن عقيل[١] وهو زعيم الإمارة العقيلية[٢] في الاستيلاء على بغداد فدخلها وسيطر على دار المملكة[٣]، وحاصر دار الخلافة ثم نهبها، وفرض الضرائب على أهلها، ونهب مَن امتنع من ذلك، كما نهب المواشي، وانتشرت معه الأعراب في سواد بغداد وما حولها، وقطعوا الطرقات وأخذوا ثياب الناس، واستاقوا من عقرقوف من الجواميس ما قيمته ألوف الدنانير[٤]. مما أدّى إلى انزعاج الناس وتذمّرهم، فعبّر الرأي العام عن نفسه باتجاهين، فمنهم مَن حمل السلاح لقتال الأعراب[٥]، ومنهم مَن تجمع أمام دار الخلافة ، مستغيثين من عمليات النهب التي قام بها مسلم بن عقيل. ولتهدئة الرأي

---

[١] **مسلم بن عقيل:** هو أبو المكارم شرف الدولة مسلم بن عقيل بن بدران صاحب الموصل والجزيرة وحلب. خطب له على منابر بغداد والشام. توفّى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. ينظر: أبو شامة، الروضتين، ج١/ ص٩٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص١١٩.

[٢] **الإمارة العقيلية:** ينتسب العقيليون إلى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وهم من العرب العدنانية، وكانت تسكن البحرين، وقد نزحوا منها بعد خلافهم مع بني تغلب وبني سليم وساروا إلى العراق وملكوا البلاد الفراتية وتغلبوا على الموصل، ومنهم المقلّد الأكبر وأتباعه من بني عقيل الذين حكموا الموصل بعد الحمدانيين سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، ويعد الأمير محمد بن المسيّب بن رافع بن المقلد العقيلي المؤسس الأول لأمارة بني عقيل، ولهم مواقف بطولية في التصدي للبويهيين والسلاجقة. وبعد سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م سقطت الأمارة بيد السلاجقة. ينظر: السمعاني، أنساب العرب، ص٣٦٥؛ السويدي، سبائك الذهب، ص٤٤؛ المعاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل، ص٣٠ – ٣١؛ محمد، المقاومة العربية، ص٨٤.

[٣] **دار المملكة:** هي القصور البويهية التي أدخلها السلاجقة إلى دار سلطنتهم عند دخولهم بغداد. ينظر: جواد وسوسة، دليل خارطة بغداد، ص١٥٢.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٦٢؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٥٧٨.

[٥] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٦٢.

العام أمر الخليفة القائم بخروج العسكر لمقاومة ابن عقيل، فلما علم الأخير بذلك بعث يعتذر ويقول: ((**أنا الخادم**))[(١)].

اتّخذ الرأي العام تجاه عمليات النهب وسيلتين الأولى المقاومة المسلحة المباشرة ضد الأعراب، والثانية الاستغاثة بالخليفة العباسي والشكوى عنده من الأمير مسلم بن عقيل، وقد استطاعوا بذلك حماية أنفسهم وممتلكاتهم من عمليات التخريب.

وفي سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م قام بنو خفاجة بالتعرض للحجاج مستغلين وفاة السلطان ملكشاه، وبُعد العسكر فهجموا عليهم حين خرجوا من الكوفة، فأوقعوا بهم وقتلوا أكثر الجند الذين معهم، وانهزم الباقون منهم ونهبوا الحجاج، وقصدوا الكوفة فدخلوها، فأغاروا عليها وقتلوا من أهلها[(٢)]. مما أثار غضب الأهالي الذين لم يبقَ أمامهم سوى التصدي لهم فرموهم بالنشّاب، فخرجوا بعد أن نهبوا ثياب مَن لقوه من الرجال والنساء، وعندما وصل الخبر إلى بغداد، أمر الخليفة المقتدي بأمر الله إرسال العساكر من بغداد قتال بني خفاجة، الذين انهزموا فأدركهم العسكر وأهالي الكوفة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، ونُهبت أموالهم[(٣)].

إن اندحار خفاجة ووقوع النهب والقتل فيهم ما هو إلاّ نتيجة حتمية لالتفاف الرأي العام لأهل الكوفة الغاضبين من عمليات السلب والقتل مع سلطة الدولة المكلّفة بحماية أرواح المسلمين وممتلكاتهم.

وبعد أربع سنوات وفي سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م عاد بنو خفاجة وأغاروا على مدينة كربلاء، وقصدوا مشهد الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) وأظهروا الفساد والمنكر، مما أثار استياء الناس في المدينة لتجاوزهم على مقدساتهم الدينية. وعندما

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٨٢ – ٨٣.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٣٢٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١٣٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٨٥ – ٤٨٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣/ ص٢٧؛ سير أعلام النبلاء، الجزء نفسه والصفحة؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٣٩؛ البراقي، تاريخ الكوفة، ص٤٢٨.

علم صدقة بن منصور[١]، وجّه إليهم جيشاً وحاصرهم في المشهد، وقتل منهم أعداداً كثيرة، حتى إن أحدهم ألقى بنفسه وفرسه من أعلى السور، من شدّة الخوف والفزع الذي خلّفه جيش صدقة، وفرَّ مَن نجا منهم[٢].

ويبدو أن دبيس بن صدقة، ليس كوالده الذي كان يحفظ الذمام ويدافع عن المقدسات الدينية، إذ عُرف عن دبيس إنه كان ينهب القرى ويزعج البلاد[٣].

ففي سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م قام بكسر المنابر الموجودة في مشاهد الأئمة عليهم السلام في النجف وكربلاء وقال: **((لا تُقام ها هنا جمعة ولا يُخطب لأحد))**[٤] وذلك لإزعاج الخليفة المسترشد بالله الذي كان على خلاف مستمر معه.

كما شهدت سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م أعمال جديدة من الفساد والنهب في أثناء صراع السلطانين محمود ومسعود، فاستغل ذلك دبيس بن صدقة وحاول إزعاج عاصمة الخلافة بغداد كي يضعف موقف السلطان محمود فعاث بمدن السواد، إذ نهب نهر عيسى ونهر الملك[٥]، فخرج أهلها مذعورون إلى بغداد، ثم ذهب إلى بعقوبة، وفرض عليها الحصار إلى أن أخذها عنوة واعتدى على الناس وأحرق

---

[١] **صدقة بن منصور:** هو سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد، أبو الحسن الأسدي، ملك العرب. كان كريماً، ذا ذمام عفيفاً، وكانت داره في بغداد حرم للخائفين، ولما خرج سرخاب الحاجب عن طاعة السلطان محمد سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م التجأ إليه فأجاره، ولم يسلمه فحاربه السلطان محمد فقتله. ينظر: النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٨٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٤٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦/ ص١٧١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٧٠.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٦؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٥٢.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٠٣؛ ابن وهاس، العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك (مخطوطة)، ورقة ٤٦ب.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص١٧٤.

[٥] ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٧/ ص٣٤٧٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٨٢؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٢٥.

الغلاّت، ووصل إلى حد إنه ضرب سرادقه إزاء دار الخلافة وهددها[١]. وقد سمع دبيس أصوات أهل باب الأزج يسبونه فقبض على جماعة منهم وضربهم بباب النوبى[٢].

إن انتهاكات دبيس لأهل القرى والمدن في العراق قد أثارت الرأي العام لاسيما وأنه قد عاد إلى إشاعة الفوضى والتخريب سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بإغارة أصحابه على نهر الملك ونهب أكثر من مائة ألف رأس من المواشي[٣].

وقد كثرت الشكايات للخليفة المسترشد الذي لم يستطع الصبر أكثر مما صبر على استمرار تردي هذه الأوضاع. ونتيجة لإهمال السلاجقة في الحفاظ على أرواح الناس وممتلكاتهم قرر الخليفة الخروج لتأديب دبيس معتمداً على العوام أولاً ومفيداً من تأييد الرأي العام له في تذمّره من دبيس وأعوانه، وعلى ما تجمع لديه من قوات أمراء الأطراف الذين سبق استدعاؤهم[٤]: **((وأمر ... فنودي ببغداد لا يتخلّف من الأجناد أحد، ومَن أحبَّ الجندية من العامة فليحضر، فجاء خلق كثير ففرّق فيهم الأموال والسلاح))**[٥]. وقد أرعبت هذه الاستعدادات دبيس فحاول استجداء الرضا من الخليفة، لكن المسترشد كان قد صمّم على المضي لقتاله، وخرج بخيامه ونادى أهل بغداد: **((النفير النفير، الغزاة الغزاة، وكثر الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة))**[٦].

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٩٢ – ١٩٣؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٧/ ص٣٤٧٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٨٥.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٠١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٨٣.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، المصدر نفسه، ج٣٥/ ص٩٣.

[٤] النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٤٦؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٣٩.

[٥] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢١٩.

[٦] المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٧/ ص٣٤٨٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٤٦؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٣٩.

وكان دبيس قد استصحب معه البغايا والمخانيث بالملاهي والزمور والدفوف يحرضون العسكر، يقابله جيش الخليفة الملتزم بالتسبيح والتكبير والدعاء والبكاء[1]. وأخيراً دارت المعركة بين دبيس وجيش الخليفة الذي قاد المعركة بنفسه، وانتهى النزال بهزيمة دبيس وجيشه في موقعة النيل، وعاد الخليفة إلى بغداد مكللاً بالنصر في بداية سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م[2]. أما دبيس فقد انتهى به المطاف لاجئاً إلى طغرل بن السلطان محمد[3].

ومن خلال هذا العمل العسكري الذي قاده بنفسه، تمكن الخليفة من كسب الرأي العام إلى جانبه لاسيما في العاصمة العباسية التي تذمّر أهلها كثيراً من أعمال دبيس التخريبية فالتفَّ الناس حوله وشاركوه في المعركة مشاركة فعّالة. وقد أشار ابن العمراني إلى ذلك بقوله: ((**خرج مع الخليفة من بغداد نحو من ثلاثين ألف شاب بعضهم بالسلاح، وبعضهم رماة البندق وبعضهم بأيديهم المقاليع**))[4]. وهذا يعكس عمق تجاوب الرأي العام في بغداد مع الخليفة المسترشد بالله، وحب الناس له، على الرغم من المبالغة في الرقم الذي أورده ابن العمراني.

وبعد فرار دبيس والتجائه إلى طغرل بن محمد بن ملكشاه قام في سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م بتحريض وإغراء من دبيس للاستيلاء على العراق وطلب السلطنة، فاستجاب طغرل لذلك، فسار الإثنان على رأس جيش كبير إلى بغداد لقتال الخليفة المسترشد، وكان سبب مسيرة دبيس بن صدقة لحرب الخليفة لما بينهما من نزاع

---

[1] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢١٦؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٧/ ص٣٤٨٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٩٩٠.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٢٠؛ ابن العديم، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٣٩؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٣٠.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٢٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٤٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٩١؛ حسن مقاومة الخلافة العباسية، ص١٤٣.

[4] ينظر: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢١٥.

وخـلاف، بينمـا كـان هـدف طغـرل هـو انتـزاع لقـب السـلطان مـن أخيـه محمـود بـن محمد[١].

وعنـدما توجهـا نحـو العـراق كـان الخليفـة قـد أكمـل اسـتعداداته فـي جمـع الجـيش وتوزيـع السـلاح علـيهم. وكانـت خطـة دبـيس أن يهـاجم بغـداد لـيلاً ويقطـع الجسـر بالنهروان ويحفظ المعابر ليشتغل طغرل بنهب بغداد[٢]. وقد وصل الخبر إلى بغداد بمجـيء دبـيس فـانزعج النـاس، ولبسـوا السـلاح وبقـوا يحرسـون الليـل والنهـار، والتجـأ النساء والمشايخ إلى المساجد يتضرعون بالدعاء والاستغاثة إلى الله تعالى[٣].

وبعـد أيـام التقـى الطرفـان قـرب النهـروان، وفجـأةً مـرض طغـرل ولـم يشـارك فـي الحرب ضد الخليفة وانسحب إلى خراسان، وتقابل جيش الخليفة مع جيش دبيس، إلاّ أن الأخيـر طلـب العفـو، وقبّل الأرض بـين يـدي الخليفـة، ممـا جعـل المسترشـد بـالله يصفح عنه[٤].

يتبين من الأحداث السـابقة التفـاف الـرأي العـام حـول الخليفـة المسترشـد بـالله، من خلال مشاركة العوام للدفاع عن بغداد في أثناء غياب الخليفة، والدعاء له بالنصر. فضلاً عن مشاركة عدد كبير منهم في المعركة.

إن العفـو عـن دبـيس فـي رأي أحـد البـاحثين يـدل علـى حـرص الخليفـة بالتمسـك بـالقيم العربيـة الإسـلامية ، بتطبيق مقولـة العفـو عنـد المقـدرة عندما أصبح في قبضته طالباً الصفح عنـه، في حين أن الأهداف السياسية والعسكرية كانت تستدعي عكس ذلك[٥]. لأنـه ترك دبيسا يتحين الفرص لمحاربته وإضعاف سلطته من خـلال تحالفه مع السلاجقة وقيامه بأعمال التخريب والنهب التي لم تتوقف.

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٢٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٢؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٢٢٩.

[٢] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٩٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٢٢.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٢٩.

[٤] ابـن الأثيـر، الكامـل، ج٩/ ص٢٣٣؛ اليـافعي، مـرآة الجنـان، ج٣/ ص٢٢٣؛ ابـن خلـدون، العبر، ج٣/ ص٦٢٢.

[٥] حسن، مقاومة الخلافة العباسية، ص١٤٦.

فقد شهدت سنة ٥٢٣هـ/ ١١٢٨م عمليات سلب ونهب، وذلك أن دبيساً قد دخل الحلة وأخذها عنوة، فقام بجمع الأموال وبيع غلاّت الفلاحين، وفرض الضرائب على القرى[١]. مما أثار الرأي العام المتمثل بالسلطان محمود والخليفة المسترشد بالله، والأهالي. وفي محاولة لكسب ود السلطان والخليفة عمد دبيس بإرسال الهدايا الثمينة والأموال إلى السلطان محمود بعد قدومه بغداد حتى يرضى عنه ويصالحه مع الخليفة، إلاّ أن السلطان لم يجبه إلى ذلك، فاستمر دبيس في أعماله التخريبية إذ قصد البصرة ونهبها وأخذ أموالاً كثيرة، فقام السلطان بإرسال عشرة آلاف فارس لمحاربته وردعه لما قام به من انتهاكات، فلما علم دبيس هرب من البصرة إلى البريّة[٢].

يمكن القول أن من أسباب ضعف الخلافة ،تأثير الأعمال التخريبية والتحركات المستمرة التي قام بها دبيس بن صدقة وما لحق من دمار لمدن العراق وقراه، وتحالفاته المتكررة مع السلاجقة ضد الخليفة. وقد اعترف السلطان مسعود بدور دبيس في حدوث الشقاق بينه وبين الخليفة عندما قدّمه للمسترشد بالله الذي كان قد سقط أسيراً في يده سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م قائلاً: **((يا أمير المؤمنين هذا هو السبب الموجب لما جرى بيننا، فإذا زال السبب زال الخلاف))**[٣]. ويرى ابن الأثير أن السلاجقة أبقوا على دبيس ليجعلوه عدّة لمقاومة المسترشد، فلما قُتل المسترشد

---

[١] ابن العديم، بغية الطلب، ج٧/ ص٣٤٨١؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٥٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٢٩.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٥٣ – ٢٥٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٤٩ – ٢٥٠؛ ابن العديم، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٣٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٠٧.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه ، ج١٧/ ص٢٩٨.

تخلصوا من دبيس[١]، وقتلوه ولم ينفعه تحالفه مع السلطان مسعود في حربه ضد الخليفة[٢].

استمرت تعديات الأعراب على قوافل الحجاج، فضلاً عن تجاوز الزعامات المحلية على أرواح وممتلكات الأهالي في مختلف مناطق العراق. ففي سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م خرج الحجاج العراقيون من مكة بعد انتهاء مناسك الحج فسمع أمير الحاج قايماز[٣]، الذي كان صغير السن، أن العرب (زعب) ومن انضم إليها اجتمعوا للتعرّض للحجاج، لذلك طلب من الحجاج عدم الذهاب إلى المدينة أو دفع مبلغ من المال إلى الأعراب تخلصاً من شرورهم، فرفض الحجاج طلبه، مما اضطره إلى المسير متخذاً طريقاً مغايراً فاعترضهم الأعراب، وبعد قتالهم رأى قايماز عدم قدرته على تحقيق النصر، فطلب الأمان لنفسه، وظفر العرب بالحجاج، فنهبوا أموالهم وجميع ما معهم، وهربوا يمشون على أقدامهم بالبريّة، فماتوا من الجوع والعطش والعُري، وقيل أن النساء طينت أجسامهم بالطين لستر أنفسهن، ووصل قايماز إلى المدينة بنفر قليل منهم[٤].

كان لهذه الحادثة أثر كبير في استياء الرأي العام في العراق فتضرع الناس إلى الله بالقصاص من الأعراب الذين تعرضوا لقافلتهم فاستجاب الله تعالى لحجاج بيته الحرام بالقصاص من **(زعب)** فأذلّهم بنقص أموالهم وأعدادهم، وأكّد ذلك ابن الأثير عندما التقى أحد شباب زعب سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م بالمدينة المنورة بقوله: **((سمعت**

---

[١] الكامل، ج٩/ ص٢٨٥.

[٢] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٩٩؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٧٨؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٣٩؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٢٥٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٩٠.

[٣] **قايماز:** هو قايماز الأرجواني أمير الحاج،وقد تولى هذا المنصب بعد أمير الحاج نظر. توفّى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م عندما وقع من فرسه وهو يلعب الصولجان. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٤٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٤٢.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٧٧ – ٧٨؛ ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٩/ ص٣٦٥؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٢٣؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٤٩؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٨٤.

أنك من زعب فنفرت وخفت شرّك فقال: لِمَ؟ فقلت بسبب أخذكم الحاج، فقال لي انا لم أدرك ذلك الوقت، وكيف رأيت الله صنع بنا، والله ما أفلحنا ولا نجحنا، قلَّ العدد، وطمع العدو فينا))[1].

وفي سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م وصل ركب الحجاج العراقيين إلى المدينة المنورة فوصل الخبر أن الأعراب قد اجتمعت على الطريق يرصدون الحجاج ليأخذوهم، فقرر أمير الحاج قايماز بتغيير مسلكه وسلك طريق آخر وهو طريق خيبر وكان فيه مشقة لبعده، إلاّ إنهم نجحوا في التخلّص من الأعراب[2].

وفي أثناء حكم الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠م) أرادت الخلافة كسب القبائل التي صار لها نفوذ وسطوة ومنها خفاجة التي خصصت لها رسوماً من الطعام والسمن مقابل حماية سواد الحلة، فأصبح السواد تحت سيطرتها. وقد ساءت هذه العلاقة سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م بسبب عدم دفع خفاجة ضريبة العشر للخلافة[3]. وعندما طالبوا برسومهم من الطعام والتمور وغير ذلك منعها عنهم أمير الحاج أرغش[4]، ووافقه على منعه الأمير قيصر[5] شحنة الحلة، فقامت خفاجة بنهب سواد الكوفة والحلة، فسار إليهم الأمير قيصر بمائتين وخمسين فارساً، وخرج أرغش في عسكر وسلاح فانسحبت خفاجة، وأرسلوا يعتذرون بقولهم:

---

[1] الكامل، ج٩/ ص٣٦٥.

[2] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٢٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٢٦؛ الأرحيم، أخبار الحجاج المسلمين، ص١٣٧.

[3] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص١٤٨.

[4] **أرغش**: ويطلق عليه أيضاً برغش. وهو أحد مملوكي الخليفة المستنجد بالله في بغداد. أقطعت له ولاية الكوفة بعد الأمير قايماز من قبل السلطان محمد السلجوقي سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م وكان أحد أمراء الحج في البلاد. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٥١.

[5] **قيصر**: أحد مملوكي السلطان محمد بن محمود. تولى منصب شحنة الحلة للمدة من ٥٥٢ – ٥٥٦هـ/ ١١٥٧ – ١١٦١م. وأقطعت له مدينة الحلة سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م ولم تذكر المصادر التاريخية اسمه الكامل. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٤٨؛ الخزاعي، الحلة في العصر العباسي، ص٢٧.

((قنعنا بلبن الأبل وخبز الشعير، وأنتم تمنعونا رسومنا))[١] وطالبوا بالصلح ولم يستجاب لهم، فتجمعوا ولحق بهم الكثير من العرب وهاجموا العسكر، وقتلوا أعداداً كثيرة منهم وأسرت جماعة أخرى وقتل الأمير قيصر صاحب الحلة وجرح أرغش صاحب الكوفة. ومَن نجا من العسكر مات عطشاً في البرية، وكانت النساء من خفاجة يخرجن بالماء يسقين الجرحى، فإذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه[٢].

وعندما وصل خبرهم إلى بغداد ضجَّ الناس بالبكاء والنوح على القتلى ، معلنين تذمّرهم لما حصل من قتل وتخريب. وعلى أثر ذلك جهّز الوزير ابن هبيرة جيشاً وخرج في طلب بني خفاجة الذين هربوا إلى البر وأرسلوا إلى الوزير يعتذرون بما أصابهم من ظلم بقولهم: **((بُغيَ علينا، وفارقنا البلاد، فتبعونا، واضطررنا إلى القتال))**[٣]، وقد سألوا العفو عنهم فأجابهم الوزير وأصطلح معهم[٤].

وفي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م زاد الاضطراب وكثر الفساد بالحلة من قبل أمراء بني أسد، فأمر المستنجد بالله بإعداد جيش قوي للقضاء عليهم بما أحلّوه في الأرجاء من فوضى وفساد، وبسبب مساعدتهم للسلطان محمد بن محمود السلجوقي عندما حاصر بغداد، فأمر يزدن بن قماج بقتالهم وإجلائهم عن البلاد وكانوا مسيطرين على منطقة البطائح[٥]. فلم يقدر عليهم فتوجّه إليهم مع جمع من العساكر وأرسل إلى معلى بن معروف **(زعيم المنتفق)** وهو في البصرة فجاء إلى المنطقة وسدوا مجاري

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٤٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٤٦.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٤٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٥١.

[٣] ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٤] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٤٤؛ الخفاجي، بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والإداري، ص٧٤؛ الدهش، الوزير العباسي يحيى بن هبيرة، ص٧٥.

[٥] **البطائح:** منطقة تعرضت لغمر المياه بشكل منتظم، تقع في القسم الأسفل من الفرات بين الكوفة وواسط شمالاً والبصرة جنوباً وهي جمع لكلمة بطيحة. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج١/ ص٤٥٠؛ محسن، إمارة البطائح، دراسة في أحوالها السياسية والفكرية، ص٢٤.

الأنهار عنهم، فاستسلموا، وقتل منهم أربعة آلاف شخص وتفرقوا في البلاد ولم يبقَ منهم أحد بالعراق وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف[١].

يتبين لنا من خلال تجاوزات بني أسد أن إثارتهم للفتن والاضطرابات ، وقيامهم بعمليات التخريب والنهب، ومحاولتهم إضعاف الخلافة، أثارت الرأي العام في عموم العراق، الأمر الذي دفع الخليفة المستنجد للقضاء عليهم وإجلائهم عن الحلة.

وقد عاود بنو خفاجة التعرض لقوافل الحجاج سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م عندما وصلوا إلى العراق سالمين فخرجوا عليهم في طريق الحلة، وأخذوا أموالهم وقتلوا جماعة منهم. وقد خرج الجيش لمطاردتهم فأسر بعضاً من أفراد خفاجة وصُلبوا على الأسوار[٢].

كانت الخلافة تضطر أمام هذه الاعتداءات إلى إرسال الجيوش لمطاردة هذه القبائل وإنزال العقاب بها أولاً، ولكسب الرأي العام الساخط على هذه القبائل المعتدية ثانياً، فأرسلت جيشاً سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م لتأديب بني خفاجة الذين رحلوا إلى البادية ولم يدركهم الجيش[٣].

إن الأضرار التي لحقت في أرواح الأهالي وممتلكاتهم على يد أفراد قبيلة خفاجة لا تقل عن أضرار بني أسد، فقد عاشت المدن والقرى القريبة من منازلهم في فزع وخوف من هجماتهم وغزواتهم، وقد وصف ذلك الرحّالة ابن جبير عندما زار مدينة الكوفة سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م التي تعرضت للخراب على أيديهم بقوله: **((... وهي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى عليها الخراب على أكثرها فالغامر أكثر من العامر، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها))**[٤].

---

[١] الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٤٩ – ٢٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٦٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٨/ ص٣٦؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٦٦؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٤٦.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٧٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٥٤؛ الإرحيم، أخبار الحجاج المسلمين، ص١٣٧.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص٢٢٣.

[٤] رحلة ابن جبير، ص١٦٨؛ وينظر: البراقي، تاريخ الكوفة، ص١٢٨.

تعرضت مدينة البصرة لهجمات القبائل المجاورة لها، ففي سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م أغار بنو عامر على المدينة بقيادة أميرهم **(عميرة)** فخرج إليهم نائب مقطعها الأمير محمد بن إسماعيل فيمن معه من الجند، فوقعت الحرب ودام القتال إلى آخر النهار، ولمّا جنَّ الليل قامت الأعراب بثلم السور ونقبوا فيه عدّة مداخل ودخلوا المدينة، فقاتلهم أهل المدينة وقتلت أعداد كثيرة من الطرفين، ونهب العرب الخانات بالشاطئ وبعض محال البصرة، ثم فارقوها لقتال خفاجة والمنتفق، فانتصر بنو عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق[١].

وإزاء هذا التمادي في عمليات القتل والتخريب والنهب تذمّر الناس، فاجتمع أهالي البصرة والسواد ولبسوا السلاح وانضموا إلى الأمير محمد بن إسماعيل، ولما عاد بنو عامر في اليوم التالي قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم وقد تغلَب بنو عامر ودخلوا المدينة وعاثوا فيها فساداً ونهباً لمدة يومين بعد أن فارقها أهلها[٢].

وعلى الرغم من وقوف عامة الناس من أهل البصرة والسواد إلى جانب الأمير محمد لمقاتلة المعتدين، إلاّ إن بني عامر استطاعت الانتصار وذلك لتنظيمهم الكبير، ولكثرة أعداد مقاتليهم مقارنةً بأعداد أهل البصرة والسواد.

وأخيراً يمكن القول أن الرأي العام اتّخذ وسائل عدّة في الحد من عمليات القتل والتخريب والنهب الذي تقوم به الزعامات المحلية والقبائل البدوية، منها: أن العوام لبسوا السلاح، ودافعوا مباشرةً عن أرواحهم وممتلكاتهم من جهة، وعملوا على حث السلطة والوقوف إلى جانبها لمحاربتهم وردعهم من جهة أخرى. كما كان للوسائل السلمية أثر كبير في الحد من خطورتهم، وذلك بمنحهم امتيازات مادية ومعنوية، مقابل حمايتهم للمناطق التي يسكنونها.

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٢١٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٥٤.

[٢] ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٤/ ص٧٩؛ ابن خلدون، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

المبحث الثاني: العيارون.

العيارون، مفردها (عيار) وتعني المجيء والذهاب في الأرض وكثرة التطواف، وتطلق عند العرب في المدح والذم، فيقال غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار نشيط في طاعة الله عز وجل[١].

والعيارون جماعة وجدوا في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة/ التاسع الميلادي، وهي حركة شعبية تتألف من باعة الأسواق والفقراء من المتمردين على المجتمع والدولة من عامة الناس، ثم انضم إليهم أفراد من مختلف فئات المجتمع على الرغم من اختلاف الطائفة أو النسب، وكان غرضهم إعادة توزيع الثروة[٢]. وعبّرت عن رأي العامة في الأحداث السياسية، والاجتماعية متخذة خطاً يتميّز بالثورة على السلطة وأصحاب الأموال ولاسيما التجّار منهم[٣].

ومن العوامل الرئيسة التي ساعدت على ظهور حركة العيارين ونشاطهم هو التفاوت الكبير بين طبقة الخاصة والعامة من الناحية الاقتصادية[٤]، وسوء توزيع الثروات بين أفراد المجتمع، ولاسيما في ظروف غياب سلطة الدولة وانهيار هيبتها[٥].

وظهر العيارون على شكل جماعات لها تنظيم عسكري في أيام حصار بغداد سنة ١٩٧هـ/ ٨١٢م في أثناء الحرب بين الأمين والمأمون، إذ تدخلوا لنصرة الأمين

---

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، ج٣/ ص١٠٤؛ ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، ج٢/ ص٢٣٥؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٤/ ص٦٢٣؛ الزبيدي، تاج العروس، ج٣/ ص١٧٧.

(٢) ابن المعمار، الفتوة، ص١٥؛ فهد، تاريخ العراق، ص٣٩٣؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢١١.

(٣) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٧٢ – ٧٦؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي لأمر الله، ص١٠٣.

(٤) أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢١١.

(٥) الجزراوي، بغداد بعض الغريب والطريف، ص١٤٨.

بوصفه خليفة الأمة الشرعي[١]. وقد كان لكل عشرة منهم عريف، ولكل عشرة عرفاء نقيب، ولكل عشرة نقباء قائد، ولكل عشرة قوّاد أمير[٢].

وظهر تنظيمهم العسكري مرة ثانية عند اشتداد الصراع بين الخليفة المستعين (٢٤٨ – ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ – ٨٦٦م) والأتراك سنة (٢٥١هـ/ ٨٦٥م) وأبدوا صموداً رائعاً في الدفاع عن بغداد أمام الأتراك[٣].

وازداد نشاطهم في عصر السيطرة البويهية (٣٣٤ – ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ – ١٠٥٥م) إذ شكلوا جزءاً من حركة المقاومة الشعبية ضد البويهيين، وكان لهم أثر كبير في مهاجمة دورهم وممتلكاتهم[٤].

وكان للعيارين تقاليد وقواعد خلقية عرفت عن بعضهم، منها الرفق بالفقراء والضعفاء، والعفّة والصدق والأمانة، وعدم الاعتداء على النساء، والدفاع عن الشيوخ الطاعنين في السن والنساء، والصبر على الشدائد، وعدم الغدر، وتخصيص أصحاب الثراء بهجماتهم[٥].

وقد تناول بعض المؤرخين المعاصرين العيارين بالثلب، ونظروا إليهم باشمئزاز واحتقار[٦]، بينما رأى الدكتور الدوري فيهم ثواراً على الظلم الاجتماعي الذي عانى منه المجتمع البغدادي[٧]، وقد دافع بعضهم عن هذه الجماعات ووصف حركتهم بأنها وطنية ثورية تقدمية[٨].

---

[١] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨/ ص٤٢٩ – ٤٣٠.

[٢] فهد، العامة ببغداد، ص٢٩٠؛ رحمة الله، الحالة الاجتماعية في العراق، ص٥٥.

[٣] ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩/ ص٢٩٦ – ٣٠٩.

[٤] ينظر: السامرائي وآخرون، تاريخ الدولة العربية، ص١٦٧ – ١٧١.

[٥] ابن الجوزي، تلبيس ابليس، ص٣٦٧؛ أخبار الظراف والمتماجنين، ص٨٨؛ الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص٢٨٢ – ٢٨٥؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢١٢.

[٦] ينظر: الجزراوي، بغداد بعض الغريب والطريف، ص١٤٦ – ١٦٣.

[٧] مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٧٧.

[٨] ينظر: فهد، العامة ببغداد، ص٣٠٩.

ليس غريباً أن تظهر في أخلاق العيارين بعض صفات الرجولة والشهامة، فهم بشر قبل كل شيء، والإنسان لا يكون خيراً كله ولا شراً كله، بل فيه من هذا وذاك، لذلك فإن المبالغة في مدح العيارين لا تستند إلى أدلة كافية، والدليل على ذلك ما أورده ابن الجوزي في أخبار سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م أن العيارين أخذوا بغال السقائين وثياب القصارين[١]. وقد تكرر منهم ذلك سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م[٢]. وقد حاول بعض الباحثين نفي نسبة هذه التجاوزات إلى العيارين، ونسبها إلى اللصوص العاديين دون سند[٣]، وذلك بغية تأكيد ما ذهب إليه من تنزيه العيارين عن النقائص والدنايا.

ويمكن القول أن اللصوص بشر فيهم نوازع الخير والشر كما ينسب إلى العيارين، وإن اللصوصية لم تنتج دائماً عن طبيعة شريرة، بل إنها في أغلب الأحوال تنتج عن فساد أوضاع المجتمع، وتعرض فئات منه إلى الظلم.

ومع دخول السلاجقة بغداد تجمّد نشاط العيارين إلى حد ما، ولم نلحظ للمقاومة أي وجود يذكر، مما أفرغ حركتهم من محتواها الإنساني والوطني، وقد اقتصرت اعتداءات العيارين على أبناء الشعب المنهكين بسبب السيطرة السلجوقية، وإن الحادثة الوحيدة التي قام بها العيارون بالتصدي لعسكر السلاجقة هي التي حدثت سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م في أثناء حصار السلطان محمد لبغداد إذ قام أبو الحسين العيار مع جماعة من أصحابه بكبس طوالع العسكر[٤]. وقد ارتبط ظهور العيارين بقوة السلطة، فكانوا ينشطون كلما أحسوا بضعف السلطات مستغلين فقدان حالة الأمن.

إن لأعمال التخريب والنهب والقتل التي مارسها العيارون ضد الأهالي أثراً كبيراً في تذمّر الرأي العام في العراق لاسيما في مدينة بغداد. وكان للرأي العام المتمثل بسلطة الدولة والعوام وسائل عدّة للحد من تلك التجاوزات التي طالما أثّرت على حياتهم وممتلكاتهم. ففي سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م التجأ العيارون إلى التنظيم السري

---

[١] المنتظم، ج١٥/ ص٢٤٥.

[٢] المصدر نفسه، ج١٥/ ص٢٥٧.

[٣] ينظر: فهد، العامة ببغداد، ص٣٠٦ – ٣٠٧.

[٤] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١١٧؛ محمد، المقاومة العربية، ص٥٦.

وذلك عندما اتخذت جماعة منهم من مسجد في بغداد مقراً لها يتجمعون فيه وكان اسم رئيسهم **(ابن الرسولي الخبّاز)** التي وجدت عنده كتب ألّفها في الفتوة، وكان يساعد ابن الرسولي شخص اسمه **(عبد القادر الهاشمي البزاز)** وأخذ ابن الرسولي هذا بإرسال الكتب إلى جميع البلدان يدعوهم للانضمام إليه، ومن جملة مَن كتب إليهم والي المدينة التابع للدولة الفاطمية بمصر، وقد أحسَّ بعض الأهالي بهذا التنظيم فأنكروه وعظموا ما يكون منه، وما يتفرّع عنه، فذهبوا شاكين إلى الوزير عميد الدولة بن جهير، فأمر الأخير بالقبض على ابن الرسولي وصاحبه الهاشمي وبعض أتباعه، وفرَّ الباقون[١]. ويبدو أن هذه الحركة الجديدة لم يكتب لها الاستمرار في بث دعوتها وتوسيعها، لذلك عادت حركة العيارين بعد هذا التاريخ إلى ما كانت عليه. ففي سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م زاد أمر العيارين بالجانب الغربي من بغداد، ونهبوا الأهالي، ولم ينجُ منهم حتى قاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) فقد أخذوا من داره ثياباً ولم يردوها إلاّ بعد تعب[٢]. مما أدّى إلى تذمّر العوام، فاجتمعوا وذهبوا شاكين إلى دار الخلافة فتقدم الخليفة المستظهر بالله إلى الأمير كمال الدولة يمن بملاحقة العيارين وتهذيبهم فعبر الأمير وأخذ جماعة منهم فقتلهم، أما الباقون منهم فقد هربوا خوفاً من العقوبة[٣].

وتكاد أغلب حوادث العيارين وحركاتهم تقع في الجانب الغربي من بغداد، وذلك لوجود التجّار فيه، وليس معنى هذا أن الجانب الشرقي يخلو من الأغنياء أو أنهم لم يصابوا بأذى العيارين[٤]. ففي سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، سيطر العيارون على الجانب الغربي من بغداد بعد أن عجز الشحنة عن مقاومتهم فانسحبت الشرطة وتركت أهالي بغداد يعانون من أعمال التخريب والنهب على أيديهم، الأمر الذي دفع الأهالي إلى الاجتماع والذهاب إلى الديوان شاكين سوء حالهم وما جرى عليهم من أمر العيارين،

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢١١ – ٢١٢؛ فهد، العامة ببغداد، ص٣٠٠.

(٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٧٤؛ شبّر، خلفاء بني العباس، ص٣٧٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٩.

(٤) فهد، العامة ببغداد، ص٣٠٧ – ٣٠٨.

فقام الشحنة الذي عجز عن أمر العيارين الأقوياء، بإلقاء القبض على الضعفاء منهم وحرق بيوتهم، ولم ينقطع الشر إلاّ بعد تسلّم نقيب الهاشميين الأمر[1].

يتضح لنا من النص السابق أن استفحال أمر العيارين في الجانب الغربي من بغداد هو نتيجة الفراغ الأمني الذي حدث بعد انسحاب رجال الشرطة المكلفين بحماية هذه المحال تاركين الأهالي بيد العيارين، ولم يكن أمامهم سوى الشكوى ليعلنوا بها تذمرهم واستيائهم، فكانت نتيجة شكواهم أن قتل العيارون الضعفاء، وتوقف هجمات الأقوياء بعد تدخل النقيبين.

وفي سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م قام العيارون بحركة كبيرة استولوا فيها على الزوارق القادمة من الموصل، وامتدت أعمالهم بنهب أهل السواد مرّات عدّة، كما هجموا على دور الأغنياء في محلة العتابين فأخذوا ما فيها ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا ما وجدوا عند الباعة[2].

وإزاء هذا الاعتداء تذمّر الرأي العام، فعمل الخليفة على القصاص من العيارين، إذ أمر العسكر بقتالهم، فخرجوا وحاصروهم خمسة عشر يوماً إلى أن ركب العيارون في سفن وانحدروا إلى شارع دار الرقيق[3]، فدخلوا المحلة وقصدوا الصحاري، وقصد أعيانهم دار الوزير جلال الدين أبو علي بن صدقة بباب العامة وأظهروا التوبة، وخرج فريق منهم لقطع الطريق فقتلهم أهل السواد بأوانا وبعثوا رؤوسهم إلى بغداد[4].

إن تلك الأحداث أدّت إلى تأجيج الرأي العام في سبيل الحد من هجمات العيارين وإنزال القصاص بهم من خلال تعاون أهالي المدن والقرى مع سلطة الدولة، وكان من نتيجة ذلك أن تم محاصرتهم، حتى أخرجوا من بغداد طالبين العفو، وأما مَن تمادى منهم فكان مصيره القتل على أيدي الأهالي.

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٨٤؛ القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص٧٩.

(٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص١٨٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٨١.

(٣) **دار الرقيق:** محلة ببغداد في الجانب الغربي. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ص٤٢٠.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٨٥ – ١٨٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٨١ – ٢٨٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٨٦.

وفي سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م، ومارافقها من أحداث، ونتيجةً للفراغ الأمني والسياسي استعاد العيارون نشاطهم وازدادت فعالياتهم بشكل واسع، وذلك عندما اشتدت الأزمة بين الخليفة الراشد والسلطان مسعود[١]، ونتج عن ذلك تدهور في الأحوال الأمنية في العاصمة، فانبرى العيارون مستغلين الموقف ليهاجموا محلاّت التجّار والبزازين وطالبوهم بأن يدفعوا لهم الذهب، وهددوهم بالقتل إن لم يفعلوا ذلك[٢]. مما أدّى إلى تحريك الرأي العام من جديد، فقام شحنة بغداد بعد أن عجز عن ردعهم إلى اتخاذ إجراء أمني جديد للحد من فعالياتهم، وهو تعيين شحنة له في كل محلة من محال بغداد، وتتبّع العيارين إذ تم القبض على اثنين منهم كانا يقومان بنهب أموال الناس في الطرقات فتمَّ قتلهما وصلبهما[٣]. جزاءاً لفسادهما واعتدائهما على الناس.

وفي سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م اتسع نشاط العيارين، إذ قاموا بسلب ثياب الناس وقت السحر، ونهب سفينة محمّلة بأموال كثيرة كانت معدّة للانحدار إلى واسط[٤].

وفي السنة ذاتها استطاعوا كبس دور أحد التجّار وأخذوا أموالاً كثيرة متحدّين السلطة، إذ أفهموا صاحبة الدار بقولهم: **((لا تتهموا أحداً نحن الحماة بالموضع الفلاني))**[٥] فسمع الجيران ومضوا إلى الشحنة شاكين ما جرى على دار جيرانهم من نهب فتتبع الشحنة العيارين قابضاً على بعضهم فقتلهم وصلبهم على الجذوع بعد أن استردَّ الأموال التي نهبوها[٦].

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٩٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٢؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢/ ص٣٣.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٠٩؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ أبو الفدا، المختصر، ج٢/ ص٢١٧.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٣١٠.

[٤] المصدر نفسه، ج١٧/ ص٣٢١ – ٣٢٣.

[٥] المصدر نفسه، ج١٧/ ص٣٢٤.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٤.

وعلى الرغم من استفحال أمر العيارين وتحديهم لسلطة الدولة نتيجة لضعف الأمن، إلاّ أن الرأي العام لم يقف صامتاً أمام أخطارهم إذ سجّل جيران التاجر المسروق موقفاً يدل على عمق الروابط الاجتماعية بين أهل المحال، من خلال تبليغ السلطات بأعمال العيارين، غير مبالين بالنتائج المترتبة في حالة عدم القبض عليهم، وعودتهم لمعاقبة الجيران. وكان من نتائج تكاتف الأهالي أن قتلت وصلبت أعداد من العيارين المتجاوزين على ممتلكات وأرواح الناس.

استأنف العيارون نشاطهم سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م عندما شرع سلجوق شاه ابن السلطان محمد في الاستيلاء على بغداد وإسقاط خطبة مسعود، خرجَ إليه شحنة بغداد لإبعاده عنها، إذ استغل العيارون الموقف فثاروا ونهبوا الأموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون أرباب الأموال علناً عياناً ويأخذون منهم ما يريدون ويحملون الأمتعة على رؤوس الجمّالين[١]. مما سبّب انزعاج الناس، فلما عاد الشحنة قام بتتبعهم فقتل منهم الكثير وجاء بأحد عشرَ عياراً فصلبوا في الأسواق[٢].

وفي السنة ذاتها تصاعد نشاط العيارين إذ ظهر زعيمان لهما، وهما :**(أبن بكران وابن البزّاز)** وكثر أتباعهما، وصار أحدهما يركب كالأمير في ظل حماية جماعته العيارين، فخافهم الشريف أبو الكرم والي بغداد مما دفعه إلى أن يأمر ابن أخيه حامي باب الأزج بأن ينضم إلى ابن بكران ويلبس منه سراويل الفتوة لكي يأمن شرّه. وكان ابن بكران هذا كسابقيه من العيارين قد اتخذ له مقراً خارج بغداد يسمى **(السوادة)** وبلغ من أمره وأمر ابن البزاز أنهما أرادا ضرب سكة باسميهما في الأنبار[٣].

إن تصاعد نشاط العيارين في النهب والقتل، واستفحال أمرهم، قد خلّف تذمّراً واسعاً في الرأي العام ببغداد، إذ ضاقوا ذرعاً بما يفعله العيارون ليلاً ونهاراً، فتعالت

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٠٤.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٠٥.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٠٦؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٤؛ شبّر، خلفاء بني العباس، ص٣٤٨.

صيحاتهم بالشكوى إلى الوزير الزينبي[١]، وشحنة بغداد، ووصفوا حالهم، فقام الوزير ومعه الشحنة بتهديد الوالي بالقتل إن هو لم يقتل ابن بكران، لذلك استعمل الوالي الحيلة بوساطة ابن أخيه الذي أصبح صديقاً لابن بكران بعد أن انضم إليه. إذ كان ابن بكران يأوي إلى بيت ابن أخ الوالي ليلاً، فلما أخبر الوالي ابن أخيه بوجوب قتل ابن بكران قتله في إحدى الليالي، وكان قد بات ليلته التي قتل فيها على سكر، ثم بعد مدّة وجيزة ألقي القبض على رفيقه ابن البزاز فقتل وصلب مع جماعة من رفاقه[٢].

ويمكن القول أن تجاوزات العيارين في القتل والنهب بقيادة زعيميهم **(ابن بكران وابن البزّاز)** واستهزائهم بسلطة الدولة قد أثار سخط الرأي العام من أهالي بغداد، ومعهم رجال الأمن، الذين لم يسكتوا على ظلمهم، فتعالت صيحات الشكوى، إلى أن تم قتلهما: **((فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة))** على حد قول ابن الأثير[٣].

وعلى الرغم من الهدوء النسبي الذي هيأه قتل زعيمي العيارين، إلاّ أن نشاطهم عاد للظهور سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م إذ كثرت عمليات السطو التي قام بها العيارون الذين صاروا يأخذون الناس مجاهرة[٤].

وبمجيء السلطان مسعود سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م إلى بغداد ظهر تطور جديد في نشاطات حركة العيارين، التي كانت قد بلغت ذروتها ، وذلك بحصول تعاون بين بعض الأمراء السلاجقة وبينهم: **((فظهر من العيارين ما حيّر الناس وذاك أن كل**

---

[١] **الوزير الزينبي:** هو أبو القاسم شرف الدين علي بن طراد بن محمد بن علي الزينبي الهاشمي، ولد سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م، برع في سياسة الملك وتدبيره فولاّه المستظهر بالله نقابة النقباء، ثم استوزره الخليفة المسترشد بالله، وقيل أنه لم يؤزر للخلفاء العباسيين هاشمي غيره. ثم وزر للمقتفي واستقال سنة ٥٣٤هـ/ ١١٤٠م. توفّى سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢١٩.

[٢] ابن الاثير، الكامل، ج٩/ ص٣٠٦؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٤؛ شبّر، خلفاء بني العباس، ص٣٤٨.

[٣] الكامل، ج٩/ ص٣٠٦.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٤٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢١٢؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٥.

قوم منهم احتموا بأمير، فأخذوا الأموال وظهروا مكشوفين))[1] وقد كثرت عمليات السطو على دور الناس، والحمامات، حتى أنهم دخلوا يوماً على خان بسوق الثلاثاء في وضح النهار وطلبوا من التجّار الأموال وهددوهم بحرق الخان[2].

وإزاء تفاقم نشاط العيارين هذا عزل السلطان شحنة بغداد، وعيّن آخرا بدلاً عنه. إلاّ إن إجراءات الأخير باءت بالفشل لأن كل فصيلة من فصائلهم ارتبطت بأمير، فقد كان ابن وزير السلطان السلجوقي وأخ زوجة السلطان **(ابن قاروت)** يقاسمان العيارين ما يسلبونه من الناس[3].

ولما ازدادت عمليات النهب لبس الناس السلاح للدفاع عن حياتهم وممتلكاتهم بعد أن سمح السلطان مسعود للناس في تتبّع العيارين[4]. وفي الوقت نفسه صاروا يحتاطون إذ لا يظهرون من وقت المغرب[5].

وهذا دليل على أن حركة العيارين قد بلغت من القوة ما جعل السلطة السلجوقية غير قادرة فعلياً للحد من نشاطهم بحيث أمرت الناس بلبس السلاح والدفاع عن أنفسهم.

وفي ظل الحماية التي هيئتها الشخصيتان **(ابن وزير السلطان وأخو زوجته)** تزايد نشاط العيارين حتى دخلت سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م، وقدم السلطان مسعود مرّة أخرى فأسكن أصحابه في دور الناس، وتضاعف فساد العيارين بدخوله، وكثر نهبهم للناس والتجّار في وضح النهار، فاضطر الناس إلى نقل أمتعتهم وأموالهم إلى دار الخلافة وباب المراتب: **((وكان اللصوص يمشون بثياب التجّار في النهار فلا يعرفهم الإنسان حتى يأخذوه ... فضاقت المعايش))**[6]، وقد تمادى العيارون أكثر فنصبوا لهم عيوناً على الناس من النساء والرجال يطوفون الخانات والصيارف

---

[1] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص١٧؛ الذهبي، المصدر نفسه، ج٣٦/ ص٢٢٠.

[2] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص١٨.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٢٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٥.

[4] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٢٠.

[5] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٨.

[6] ابن الجوزي، ج١٨/ ص٣٠.

والجوهريين ويأتوهم بأخبار مَن يبيع ويشتري، وبعد كل عملية سطو يجتمعون في بيوت شركائهم الذين يحمونهم من الأمراء لاقتسام ما نهبوه من الأموال والممتلكات[١].

كانت لهذه الأحداث السيئة على أهالي المحلاّت أثر كبير في تذمر الرأي العام وسخطه، بعد أن علم الأهالي إن الذي يحميهم ابن وزير السلطان وأخو زوجته، وإنهما متعاونان معهم. فقام العوام بإغلاق باب الجامع، وكسروا منبر الخطيب، ويعد هذا إيذاناً بإعلان الثورة، وخرجوا إلى الشوارع بعد إغلاق دكاكينهم: **((وتلقوا السلطان في الميدان ومعهم ابن الكواز، فاستغاثوا إليه فلم يجبهم فعادوا مراراً وهو لا يلتفت))**[٢].

وعندما كثرت الاحتجاجات استدعى السلطان مسعود شحنة بغداد ايلدكز[٣] لمحاسبته عن تلكؤه في إحلال الأمن، فأفهم السلطان حقيقة الأمر بقوله: **((يا سلطان العالم إذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا إمرأتك، فأي قدرة لي على المفسدين))**[٤] فاضطر السلطان مع ضغط الرأي العام وتذمّره بإعطاء أوامره إلى الشحنة بإلقاء القبض عليهما وصلبهما، فقبض على **(ابن قاروت)** أخو زوجة السلطان فقُتل وصُلب على باب داره مع ثلاثة من أصحابه. أما ابن الوزير فقد هرب وقبض على مجموعة كبيرة من العيارين، بينما لاذ الآخرون بالفرار[٥].

وهكذا يتبين لنا من الأحداث السابقة أن الرأي العام لم يقف مكتوف الأيدي أمام انتهاكات العيارين وبعض الأمراء السلاجقة المساندين لهم، وإنما كان مؤثراً من

---

[١] المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٢٩.

[٢] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص٣١.

[٣] **ايلدكز:** هو شمس الدين ايلدكز المسعودي (مملوك السلطان مسعود) وهو مؤسس دولة اتابكة أذربيجان. ينظر: البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٤٢ – ٢٤٣؛ الحسيني، زبدة التواريخ، ص٢٣٩؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٩٨.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٢٩.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٣١؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٢٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٦٣٥.

خلال ثورة الأهالي على الوضع السيئ، واحتجاجهم على السلطان في إحلال الأمن مما اضطرّ الأخير إلى تهدئة الرأي العام وكسبه بإصدار أوامره بملاحقة العيارين المتعاونين معهم من أمراء السلاجقة وصلبهم ليكونوا عبرة للآخرين. وكان من نتيجة ذلك أن تم قتل من قبض عليهم، أما الباقون فقد هربوا خوفاً من العقوبة.

وبعد هذه الحادثة قل نشاط العيارين إلى حد ما، بسبب السياسة الصارمة التي انتهجتها سلطة الدولة ضدهم، ومثال ذلك ما حدث سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، أن بعض غلمان الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠م) حارب العيارين بالدجيل وقتل أعداداً كثيرة منهم وجاء برؤوسهم، كما أسر قائدهم[١]. وهذا دليل على استتباب الأمن وقوة السلطة الحاكمة في عهد الخليفة المستنجد بالله.

من خلال الأحداث السابقة يتبين لنا أن العيارين كانوا جماعات متعددة مختلفة الأعداد والإمكانات، وأن سطوتهم على الأغنياء كانت أمراً طبيعياً، إذ أن الفقراء لا يستحقون المغامرة، لكن على الرغم من ذلك تعرّض الفقراء لاعتداءات العيارين. وبدلاً من اتجاه حركتهم لرفع الظلم عن الآخرين وتغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية، كانوا يزرعون الظلم والخوف في نفوس العوام من الأغنياء والفقراء عن طريق النهب والقتل، دون إحداث أي تغيير في الأوضاع العامة الأمر الذي عمل على تذمّر الرأي العام وسخطه، إذ لم يصمت أمام اعتداءاتهم المتكررة متخذاً وسائل عدّة للحد من سطوة العيارين بعد وصف حالة الناس، وما جرى عليها من عمليات قتل ونهب الممتلكات، وكان من نتائج ذلك أن قتل الكثير من العيارين وصلب آخرون، مما أدّى إلى تحجيم نشاطهم.

---

[١] ابن الجوزي، المصدر نفسه ، ج١٨/ص١٨٢؛ الذهبي، المصدر نفسه ، ج٣٩/ ص١٢.

المبحث الثالث: الإسماعيلية (النزارية).

الإسماعيلية من الفرق الشيعية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي) بتأسيس الدولة الفاطمية (٢٩٦ – ٥٦٧هـ/ ٩٠٨ – ١١٧١م)[١]، واعتقدت بإمامة إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) ويسمون بالسبعية لاعتقادهم في سبعة أئمة آخرهم إسماعيل الذي اختفى في زمن أبيه، ويدّعون ظهوره في الوقت المناسب لإصلاح الدنيا وإنه هو القائم. وتعرف هذه الفرقة بـ (**الإسماعيلية الخالصة**)[٢] التي تواجدت في مصر وحلب[٣].

ومن فرق الإسماعيلية، فرقة أقرت بإمامة (**محمد بن إسماعيل**) بعد والده، وتعرف بالفرقة (**المباركية**) نسبةً إلى المبارك مولى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومنها تشعبت فرقة القرامطة فكانوا في غزنة وما وراء النهر[٤]. ولم تعترض الإسماعيلية المباركية على إمامة موسى الكاظم (ع) وقالوا إنه إمام مستودع[٥]، كالحسن بن علي بن أبي طالب (ع) الذي لم يستطع أن يورث الإمامة لأبنائه على الرغم من انه كان إماماً، على حين يرى الإسماعيلية أن إسماعيل هو إمام مستقر[٦]، يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه فهو والحالة هذه كالحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، ويرى بعضهم الآخر أن

---

[١] براون، تاريخ الأدب في إيران، ج٢/ ص٢٤١.

[٢] ينظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢١٣؛ الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٢٩ – ١٣٠؛ أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص٨٨.

[٣] حلمي، السلاجقة، ص١٦٨.

[٤] ينظر: النوبختي، فرق الشيعة، ص٧٢.

[٥] **الإمام المستودع:** هو الإمام الروحي، وعنده أسرار الإمامة، ولكنه لا يحق له نقل الإمامة إلى أولاده. ينظر: القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص٤١٠؛ لويس، أصول الإسماعيلية، ص١٢٦.

[٦] **الإمام المستقر:** هو الإمام الحقيقي ويتمتع بامتيازات الإمامة كلها وله الحق في أن يفوضها إلى أخلافه. ينظر: القاضي النعمان، المصدر نفسه والصفحة؛ العابدي، العلاقات البيزنطية الفاطمية، ص٢٤.

الإمام الصادق (ع) عهد إلى الإمام موسى الكاظم تقية حتى لا يتعرّض أبناء إسماعيل وهم الأئمة الحقيقيون للاضطهاد من قبل العباسيين[1].

وهناك فرقة أخرى أقرَّت بإمامة **(محمد بن إسماعيل)** وادّعت أن الإمام جعفر الصادق (ع) عهد بالإمامة إلى محمد مباشرةً[2]. وتسمى هذه الفرقة **(بالسبعية)** لأنه سابع الأئمة واحتجوا بأن السماوات سبع، والأرضين سبع، وأيام الأسبوع سبعة، فدلَّ على أن دور الأئمة يتم بسبعة[3].

وقد أطلق عليها جميعاً **(الباطنية)** نسبةً إلى الباطن وهو مقابل الظاهر، وانهم يعتقدون بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل[4]، كما أنهم زعموا أن جميع الأشياء التي فرضها الله تعالى على عباده وسنّها نبيّه (ص وآله) وأمر بها لها ظاهر وباطن[5]. وجعلوا الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب[6].

وبعد وفاة المستنصر الفاطمي[7]، تولى الخلافة ولده المستعلي بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧ – ٤٩٥هـ/ ١٠٩٤ – ١١٠١م) ولكن الابن الأكبر للمستنصر وهو المصطفى لدين الله المشهور بـ(نزار) ادعى أن والده أوصى له بالخلافة، فانقسمت الإسماعيلية

---

(١) حسن وشرف، عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، ص٣٢؛ العابدي، العلاقات البيزنطية الفاطمية، ص٢٤.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٧/ ص٢٥٦.

(٣) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٢٣.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢/ ص٢٩.

(٥) النوبختي، فرق الشيعة، ص٧٥.

(٦) أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص٨٩؛ حلمي، السلاجقة، ص٦٩.

(٧) **المستنصر الفاطمي:** هو أبو تميم معد بن أبي الحسن علي الظاهر لأعزاز دين الله العلوي، لقب بالمستنصر بالله. ولد بالقاهرة سنة ٤١٠هـ/ ١٠١٩م وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م على مصر والشام، وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة اشهر. توفّى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. ينظر: ابن حمّاد، أخبار ملوك بني عبيد، ص٧٠ – ٧١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٩٧ – ٤٩٨؛ غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص٢٣٣ – ٢٣٨.

نتيجة لذلك إلى نزارية ومستعلية، وسكنت النزارية في العراق والشام وخراسان، وسكنت الثانية مصر وبلاد المغرب(١).

استطاع أحد أتباع النزارية وهو الحسن الصباح(٢)، الذي أخذ يدعو إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله الفاطمي في بلاد فارس، والتفّ حوله الكثير من الأتباع والمؤيدين لمذهبه فزادت قوته واستطاع أن يستولي على قلعة آلموت(٣) سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٧م إذ اتخذها مقراً لدعوته، أو لدولته الفتية(٤). والداعية الأكبر هو ابن عطاش(٥).

ويمتاز جيش الإسماعيلية النزارية بالحماسة والاستعداد للتضحية بالنفس في سبيل حماية الدعوة، فكثر بينهم الفدائيون الذين استعانوا بهم في نشر دعوتهم، واغتيال أعدائهم من الخلفاء والسلاطين والقادة والأمراء، الذين كانوا يقفون في طريقهم.

ذكر برنارد لويس أن اتجاه الإسماعيلية النزارية إلى أسلوب الاغتيالات هو بسبب إدراكهم أنهم جماعة محدودة العدد مقارنةً بالمسلمين كافة، إذ ليس بإمكانهم أن يواجهوا

---

(١) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٦٢؛ سيد، الدولة الفاطمية، ص٢٢٠ – ٢٢٣.

(٢) **الحسن الصبَاح:** هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الإسماعيلي. ولد في مرو سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م. قيل إنه يماني الأصل من حمير، وتتلمذ على يد أحمد بن عطاش، فصار مقدم الإسماعيلية بأصفهان، أتقن علم الهندسة والحساب والنجوم. طاف البلاد فدخل مصر وطلب من المستنصر الفاطمي بعد إكرامه أن يدعو الناس إلى إمامته، فعاد إلى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر وما وراء النهر داعياً إلى إمامة المستنصر ومن بعده إلى ابنه الأكبر نزار. توفّي سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م. ينظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٣٩ – ١٤٠؛ ابن ميسر، المصدر نفسه، ص٤٧ – ٤٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢/ ص٣٣٣ – ٣٣٤.

(٣) **قلعة آلموت:** هي قلعة في جبل ايلبورز شرقي قزوين. وهي كلمة ديلمية مكونة من (آله آموت) وتعني المكان الذي أرشد عليه العقاب. ينظر: الحسيني، المصدر نفسه، ص١٣٩؛ براون، تاريخ الأدب في إيران، ج٢/ ص٢٥٠.

(٤) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٢٩ – ١٣٠.

(٥) **ابن عطاش:** هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش، كان في أول أمره طبيباً ثم أصبح مقدم الباطنية بقلعة أصفهان. وكان يدعو للباطنية في العراق. قتل سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٠١ – ١٠٢.

ويهزموا القوة المسلحة للدولة السلجوقية التي تتمتع بتفوق ساحق[1]. وقد خلّف عملهم هذا قلقاً في جميع أنحاء الدولة السلجوقية، فعاش الناس في خوف واضطراب يتوجسون خيفة من فدائيي النزارية[2]، الذين استهدفوا بعملياتهم اغتيال كل من يخالفهم في أفكارهم، ومنهم الإسماعيلية المستعلية التي تتمثل بالخلافة الفاطمية في مصر، إذ نجحت النزارية باغتيال الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م[3]، واغتيال الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله بن المستعلي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م[4]

ومقابل الاغتيالات التي قام بها الإسماعيلية، والمقاومة الشديدة التي كانوا يرفعون لواءها ضد الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، فقد رسمت سياسة واضحة وشديدة من قبل الخلافة والسلطنة لمقاومة الإسماعيلية ومحاربتها، كما هاجموا الباطنية ومؤلفاتها، باعتبارهم مخالفين لها في العقيدة والمذهب. ومن الأمثلة على ذلك قيام المؤلف عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الأسفرائيني (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) بتخصيص خمس وعشرين صفحة من كتابه **(الفرق بين الفرق)** لذكر الباطنية [5].

وقد تناول الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) حركة الإسماعيلية بالبحث في كتاب مستقل اسماه (فضائح الباطنية) ، ومثّل المؤلف وجهة نظر السلطة العباسية تجاه الحركة الإسماعيلية [6].

ومن الجدير بالإشارة أن الغزالي ألّف كتابه هذا للخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧ – ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ – ١١١٨م) وبتكليف منه شخصياً[7].

وكانت الخلافة العباسية تميّز في نظرتها ومعاملتها بين الشيعة الإمامية **(أصحاب المذهب الإثني عشري)** وبين الشيعة الإسماعيلية، فكانت تعامل الإمامية معاملة قوامها الاحترام والتقدير، وكانت تمنع التحدث عن العلويين بما لا يليق[1].

---

[1] الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، ص٢٣٥.

[2] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٦٦؛ حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص٧٤.

[3] ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣/ ص٦١.

[4] المصدر نفسه، ج٣/ ص١٢٩.

[5] ينظر: الفرق بين الفرق، ص٢١٣ – ٢٣٧.

[6] ينظر: فضائح الباطنية، ص١٨.

[7] المصدر نفسه، ص٣.

وقد نقل ابن الجوزي موقفاً للخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م بعد عودته من قتال دبيس ومطاردته إذ ثارت العامة ببغداد تأييداً للخليفة وهاجموا مشهد الإمام موسى بن جعفر في مقابر قريش ونهبوا ما فيه وقلعوا شبابيكه وأبوابه فشكا العلويون ذلك إلى الخليفة فأنكره وأرسل نظر الخادم إلى المشهد للقبض على الجناة وتأديبهم وإعادة ما أخذ منه[٢]. أما الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ – ١١٧٩م) فأنه عندما علم بأن الواعظ محمد الطوسي قد تحدّث في جامع المنصور مشيداً بابن ملجم من قتلهِ الإمام علي (عليه السلام). أمر بأن لا يجلس ثانيةً ولا يخرج من رباطه[٣].

كان بعض الخلفاء يزورون مشاهد الأئمة في المناسبات وينعمون على المجاورين فيها بالأموال. فالخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ – ٥٥٥هـ/ ١١٣٦ – ١١٦٠م) قام بزيارة قبر الإمام الحسين (عليه السلام) سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، بعد أن تخلّص من خطر السلاجقة[٤]، كما زار ضريح الإمام علي (عليه السلام)[٥].

اشتد العداء بين الخلافة والإسماعيلية بعد تمكن البساسيري سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، من السيطرة على بغداد فخطب للخليفة المستنصر الفاطمي وضرب الدنانير وسمّاها

---

[١] ينظر: ملحق رقم (٣) الخاص بشجرة النسب الإسماعيلية (خلفاء الدولة الفاطمية) والأئمة الإثني عشر.

[٢] المنتظم، ج١٧/ ص٢١٧.

[٣] المصدر نفسه، ج١٨/ ص٢٠٢.

[٤] الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٥١؛ تاريخ الإسلام، ج٣٨/ ص١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٣٨.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٢٥؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص١٦٩.

المستنصرية[١]. إلاّ أن السلطان طغرل بك استطاع في سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م قتل البساسيري وإعادة الخليفة القائم بأمر الله من عانة إلى بغداد[٢].

وقد أخذت الخلافة والسلطنة السلجوقية ومن ورائها الرأي العام في العراق مقاومة الفكر الباطني ورجالاته لإدراكها بأنها حركة سياسية وفكرية شكلت خطراً على السلطة العباسية ، فقد عبؤا إمكانياتهم وقدراتهم في محاربة هذا الخطر. ففي سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م وصلت شكوى إلى الوزير عميد الدولة بن جهير من قبل الأهالي حول قيام بعض العيارين واسمه ابن الرسولي الخبّاز بتنظيم سري لهم ومراسلة والي المدينة التابع للدولة الفاطمية بمصر للانضمام إليهم ومما جاء في الشكوى: **((... إن هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر، ويجعلون ذكر الفتوة عنواناً لجمع الكلمة على هذا الباطن))**[٣] فأمر الوزير بالقبض على ابن الرسولي ومساعدِهِ والتحقق من الكتب الصادرة عن التنظيم. فتبين لهم صحة المعلومات الواردة عن الشكوى، إذ وجدوا كتباً كثيرة قد صدرت بهذا المعنى، ومنها كتاب إلى والي المدينة التابع للدولة الفاطمية، فاستخلاه الوزير عميد الدولة وسأله عن الداخلين في هذا التنظيم فأجابه بذكر جميع الأسماء، فأمر بعد ذلك بالقبض على مَن وجد منهم، وهرب الباقون ونهبت دورهم، ثم أخذت فتاوى الفقهاء عليهم بوجوب كفّهم عن هذا الفساد[٤].

ويبدو أن خطورة التنظيم السري للعيارين هو بمراسلة ابن الرسولي لأعداء الخلافة الذي أثار سخط وتذمّر الرأي العام المتمثل بأهالي بغداد الذين ذهبوا شاكين إلى

---

[١] ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩/ ص٤٠٢؛ الراوندي، راحة الصدور، ص١٧٢؛ الذهبي، العبر، ج٣/ ص٢٢٣؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج١/ ص٣٥٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٨٧؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج١/ ص٣٤٠؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٣/ ص٥٦٣.

[٢] الراوندي، المصدر نفسه، ص١٧٥؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٣/ ص١٣٥٤؛ ابن الوردي، المصدر نفسه، ج١/ ص٣٥٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص١٣٢ – ١٣٣؛ العصامي، المصدر نفسه ، ج٣/ ص٥٧٠.

[٣] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢١٢.

[٤] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

الوزير، مما دفع السلطة إلى القبض على المتورطين ومحاسبة كل مَن ثبت اسمه في التنظيم.

وبسبب تفاقم المد الإسماعيلي، وقف السلاجقة موقفاً شديداً ضدّه لخشيتهم على سلطتهم وخاصة في العراق ، لاسيما وأنهم غرباء عنه . وكان الوزير نظام الملك من أشد حكام السلاجقة حرباً ومناهضةً للباطنية النزارية، إذ شنَّ عليهم حروباً عدّة وتمكن من محاصرة (الحسن الصباح) في قلعة آلموت سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، كما تمكن من غلق مسالك تلك القلعة بالعساكر[١]. لكن الإسماعيلية اتجهوا إلى مبدأ الاغتيال ليضعفوا أعداءهم فكلفوا بعض الفدائيين بقتل الوزير نظام الملك وهو في طريقه إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م حيث تقدم أحد رجالهم بصورة مستغيث وهو يرتدي ملابس الزهّاد، ولما اقترب منه الوزير طعنه بسكين وقتله[٢]. وقُتل القاتل في الحال بعد أن هرب فعثر بطنب خيمة فوقع[٣].

وقد أشار ابن الجوزي الى أن قتل نظام الملك كان بسبب إصدار أوامره بقتل أحد النجارين من النزارية الذي أتُهم بقتل مؤذن من أهل أصفهان وكانوا يقولون: ((**قتلتم منا نجاراً، وقتلنا به نظام الملك**))[٤].

وقد تأثر الرأي العام في بغداد بوفاة الوزير نظام الملك حيث حضر الناس بمختلف طبقاتهم للعزاء الذي دام ثلاثة أيام[٥]. وقد رثاه الشاعر شبل الدولة[٦]

---

[١] الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٣٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٢/ ص٢١.

[٢] ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٢٩؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٢٦؛ الراوندي، راحة الصدور، ص٢٠٩؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٩٥؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص٣٢٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٣٧٣.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٧٨؛ الذهبي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٤] المنتظم، ج١٧/ ص٦٣؛ براون، تاريخ الأدب في إيران، ج٢/ ص٢٣٢.

[٥] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦/ ص٣٠٦.

[٦] **شبل الدولة:** هو مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري الحجازي. ينحدر من قبيلة بكر الوائلي. خدم عند الوزير نظام الملك وتزوّج من ابنته. توفّى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م. ينظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٤٦؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١٩٢.

بقوله[1]:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها فردّها غيره منه إلى الصدف

إن المتصفح لسيرة الوزير نظام الملك وإنجازاته السياسية والإدارية في ضبطه لأمور الدولة [2]. كلها عوامل أدّت إلى كسب الرأي العام الإسلامي الذي ظهر واضحاً من خلال حضور الناس في بغداد بمختلف الطبقات للتعزية معبرين عن حزنهم لمقتله.

ومن الجدير بالإشارة أن علماء وفقهاء العراق قد حاربوا الإسماعيلية بمختلف فروعها، وعدّوها من فرق الغلاة الباطنية. ففضلاً عن تأليف الكتب ومهاجمة أفكار الباطنية عمل الفقهاء بوعظ السلاطين والأمراء الذين يشك انتسابهم للباطنية، وإصدار الفتاوى بالقتل على كل مَن يثبت أنه باطني. ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن الفقيه ابن عقيل[3]، لمّا بلّغه أن الباطنية النزارية أفسدوا عقيدة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) كتب له رسالة وعظ ، فلمّا قرأها السلطان ترك عقيدة الباطنية [4].

وفي سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م قدم رجل إلى العراق من أجل نشر مذهب الإسماعيلية، فأُبلغ عنه فشهد شاهدان كان قد دعاهما إلى الدخول في مذهبه، فأفتى الفقهاء بقتله ومنهم ابن عقيل الذي كان أشدّهم عليه فقتل على باب النوبى[5].

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٧٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٤١؛ الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢/ ص٥٩٢؛ ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١/ ص٤١٥.

[2] عن سيرته وإنجازاته. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣٠٢ – ٣٠٨.

[3] **ابن عقيل:** هو الفقيه أبو الوفا علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، شيخ الحنابلة في بغداد، ولد سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، وتوفّى سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٩٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٤٤٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٣٥ – ٤٠.

[4] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٣١٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٤٣.

[5] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٣٩؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٥٤.

يتبين لنا من خلال ما ذكرناه أن الرأي العام في العراق المتمثل بسلطة الدولة والفقهاء والعوام قد تعاونوا للوقوف ضد المد الباطني.

وفضلاً عن ذلك فقد وقف السلاطين السلاجقة موقفاً شديداً من الإسماعيلية النزارية ، وهو أمر طبيعي لأنهم يخشون على مصيرهم في العراق الذي شكل قاعدة لحكمهم. ففي سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م كثر أمر الباطنية في العراق، وقويت شوكتهم وشرعوا في قتل الأمراء والفتك بهم[١]. وخاصةً من هو في طاعة السلطان بركياروق بن ملكشاه (ت٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) في أثناء حربه مع أخيه، وصاروا يهددون بالقتل كل مَن لم ينضم إليهم: **((وانتهى الحال إلى أن الأمراء ما بقي منهم مَن يجسر أن يمشي حاسراً، إلاّ بدرع تحت ثيابه))**[٢]، حتى أن عسكر السلطان محمد بن ملكشاه (ت٥١١هـ/ ١١١٧م) كانوا يعيّرون جيش بركياروق بقولهم: **((يا باطنية))**[٣].

كان لهذه الأسباب أثر كبير في قيام السلطان بركياروق بقتل أعداد كثيرة من الباطنية بلغت ثلاثمائة ونيفاً[٤]، ولم يفلت منهم إلاّ مَن لم يُعرف[٥]. ووقع التتبع لأموال من قُتل، وكتب إلى الخليفة المستظهر بالله فتقدم بالقبض على كل مَن يظن انه باطني، ولم يتجاسر أحد أن يشفع في أحد لئلا يظن ميله إلى ذلك المذهب، وصار تتبع العوام لكل مَن أرادوا. وصار كل مَن في نفسه شيء من إنسان يرميه بهذا المذهب فيُقصد ويُنهب[٦].

ومن الذين اتُهموا بالباطنية النزارية الفقيه الكيا الهراسي[٧] المدرس بالمدرسة النظامية، فحُمل إلى موضع أفرد له، ووكل به جماعة، وذلك إنه كتب عنه السلطان

---

[١] الذهبي، العبر، ج٣/ ص٣٤٠؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١٥٦؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٤٠٠.

[٢] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٧٦.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٤، ٤٢؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٣١.

[٤] ابن الجوزي، تلبيس ابليس، ص١٢٨.

[٥] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٧٦.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٦٢ – ٦٣؛ تلبيس إبليس، ص١٢٨.

[٧] **الكيا الهراسي:** هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري الهراسي ويعرف بالكيا، ولد سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م من فقهاء الشافعية. توفّى سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م. ينظر: ابن الأثير، الكامل،

محمد بأنه باطني، وتم القبض عليه في محرم سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، وقد شهد الفقهاء على فضله وصحة اعتقاده وعلو درجته في العلم ومنهم أبو الوفا بن عقيل شيخ الحنابلة في بغداد، فأرسل الخليفة المستظهر بالله في تخليصه فاستُنقذ[١].

وقد أشار السبكي إلى سبب اتهام الكيا الهراسي بالباطنية وهو بريء من ذلك، أن صاحب قلعة آلموت الحسن الصباح النزاري كان يلقّب بالكيا أيضاً فوقع الاشتباه على ناقل الخبر[٢].

وهذا دليل على أن الرأي العام في العراق كان شديداً في التعامل مع الباطنية ورجالها بعد أن أخذت السلطة في مراقبة وتتبّع نشاطهم، حتى اتهم بعضهم الفقيه الكيا الهراسي باعتناق مذهب الإسماعيلية لمجرد أن اسمه يطابق اسم زعيم الباطنية في بلاد فارس.

وفي سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م قامت النزارية باغتيال فخر الملك[٣] بن نظام الملك وزير السلطان سنجر بن ملكشاه عند خروجه من داره في وقت العصر إذ رأى شاباً على باب داره يصيح متظلماً: ((**ذهب المسلمون فلم يبقَ مَن يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف**))[٤]، فسأله فخر الملك عمّا به وماذا يريد، فدفع إليه رقعة، فبينما هو يتأملها ويقرأها طعنه الشاب بسكين وقضى عليه، وقد حُمل القاتل إلى السلطان سنجر فقرره فأقرَّ على جماعة من أصحاب السلطان كذباً فأمر السلطان بقتله وقتل من ادعى

ج٩/ ص١٤٢؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٢٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢/ ص٥٤ – ٥٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٨.

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٧٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤/ ص٣٥؛ سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٣٥١؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٣٢.

[٢] طبقات الشافعية الكبرى، ج٧/ ص٢٣٣.

[٣] **فخر الملك:** هو أبو المظفر فخر الملك علي بن الوزير نظام الملك، وهو أكبر أولاده. وزر للسلطان بركياروق سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. فلما فارق وزارته قصد نيسابور وأقام عند سنجر بن ملكشاه ووزر له. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٠٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٦٩.

[٤] ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

عليهم بأنهم السبب في فعلته[١]. ومن هذا يتضح أن الوزير السلجوقي فخر الملك ذهب ضحية الإسماعيلية النزارية، كما ذهب أبوه نظام الملك ضحية أيضاً من قبل.

وفي السنة ذاتها بلغت قوة النزارية ذروتها، ووصلت إلى حد الخطورة[٢]، فأيقن السلطان محمد بن ملكشاه أن القضاء عليهم ينبغي أن يكون أهم عمل يقوم به، فأمر بمحاصرة قلعة شاه دز[٣] بأصفهان التي كانت معقل لأحمد بن عبد الملك بن عطاش مقدم النزارية، كما أمر بقتل وزيره سعد الملك الآبي[٤] لما أحسَّ إنه متواطئ مع النزارية. وأسند الوزارة إلى أحمد بن نظام الملك[٥]. وبعد حصار طويل للقلعة اضطر ابن عطاش تسليم نفسه هو وولده فأخذ وسلخ جلده فتجلّد حتى مات، وحُشي جلده تبناً وحمل رأسه مع رأس ولده إلى بغداد[٦]. أما زوجته فقد ألقت بنفسها من أعلى القلعة فهلكت[٧]. وأما القلعة فقد خربت بعد ذلك[٨].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٩٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٦٧.

[٢] حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص٩٩.

[٣] **شاه دز:** قلعة حصينة قرب أصفهان وتسمى أيضاً **(ذركوه)** بناها السلطان ملكشاه، ومعنى شاه دز **(قلعة الموت)**. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣/ ص٣١٦.

[٤] **سعد الملك الآبي:** هو سعد الملك أبو المحاسن سعد بن محمد الآبي. كان ديناً يتصف بحسن التدبير، وقد اعتقله السلطان محمد عندما علم انه إسماعيلي لما يقوم به سراً من دعم الباطنية، ثم صلب على بوابة أصفهان. وكانت مدة وزارته سنتين وتسعة أشهر. ينظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٧٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١١١.

[٥] **أحمد بن نظام الملك:** هو ضياء الملك أبو نصر أحمد بن نظام الملك تلقّى بعد تعيينه وزيراً لقب والده، قوام الدين نظام الملك صدر الإسلام. وزر للسلطان محمد والخليفة المسترشد بالله. توفّى سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩. ينظر: الحسيني، المصدر نفسه، ص١٧٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢٦.

[٦] ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص١٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٤١٠.

[٧] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٠٩؛ الذهبي، العبر، ج٣/ ص٣٥٦؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١٦٢.

[٨] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤/ ص٧٩؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٣.

وفي سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م سيّر السلطان محمد وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى قلعة آلموت لقتال الحسن الصباح ومَن معه من الإسماعيلية النزارية للحد من نفوذهم، فحاصر القلعة ولكنه اضطر للرحيل عنها عند حلول الشتاء[١].

وحاول النزارية في السنة نفسها الانتقام من هذا الوزير فبينما كان في طريقه إلى المسجد وثب عليه أحدهم فضربه بعنقه بسكين فجرح جرحاً بليغاً، وبقي مريضاً مدة ثم برأ[٢]. وأما الباطني فقد قُبض عليه وسقي الخمر حتى سكر، ثم سُئل عن أصحابه فأقرَّ على جماعة بمسجد المأمونية في بغداد، فقتلوا وقتل معهم[٣].

وفي شعبان سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وصلت كتب إلى دار الخلافة باستفحال أمر النزارية في بلاد الشام، ومنها أن قافلة قد وردت من دمشق إلى بغداد وفيها رجال قد انتدبوا لقتل أعيان الدولة مثل الوزير، وقد تم النظر في هذا الكتاب: ((**فقبض على جماعة منهم وصلب بعضهم في البلد، اثنان عند عقد المأمونية، واثنان بسوق الثلاثاء وواحد بعقد الجديد وغرق جماعة، ونودي أي مشتبه من الشاميين وجد ببغداد أخذ وقتل**))[٤] ومن جملة من قبض عليهم أبو أيوب قاضي عكبرا[٥]، ونهبت داره، وقيل إنه وجد عنده أعداد كثيرة من كتب الباطنية، وأخذ آخر كان يعينهم بالمال، كما قبض على رجل من الكرخ[٦].

يتبين لنا من خلال ما عرضناه أن الرأي العام في بغداد قد انتدب لملاحقة رجال الباطنية ومحاسبتهم من خلال قيام الشرطة ومعها العوام بالقبض على بعضهم ومعاقبتهم، ولم يكتفوا بهذا بل أخذ الأهالي ببغداد بتعقّب المشتبه بهم من الشاميين وقتلهم.

---

[١] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٨١؛ الصلابي، دولة السلاجقة، ص١٤٩.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٣٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص١٨.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١١٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٢٨١.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٢٢٥.

[٥] **عكبرا:** بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا. بينها وبين بغداد سبعة فراسخ. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص٤١٢.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٢٥.

وفي سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م تمكنت الإسماعيلية النزارية من قتل الأمير آقسنقر البرسقي[١] صاحب الموصل، حيث وثب عليه بضعة عشر نفراً في مسجد الموصل وهو يؤدي صلاة الجمعة فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاث وقُتل[٢].

كان لهذه الحادثة أثر كبير في تذمّر الرأي العام في الموصل لاسيما وأن الأمير آقسنقر كان محبوباً بين العامة لما يتمتع به من عدل وإحسان إلى الرعية، فما كان من العوام إلاّ أن قاموا بالبحث عن رجال الباطنية والاستقصاء عن أخبارهم، وتمكنوا من القبض على قائدهم في الموصل فأقرَّ بأن رجال النزارية وردوا من سنين لقتل الأمير آقسنقر فلم يتمكنوا منه إلى الآن، فقامت العامة: **((فقطعت يديه ورجليه وذكره ورُجم بالحجارة فمات))**[٣].

كان العامة يطلقون ألسنتهم بذم الباطنية، ويصفونهم بألقاب عديدة مثل: إباحيو المذهب[٤]، ومنكرو الدين[٥]، والضالون، وأعداء الإسلام والمسلمين[٦]، والملحدون[٧]، وهذا دليل على بغضهم للباطنية ورجالها.

ولم تكتفِ العامة بذلك بل اتهموا المتجاوزين على الخلافة والعوام من السلاجقة بالباطنية وأطلقوا ألسنتهم بذلك، ومنها إنه في سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، عندما أراد السلطان محمود بن محمد إخضاع الخليفة المسترشد بالله ونزل بعسكره في الجانب

---

(١) **آقسنقر البرسقي:** هو قسيم الدولة سيف الدين أبو سعيد آقسنقر البرسقي الغازي، وهو قائد سلجوقي، كان مملوكا للأمير برسق، حكم الموصل والرحبة، وكان خيراً يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله. ينظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ص١٩١ – ١٩٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩/ ص١٨٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٦١.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب، ج٤/ ص١٩٦٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٣٠٦؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢/ ص٢٨؛ الدمشقي، توضيح المشتبه، ج١/ ص٤٥٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٣٧.

(٤) ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، ج١/ ص٤٦٣.

(٥) الغزالي، فضائح الباطنية، ص٥١.

(٦) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢/ ص٢٢٢.

(٧) ينظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٧/ ص٢٥٩؛ شبّر، خلفاء بني العباس، ص٣٨٩.

الشرقي من بغداد، وقف العامة قبالهم في الجانب الغربي يسبّون الأتراك ويقولون: **((يا باطنية يا ملاحدة، عصيتم أمير المؤمنين فعقودكم باطلة وأنكحتكم فاسدة ...))**[١].

وعندما انتهك السلطان محمود وعسكره دار الخلافة ونهبوها في أول محرم سنة ٥٢١هـ ١١٢٧م[٢]، نالت العامة في بغداد من السلطان وجعلوا يقولون له: **((يا باطني لما لم تقدر على غزو الروم جئت تغزو الخليفة والمسلمين))**[٣].

استمر رجال الإسماعيلية النزارية في تنفيذ الاغتيالات بحق أعيان الدولة على أمل إنهاء الأمور لصالحهم. ففي سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م ساءت العلاقة بين السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه وبين الخليفة المسترشد بالله وتحاربا قرب همذان، ووقع الخليفة في أسر السلطان فاصطحبه إلى مراغة ووضعه في خيمة منفردة ممأتاح الفرصة لفدائيي الباطنية من (النزارية) لاغتياله إذ وثب عليه سبعة عشر رجلاً فقتلوه[٤]، وجرحوه ما يزيد على عشرين جرحاً، ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً، وقتل نفر من أصحابه، وبقي الخليفة حتى دفنه أهل مراغة[٥]. وقد قبض العسكر على الجناة فقتلوهم[٦]، وقيل انهم أُحرقوا[٧]، وقد أمر كيا بزرك أميد **(زعيم الباطنية بعد وفاة الحسن الصباح)** بإقامة الاحتفالات أسبوعاً ابتهاجاً بمقتل الخليفة المسترشد بالله[٨].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٣٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٣١١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٩٧.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٤٢؛ ابن كثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٤) الذهبي، العبر، ج٤/ ص٧٦؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٦.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٠؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢/ ص٣٨؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ٢٥٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٥/ ص٧١.

(٦) السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٦.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٩٩.

(٨) حلمي، السلاجقة، ص١٨٦.

وفي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م، أُغتيل الخليفة الراشد بالله أثناء محاولته الانتقام لأبيه المسترشد بالله من السلطان مسعود، حيث سار بعسكره ووصل إلى أصفهان، وقد وثب عليه نفر من النزارية وكانوا في خدمته على زي الخراسانية فقتلوه وهو يريد القيلولة، ودفن في شهرستان قرب أصفهان[١]. وتمكن أصحابه من قتل الجناة من الباطنية النزارية[٢].

أثار قتل الخليفة الراشد الرأي العام في أصفهان، وجعلهم يقتلون كل مَن يُشتبه في انتمائه إلى الباطنية النزارية[٣].

---

[١] العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٠١؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٦٠؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص٩٠؛ البكجري، مختصر تاريخ الخلفاء، ص١٥٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١٠١.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٠٥.

[٣] حلمي، السلاجقة، ص١٨٦.

استمرت عمليات الاغتيالات التي نفّذها النزارية ضد قادة المسلمين[1]، إذ عُدت هذه الاغتيالات من الأسلحة الرهيبة في نشر الرُعب في أرجاء المجتمع الإسلامي.

ومن الشخصيات القيادية التي تعرضت للقتل من قبل الإسماعيلية النزارية ، هو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة المستضيء بالله الذي كان قد عزم على الحج سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م[2]، فعبر دجلة ليسير، ومعه أرباب المناصب، وهو في موكب عظيم، فلما وصل باب قطفتا خرج رجل كهل فقال: **((يا مولانا أنا مظلوم))**[3] وتقرّب منه فزجره الغلمان، فقال الوزير دعوه فتقدم إليه فضربه بسكين بخاصرته فصاح الوزير قتلني ووقع من الدابة، وضرب الباطني بسيف وعاد إلى الوزير فضربه وأقبل حاجب الباب ابن المعوّج لينصر الوزير فضربه الباطني بسكين، وعاد وضرب الوزير[4]، ثم قُتل الباطني ورفيقه وكان لهما رفيق ثالث، فصاح وبيده السكين وقُتل ولم يفعل شيئاً، وأُحرقت أجساد الثلاثة، وحُمل الوزير إلى دار له هناك، وحُمل حاجب الباب مجروحاً إلى بيته، فمات هو والوزير[5].

كانت خاتمة حكم الإسماعيلية النزارية على يد المغول الذين اكتسحوا قلاعهم واحدة بعد الأخرى، مبتدئين بقلاعهم في أقليم قوهستان ومنتهين بقلعة ميمون دزة، وقلعة آلموت **(أشهر قلاعهم)** سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، بعد أن استسلم لهم آخر أئمتهم خورشاه بن علاء الدين محمد الثالث[6].

---

[1] ينظر مثلاً: ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/ ص٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٦٢، ٢١٥ – ٢١٦.

[2] اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٣٩٨.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٨٨.

[4] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص٧٦.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٨٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٠/ ص١٣٣؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٣٩٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٢٤٥.

[6] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٨/ ص٢٥٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١/ ص١٥٦؛ فهد، تاريخ العراق، ص٨٧ – ٨٨.

وأخيراً نستنتج أن ظهور الإسماعيلية النزارية كحركة دينية وسياسية ولجوئها إلى أسلوب الاغتيالات والعمليات الفدائية في تصفية أعدائها من القادة المسلمين قد أثارت الرأي العام من قبل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية والفقهاء والعوام من أهل العراق وبقية بلاد الإسلام، إذ اصطفوا جميعا للوقوف ضد الباطنية ورجالها. فمن جهة ألّفت الكتب لنشر فضائح الباطنية، ومن جهة أخرى أفتى الفقهاء بإباحة دم الباطنية، فضلاً عن تتبّع العوام ومراقبة كل مَن يُشتبه به من الإسماعيلية. وذلك للحد من عمليات الاغتيال التي لم تنتهي إلاّ بعد سقوطهم على يد المغول.

الفصل الرابع

المبحث الأول: الرأي العام تجاه الفقهاء.

عرف العراق في ظل السيطرة السلجوقية علماء جديرين بالاحترام لترفعّهم عن المطامع واحتقارهم المغريات المادية[١]، على الرغم من تقصيرهم في إدراك مشاكل الأمة، بيد أن هذا النوع من العلماء كانوا أقلية، في حين أن بعض العلماء كانوا متلوّنين يتهافتون على المناصب والمطامع. وفي ذلك يقول الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) أن علماء عصره قيدت الأطماع ألسنتهم فسكتوا: ((**وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم، فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا. ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه عليهم** ...))[٢]. واعترف الغزالي إنه كان يعمل كما يعمل غيره من العلماء في سبيل الحصول على المال والجاه والأبهة، وظلَّ هذا الشعور يعذبه إلى أن اقتنع ان الخلاص إنما يكون في طريق التصوف[٣].

وقد وصف أبو الوفا ابن عقيل كبير فقهاء الحنابلة (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) ظاهرة نفاق العلماء وتهافتهم على المال والمناصب، وكيف أنهم يتلوّنون بلون أرباب الحكم، وكيف أن بعضهم كان يتقرّب إلى الوزير ابن جهير برفع الأخبار إليه[٤].

اتفق الغزالي مع ابن عقيل في اتهام علماء ذلك العصر بالتهافت على المناصب والأموال والتقرب إلى الحكّام من أجل ذلك[٥]. وفي مقابل ذلك سجل بعض الفقهاء موقفا مهما تجاه الحكام وأصحاب المناصب ومنهم الفقيه الواعظ

---

[١] ينظر مثلاً: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٧، ٢١٩، ج١٨/ ص٨٣؛ ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، مج١، ص٢٤١.

[٢] ينظر: احياء علوم الدين، ج٢/ ص٣١٢.

[٣] المنقذ من الضلال، ص١٢٩؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص١٨٦.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٦ – ١٧.

[٥] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١/ ص١٩.

والإمام الزاهد أبو الحسن علي بن الحسن الصندلي الحنفي (ت٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، وذلك أن السلطان ملكشاه قال له مرة: **((لم لا تجيء إليَّ فقال: أردت أن تكون من خير الملوك حيث تزور العلماء ولا أكون من شر العلماء حيث أزور الملوك))**[١].

كان عدد الفقهاء كبيرا جداً الى درجة أن الغزالي تذمّر من كثرتهم وقال: **((إن البلد مشحون بالفقهاء ...))**[٢] في حين لم يكن هناك إقبال على علوم الطب والحساب لأنها لا تجلب المنافع التي كانت تجلبها العلوم الفقهية[٣].

ومن مظاهر كثرة عدد الفقهاء ما قاله ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م من أن السلطان محمد بن ملكشاه خرج من دار السلطنة يوماً فرأى حول الدار أربعمائة فقيه فأمر بكسوتهم جميعاً[٤].

عمل الخلفاء العباسيون على توثيق علاقتهم بالفقهاء والعلماء والزهّاد من مختلف المذاهب لما لهم من تأثير معنوي على الرأي العام، وذلك لتوحيد الجهود لمواجهة السلاجقة من جهة، وعلى اساس أنهم يشكلون سلاحاً فاعلاً بيد الخلافة من أجل كسب تأييدهم في تدابيرهم السياسية والدينية من جهة أخرى[٥].

وكان لسلوك الفقهاء وتصرفاتهم دور كبير في التأثير على الرأي العام، الذي كان ينظر لهم كقادة، ومن بين هؤلاء الفقيه عبد الملك الملقب بالشيخ الأجل[٦]، الذي لم يلقّب في عهده بهذا الاسم سواه، وكان أوحد زمانه في فعل المعروف، والقيام

---

[١] السيوطي، ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين (مخطوطة)، ورقة ١٦.

[٢] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١/ ص١٩.

[٣] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٤] المنتظم، ج١٧/ ص١٠٨.

[٥] للتفاصيل عن محاولات العباسيين للتقرب من الفقهاء. ينظر: فوزي، الخلفاء والفقهاء، ص٢٨ – ٣٩.

[٦] **الشيخ الأجل:** هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن يوسف الملقب بالشيخ الأجل. ولد سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م، وتوفّى سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧. ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٠/ ص٤٣٤؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٣٣٣.

بأمور العلم، ولجم أهل البدع، وافتقاد المستورين بالبر، ودوام الصدقة[١]، وكان إذا وصل أحداً وصله سراً، وحيث لا يراه أحد، وإذا شكره المعطي قال: ((**إنما أنا في هذه العطية وسيط وليست من مالي**))[٢]. وكان يعظّم من يقصده في حاجة أكثر من تعظيمه من لا يقصده في غير حاجة[٣].

ومن حسناته انه تسلّم المارستان العضدي وكان قد اندثر واستولى عليه الخراب، حيث لا يوجد فيه دواء ولا طبيب، فجدَّ في عمارته، وجعل فيه ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاثة من الخزّان إلى غير ذلك واشترى له الأملاك النفيسة[٤].

كان للصفات الحسنة والطيبة التي تحلّى بها الفقيه الشيخ الأجل الأثر الكبير في كسب الرأي العام. وتجسد ذلك بعد إعلان خبر وفاته سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م حيث توفّي في داره بباب المراتب، وما أن وصل الخبر إلى العوام حتى عطلت الأسواق في بغداد وخرج ما يقارب مائة ألف رجل سوى النساء لتشييعه[٥].

ونظراً لمكانة الفقهاء الرفيعة ، كانوا ينتدبون للسفارة إلى الملوك والحكّام في أوقات السلم والحرب وفي ظروف مختلفة، ومنهم الفقيه أبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) الذي أثّر في الرأي العام ونال محبة الناس واحترامهم حيث كان واحد عصره علماً وزهداً وعبادةً وسخاء[٦]. ومن صفاته أنه دائم البُشر، طلق الوجه، مليح المحاورة، يحكي الحكايات الحسنة، وينشد الأشعار المليحة[٧]. فكثر أتباعه من العوام ومالوا إليه ونرى ذلك حين أرسله الخليفة المقتدي بأمر الله سنة

---

[١] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٠/ ص٤٨٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٩٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٨٢.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٠٨.

[٣] المصدر نفسه، ج١٦/ ص١٠٩.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٨١.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٠٩؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٣٣٣.

[٦] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٣٢؛ الذهبي، العبر، ج٣/ ص٢٨٥؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج١/ ص٣٦٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦/ ص٤٢.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٢٩؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١١٩.

٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م وحمّله رسالة إلى السلطان ملكشاه ونظام الملك تتضمّن الشكوى من العميد أبي الفتح بن أبي الليث عميد العراق طالباً منه أن ينهي ما يجري على البلاد من النظّار، فسار إليه الشيرازي وبصحبته وفد من أعيان بغداد منهم أبو بكر الشاشي (ت٥٠٧هـ/ ١١١٣م) وفي الطريق كان يُستقبل بمنتهى الاحترام والتعظيم من جانب أهالي المدن التي يجتازها، فيخرج الرجال والنساء والأطفال مهللين مكبرين متمسحين بركابه، متدافعين تحت حوافر بغلته للحصول على حفنة تراب للبركة، وقد يحمل معه شيئاً من الخير والشفاعة[١]. ولما وصل ساوة[٢] خرج جميع أهلها وسأله فقهاؤها كل منهم أن يضيفونه في بيتهم فلم يفعل ولقيه أصحاب الحرف والصناعات، وكانوا يحملون معهم ما ينثرونه على محفة الشيرازي وصحبه تعبيراً عن طيبة مشاعرهم إزاءه، فبدأ الخبازون ينثرون الخبز وهو ينهاهم دون جدوى، تبعهم بعد ذلك أصحاب الفاكهة والحلواء، وأصناف أخرى من الحرفيين، إلى أن جاء دور الأساكفة (الحذائيين) يحملون معهم صناعاتهم من مئات الأحذية اللطيفة الصالحة للأطفال ونثروها فوق رؤوسهم بكامل حسن النية، فكانت تتساقط على رؤوس العامة أيضاً[٣].

وعند عودته إلى بغداد بقي الشيرازي يتذكر مدّة طويلة هذا التكريم الغريب من نوعه، متندراً بتفاصيله ويسأل أصحابه في كل مناسبة يرد فيها اسم ساوة عن حظّهم من هذا النثار **(يقصد نثار المدس)** وقيل أن بعضهم أجابه يوماً، ما كان حظ سيدنا فقال: ((**أما أنا فغطيت بالمحفّة وهو يضحك**))[٤] ربما شاكراً الله الذي سرعان ما

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٢٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٤٦٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٢٣.

[٢] **ساوة:** مدينة طيبة كثيرة الخيرات والثمرات والمياه والأشجار، وتقع بالقرب من مدينة قم في بلاد فارس. ينظر: القزويني، آثار البلاد، ص٣٨٦ – ٣٨٩.

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢/ ص١٥٩؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص٢٢٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٢٣.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٢٨.

أبعدهم عن ساوة قبل وصول أصحاب الصناعات الأكثر طرافة على حد رأي أحد الباحثين[1].

إن استقبال العامة وأصحاب الصناعات للفقيه الشيرازي وأصحابه بهذه الطريقة تدل على محبة الناس له ومكانته في قلوبهم، وقد حاول الشيخ أن ينهاهم عن هذه التصرفات، وهذه هي أخلاق العلماء، ولكن العامة تصدر منهم مثل هذه الأمور نتيجة العاطفة وحسن النية وإن كان فيها بعض التجاوزات. وهي على أية حال تعكس الموقف الإيجابي للرأي العام من بعض الشخصيات.

ومن الجدير بالذكر أن السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك قاما باستقبال أبي إسحاق الشيرازي وإكرامه وإجابة ما التمسه، ولما عاد أهين العميد ورفعت يده عن جميع ما يتعلّق بحواشي الخليفة[2].

ومن فقهاء العراق الذين اتسموا بالعدل والنزاهة : ابن المظفر الشامي[3]. وكان حسن الطريقة، خشن الأخلاق وفيه حدّة، وكان ثقة عفيفاً، لا يقبل من سلطان عطية ولا من صديق هدية، تقلّد منصب قاضي القضاة سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، ولم يأخذ على القضاء أجراً، وكان يتولّى القضاء بنفسه ولا يستنيب أحداً ولا يحابي مخلوقاً[4].

وحمل يوماً إلى دار السلطان ليحكم في حادثة فشهد عنده المشطب الفرغاني[5]، وكان فقيهاً من فحول المناظرين فردَّ شهادته فقال ما أدري لأي علّة ردَّ شهادتي فقال

---

[1] الجزراوي، بغداد بعض الغريب والطريف، ص١٠٥.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٢٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٤١؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج٢/ ص٢.

[3] **ابن المظفر الشامي:** هو أبو بكر محمد بن المظفر بن بكران الحموي الشامي. ولد سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، وتوفّى سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٩٥م. ينظر: أبو شامة، الروضتين، ج١/ ص١١٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٨٥ – ٨٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٥١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٣٩١.

[4] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٨؛ الذهبي، العبر، ج٣/ ص٣٢٥.

[5] **المشطب الفرغاني:** هو محمد بن أسامة بن زيد الفرغاني التركي الحنفي. ولد سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م وورد العراق بصحبة نظام الملك وكان جامعاً للمال له في البخل حكايات ويلبس الحرير ويرتكب المحظورات. توفّى ببغداد سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣/ ص١٩٠.

الشامي: قولوا له كنت أظن أنك عالم فاسق، والآن أنت جاهل فاسق. أما تعلم أنك تفسق باستعمال الذهب؟ وكان يلبس خاتم الذهب والحرير[(١)].

وادعى عنده بعض الأتراك على رجل شيئاً فقال ألكَ بيّنة، قال نعم فلان والمشطّب فقال لا أقبل شهادة المشطّب لأنه يلبس الحرير فقال التركي: **((السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك يلبسان الحرير))**[(٢)] فقال: لو شهدا عندي على باقة بقل لم أقبل شهادتهما[(٣)].

ومن الجدير بالأشارة أن الفقيه الشامي لما أقام الحق نفرت عنه قلوب المبطلين، فلفقوا له معايب لم يلصق به منها شيء، وكانت غاية تأثيرها أن سخط عليه الخليفة المقتدي بأمر الله ومنع الشهود من دخول مجلسه فقال: **((لم يُطر عليَّ فسق استحق به العزل))**[(٤)]. وقد تأثر الرأي العام بعزل قاضي القضاة الشامي، فلما شاع خبر العزل بين العسكر في بغداد ذهبوا شاكين إلى الديوان مطالبين بعودته لمنصبه لما يتمتع به من حسن السيرة والعدل والنزاهة، فقام الخليفة بمصالحته وأذن للشهود بالعودة إلى مجلسه فاستقامت أموره[(٥)].

يتبين لنا من خلال ذلك أن الفقيه أبو بكر الشامي قد عمل على كسب الرأي العام من خلال حفاظه على شرف مهنة القضاء وإدارة أعماله على أحسن وجه، ونرى ذلك من خلال مطالبة العوام بإعادته إلى وظيفته التي أحسن ممارستها، على الرغم من معاداة بعض البغداديين له من أهل الباطل.

[(١)] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٥١؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص٢٠٤.

[(٢)]. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٨٦؛ السبكي، المصدر نفسه، ج٤/ ص٢٠٤ – ٢٠٥.

[(٣)] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٥٠٧؛ السبكي، المصدر نفسه، ج٤/ ص٢٠٥؛ ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، ج١/ ص٢٦٩ – ٢٧٠

[(٤)] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٨٦.

[(٥)] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص٢٠٣.

ومن الفقهاء الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن حقوق الرعية وممتلكاتهم هو الفقيه ابن الرطبي[(١)]، قاضي الكرخ. ففي سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م عزم الخليفة المسترشد بالله على بناء السور فأشير عليه بجباية الأموال من الناس وابتدأ بأصحاب الدكاكين فجمع من ذلك مالاً كثيراً[(٢)]، مما أدى إلى تذمّر الرأي العام في بغداد. وقد أشار ابن الأثير لذلك بقوله: ((... **فشقَّ ذلك على الناس ...**))[(٣)] فما كان من الفقيه ابن الرطبي إلاّ أن نقل معاناة الأهالي من ذلك برسالة إلى الخليفة المسترشد يعظه فيها وينصحه برد الأموال. ومما جاء فيها: ((... **وحق الله يا مولانا إن الذي تتحدث به الناس فيما بينهم من أن أحدهم كان يعود من معيشته ويأوي إلى منزله فيدعو بالنصر والحفظ للدولة قد صاروا يجتمعون في المساجد والأماكن شاكين مما قد التمس منهم، ويقولون كنّا نسمع أن في البلد الفلاني مصادرة فنعجب، ونحن الآن في كنف الإمامة المعظمة نشاهد ونرى، والناس بين محسن الظن ومسيء، والمحسن يقول: ما يجوز أن يطلّع أمير المؤمنين على ما يجري فيقر عليه، والمسيء الظن يقول: الفاعل لهذا أقلُّ أن يقوم عليه إلاّ عن علم ورضا ... فيا مولانا الله الله في الدين والدولة اللذين بهما الاعتصام ...**))[(٤)]. ولما قرأ الخليفة رسالة ابن الرطبي علم كراهية الناس من جمع الأموال فأمر بإعادة ما أخذ من

---

(١) **ابن الرطبي:** هو أبو العباس أحمد بن سلامة بن عبيد الله بن مخلد بن إبراهيم الرطبي الشافعي الكرخي، ولي القضاء والحسبة، وكان قريباً من الخليفة المسترشد بالله يؤدب أولاده. توفّى سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٧٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٦١٠ – ٦١١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦/ ص٢٤٤ – ٢٥٤؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٥٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٨٠.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٩٨.

(٣) الكامل، ج٩/ ص٢٢٥.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢١٨ – ٢١٩.

الأغنياء والفقراء على السواء[1]، وأنفق على بناء السور من أمواله وأموال بعض رجال الدولة[2].

إن ما قام به الفقيه ابن الرطبي من وعظ الخليفة وإعادة الأموال إلى الناس قد عمل على كسب الرأي العام في بغداد، ففرح العوام بذلك وأكثروا من الدعاء للخليفة، وكان من نتيجة ذلك أن تفاعل الأهالي مع الخليفة حين أمر ببناء السور، فأقبلوا طواعية وبحماس واندفاع وتقاسم أبناء المحال أعمال البناء محلة بعد أخرى وسط مظاهر الفرح والابتهاج[3].

ومما ساعد على ازدياد مكانة الفقهاء أنهم الفئة التي يختار من بينها القضاة، ولم يكن اختصاص القضاة محصوراً في النظر بالقضايا وإصدار الأحكام، بل كانوا يتولون الإشراف على الأوقاف والوصايا والتركات[4]. ومن الذين تولوا منصب القضاء ابن الرطبي. وكانت لصفاته التي تحلّى بها من عدالة ونزاهة وحسن سيرة دور كبير في تعزيز مكانته عند الخليفة المسترشد بالله، ومثال ذلك ما نقله لنا ابن الجوزي بقوله: ((**أن قوماً الحقوا بالمخزن بعض دَين لهم ليستخلص، فقال المسترشد لصاحب المخزن، خلصه لهم، وخذ ما ضمنوا لنا. فأُحضر ابن الرطبي وعُرض الأمر عليه، فقال هذا أمر بظلم وما أحكم فيه. فقال أن السلطان قد أمر، قال: ما أفعل، فأحضَر قاضياً آخر فبتَّ بالحكم**))[5] فلما وصل الخبر إلى الخليفة قال: أما ابن الرطبي فيشكر على ما قال، وأما الآخر فيُعزل، وذلك لأنه بان له أن الحق ما قاله ابن الرطبي[6].

---

[1] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢١٨ – ٢١٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٩٨.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٢٥.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢١٩؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ السامرائي وآخرون، تاريخ الدولة العربية، ص٢٨٦.

[4] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١/ ص١٩.

[5] صيد الخاطر، ص٢٣١.

[6] المصدر نفسه والصفحة.

يمكن القول أن قصد ابن الرطبي في ذلك هو طاعة الخالق عز وجل وإن سَخَطَ المخلوق، وبعمله هذا استطاع كسب الرأي العام المتمثل بعامة الناس والخليفة.

اتخذ بعض الفقهاء والزهّاد مواقف متشددة عبروا فيها عن رفضهم للأعمال التعسفية التي مارسها السلاجقة في بغداد، فقد وقف الفقيه الواعظ ابن العبادي[1] موقفاً جريئاً وشجاعاً أمام تصرفات بعض الأمراء السلاجقة الذين وردوا إلى بغداد للسيطرة عليها سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، حيث قام هؤلاء الأمراء بنهب المناطق المحيطة ببغداد: ((... **ويأخذون غلاّت الناس وقسطوا على محال الجانب الغربي الأموال ... وأخذوا نساء الناس وبناتهم ...**))[2]. ونظراً لثقة الخليفة المقتفي لأمر الله بابن العبادي فقد أرسله إلى الأمراء السلاجقة ليوعظهم ويوبخهم على أفعالهم[3] التي طالما أثارت الرأي العام في بغداد والمناطق المحيطة بها. وقد قبّح الفقيه ابن العبادي ما فعلوا وقال لهم: ((**لو جاء الإفرنج لم يفعلوا هذا، أي ذنب لأهل القرى والرساتيق؟ واستنقذ منهم المواشي وساقها إلى البلد فجاء الناس فمن عرف شيئاً أخذه**))[4].

كان للموقف المتشدد من قبل الواعظ ابن العبادي تجاه عبث واستهتار الأمراء السلاجقة دور كبير في كسب الرأي العام في بغداد والمناطق المحيطة بها ، وخاصةً بعد أن استرجع أموالهم وممتلكاتهم، وقد عبّرت العامة عن حزنها لوفاة ابن العبادي

---

[1] **ابن العبادي**: هو قطب الدين أبو منصور المظفر بن أردشير العبادي المروزي. ولد سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وورد بغداد ولاقى قبولاً من الرعية والخليفة المقتفي لأمر الله ووعظ بالجامع والنظامية. توفّى سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م. ينظر: ابن نقطة، تكملة الاكمال، ج٤/ ص٢٣٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٢٣١ – ٢٣٢؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٧/ ص٢٩٩– ٣٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٣٠٣.

[2] ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/ ص٦٥.

[3] النويري، نهاية الأرب، ج٧/ ص٣٠١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٧/ ص١٥.

[4] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٦٥.

سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م حيث جلس ولده للعزاء في بغداد، فحضر جمع كبير من الناس يعزّونه ويبكون على والده[١].

وبما أن السلطة الدينية بيد الخليفة، إلاّ أن السلاجقة بعد مدّة من سيطرتهم على العراق أخذوا يتدخلون في المجالات التي كانت من اختصاصات الخليفة كتعيين القضاة، ومدرسي النظامية، ففي سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م جلس الفقيه يوسف الدمشقي[٢] مدرساً بالنظامية بأمر السلطان مسعود[٣] وبدون أمر من الخليفة المقتفي لأمر الله، مما اثار غضب واستياء الخليفة، فما كان من الأخير إلاّ أن أمر بمنعه من دخول الجامع ودار الخلافة، ومنع من التدريس، وضربت جماعة من أصحابه بالخشب فصلّى في جامع السلطان[٤]. وبقيت المدرسة لمدة سبعة عشر يوماً بدون مدرس ، ولم يجرؤ أحد من الفقهاء على التدريس فيها دون أخذ موافقة الخليفة، حتى أن السلطان مسعود تقدم إلى الشيخ السهروردي[٥] للتدريس فيها إلاّ أنه رفض دون إبراز موافقة الخليفة، فاستخرج السلطان موافقة الخليفة في ذلك فتقدم بالتدريس فيها في منتصف محرم من السنة نفسها[٦].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٧١.

(٢) **يوسف الدمشقي:** هو أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي، شيخ الشافعية، نزيل بغداد، درس بالنظامية. توفّى سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٥١٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٩/ ص٩٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٥٥.

(٣) ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص٢٨٨.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٩/ ص٩٩.

(٥) **السهروردي:** هو أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن عمويه. والسهروردي نسبةً إلى سهرورد بلد عند زنجان. فقيه شافعي، ولد سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م قدم بغداد وسكنها وتفقه بالنظامية زماناً. توفّى سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م. ينظر: الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٨١ – ١٨٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٢٠٨؛ النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج٢/ ص٤١٣ – ٤١٤.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٦٨.

وبذلك عبّر الفقهاء عن تجاوبهم مع الخليفة برفض أوامر السلطان السلجوقي وتدخّله في واجبات الخلافة الدينية، الأمر الذي أدّى إلى كسب ود السلطة المتمثلة بالخلافة العباسية.

وقد قام بعض الفقهاء بتصرفات أساءت إلى سمعتهم الدينية وقلّلت من شأنهم، ومنها أنه في سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م توفّى يعقوب الكاتب في بغداد، وكان يسكن المدرسة النظامية، وحضر متولي التركات، وختم على الغرفة التي كان يسكنها بالمدرسة، فثار الفقهاء وضربوا المتولي، وأخذوا التركة، فمضى المتولي شاكياً، فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما[١] فاستنكر الفقهاء ذلك وقاموا بإغلاق المدرسة وأخرجوا كرسي الوعظ ورموه وسط الطريق، ولما كانت عشية تلك الليلة صعد الفقهاء سطح المدرسة واستغاثوا: ((**وأساءوا الأدب في استغاثتهم**))[٢] وكان حينئذٍ مدرسهم أبو النجيب السهروردي فجاء فرمى بنفسه تحت التاج في اليوم الثاني واعتذر وكشف رأسه فقيل له: ((**قد عفي عنك فامضي إلى بيتك والزم زاويتك**))[٣]، وهرب الفقهاء إلى دار المملكة فشفع فيهم أبو النجيب فعفي عنهم[٤].

وبدلاً من أي يكون للفقهاء دوراً في حل مشكلات المجتمع ، نجد هنا أنهم كانوا جزءاً من إثارة المشاكل التي قلّلت من هيبتهم ومكانتهم بتجاوزهم على موظف التركات مما أثار سَخط السلطة التي قامت بمحاسبة بعضهم بالضرب والحبس، وملاحقة البعض الآخر إلى حين تدخُّل السهرودري واعتذاره وتوسطه للعفو عن بقية الفقهاء.

ومن التصرفات السلبية لبعض الفقهاء، التي أثارت سخط الرأي العام في العراق ما قام به اليزدي الفقيه أثناء حصار السلاجقة لبغداد سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م حيث عزم على الهروب إلى الجيش السلجوقي المحاصِر لبغداد، فكتب رسالة بهذا

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٨٢.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٨٣.

[٣] المصدر نفسه والجزء والصفحة .

[٤] المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٣٠.

الخصوص وقال: **((إذا قرأتم كتابي فخرقوه))**[١] وبعثها مع فقيه آخر ليوصلها، فما كان من هذا الأخير الذي ساءه أن يرى خيانة أحد أفراد طبقته وبلده في أشد الحاجة إلى التماسك والوحدة، ففعل ما ينبغي أن يفعل، حيث أخذ الكتاب وسلّمه إلى الوزير عون الدين بن هبيرة فأُحضر الفقيه وأقرَّ بذنبه وحُبس[٢].

ومقابل ذلك فقد قدّم ابن الجوزي صوراً حية للتعاون الوثيق بين الفقهاء والخلافة أثناء حصار بغداد، فقد كشفت مواقفهم عن رفضهم للظلم والتسلط مما أدّى إلى كسب الرأي العام المتمثل بالخليفة والعوام، ومثال ذلك ما قام به الفقيه يوسف الدمشقي من الشجاعة والجرأة ما جعله يقف منادياً لرسول السلطان محمد الذي أرسله لتسوية الصراع بين السلاجقة والخلافة بقوله: **((... ما لكم عندنا جواب قبل اليوم إلاّ السيف، فكيف اليوم وقد قتلتم وأحرقتم وأفسدتم ...))**[٣].

وكان لتصرفات بعض الفقهاء دور في إثارة الفتن، ومنها ما ذكره ابن الأثير الذي ابتدأ حوادث سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م، بالكلام عن اعتداء بعض الفقهاء على غلمان الوزير عون الدين ابن هبيرة الذين كانوا بصحبة الوزير، وقد هموا برد باب المدرسة الكمالية بدار الخليفة ببغداد، فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر، فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم، فمنعهم الوزير[٤]، ومضى إلى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فوقّع عليها الخليفة المستنجد بالله بضرب الفقهاء وتأديبهم، ونفيهم من الدار، فمضى أستاذ الدار وعاقبهم هناك، ثم أدخلهم الوزير إليه واستحلهم وأعطى لكل واحد ديناراً وأعيدوا إلى المدرسة بعد أن أُغلقت أياماً، واختفى أبو طالب مدرسهم ثم ظهر بعد العفو[٥].

ويبدو أن ما قام به الفقهاء من ضرب غلمان الوزير ابن هبيرة بالآجر قد تسبّب في إثارة الفتنة، وسخط رجال الدولة ومنهم الخليفة المستنجد بالله الذي أمر

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١١٥ – ١١٦.

[٢] المصدر نفسه، ج١٨/ ص١١٦؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي لأمر الله، ص١١٧.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٤] الكامل، ج٩/ ص٤٤٤.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٤٧؛ ابن الأثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

بمعاقبتهم، ومن ثم نفيهم. وكان لقرار الوزير بالعفو عنهم وإعادتهم إلى المدرسة دور كبير في إخماد الفتنة التي أثاروها بعد أن نالوا عقابهم من الخليفة.

وأخيراً نستنتج أن لسلوك الفقهاء وأعمالهم دوراً كبيراً في التأثير على الرأي العام وذلك لمركزهم القيادي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه على الرغم من هذه المكانة التي تمتع بها الفقهاء والعلماء فإن دورهم في توجيه الأحداث السياسية الكبرى في الدولة والمجتمع كان قليلاً مقارنةً بكثرة أعدادهم التي بلغت المئات، حيث أنهم قصروا في معالجة المشاكل التي كان المجتمع يعاني منها أشد المعاناة.

المبحث الثاني: مجالس الوعظ.

كانت مجالس الوعظ أشبه بمدارس شعبية أخذت على عاتقها تثقيف العامة خلال العصور الإسلامية، لذلك كان المسجد منذ تأسيسه زمن الرسول (ص وآله) مدرسة شعبية قدّم خدمات جليلة للمسلمين من مختلف القوميات[١]. واستمرت المساجد تؤدي هذا الدور خلال عصر السيطرة السلجوقية، فضلاً عن المدارس الرسمية التي أنشئت كالنظامية سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م[٢]، ومدرسة أبي حنيفة سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م[٣].

عكست مجالس الوعظ حرية التدريس فقد كان مسموحاً لأي فرد أن يحضر هذه المجالس وأن يستفيد من الأمور الشرعية وذلك بالسؤال عما يجول في خاطره. لكن روح التعصب المذهبي التي كانت سائدة في هذا العصر بين العامة من جهة وبين الوعاظ أنفسهم للمنافسة والتحاسد فيما بينهم قد أثرت على مجالس الوعظ وإلى حدوث فتن مذهبية[٤].

لمجالس الوعظ دور كبير في التوجيه والإرشاد، فضلاً عن ذلك فإن الشخص الواعظ الذي كان يقوم بهذه المهمة يجب أن يكون على معرفة عامة بالفقه والجوانب الشرعية والعلوم والآداب، وتمتعه بأسلوب بسيط لا يخلو من البلاغة، وبألقاء حسن لمخاطبة القلوب، وتحريك المشاعر حتى يحسن التأثير في نفوس الناس. أما الموضوعات الأخرى المتداولة في هذه المجالس فكانت تركّز في الغالب على التنظيم الاجتماعي، ووحدة المجتمع وتماسكه، والإصلاح الخلقي والتربية النفسية لأفراده، ومحاولة إزالة ما يخالف الشرع، ومحاربة البدع والمنكرات والمفاسد التي تظهر في المجتمع[٥].

---

[١] فهد، العامة ببغداد، ص٢٢٣.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٧٥.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٠٠.

[٤] للتفاصيل عن الرأي العام تجاه الفتن الدينية والمذهبية، ومن ضمنها أثر الوعاظ في إثارتها. ينظر: الفصل الحالي، المبحث الرابع.

[٥] القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص١٧٥.

كان العوام في بغداد والمدن العراقية الأخرى خلال حكم السلاجقة يميلون لسماع المواعظ في المجالس العامة، أكثر من ميلهم لسماع العلماء والفقهاء في المدارس، وذلك بسبب الظلم السياسي والتناقض الاقتصادي والاجتماعي[1]. وهذا يمثل علاقة الإنسان بدينهِ بصورة معبّرة عن مستوى تفكيره المتضمّن للرموز الخيالية الأولية التي تحمل الصفة القدسية[2].

تباين الوعّاظ فيما بينهم في مدى تأثيرهم في الرأي العام، وفي ازدحام مجالسهم بناءً على سعة ثقافتهم، وأسلوب مخاطبتهم لمشاعر الناس، مما تطلب من الواعظ أن يملك السمات الشخصية التي تجعله مركز استقطاب اجتماعي[3].

وفضلاً عن ذلك فقد كان الفقهاء الوعّاظ يمثلون النخبة المثقفة في المجتمع، وكان تأثيرهم على الرأي العام كبيراً، واتضح هذا التأثير من بعض ما أوردته المصادر من أمثلة. ففي سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م مرَّ ببغداد الفقيه الواعظ أردشير العبادي[4]، أثناء عودته من الحج وجلس للوعظ في المدرسة النظامية، فتكاثر عليه الناس[5] حتى امتلأ صحن المدرسة وأروقتها وبيوتها وغرفها وسطوحها، وعجز المكان. وفي كل مرّة يتضاعف الجمع، وكان النساء أكثر من ذلك فكانوا على سبيل الحزر ثلاثين ألفاً[6]. وكان إذا تكلّم ضجوا وهاموا وترك الناس معايشهم، وحلق أكثر الصبيان شعورهم، وآووا إلى المساجد وأريقت الأنبذة والخمور وكسرت آلات الملاهي[7].

---

[1] عمر، علم اجتماع المعرفة، ص٢٤٣؛ القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص١٧٥.

[2] عمر، المرجع نفسه والصفحة.

[3] القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص١٧٧.

[4] **أردشير العبادي:** هو أبو الحسين أردشير بن منصور العبادي المروزي الواعظ، سمع بمرو ونيسابور من جماعة وقدم إلى بغداد ووعظ بها. توفّي في مرو سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤/ ص٢٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٦٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص١٨٦.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٩٠.

[6] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٤٤.

[7] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص١٨٦.

نستنتج مما ذكرناه مدى تأثير هذا الزاهد ومجالس وعظه على الرأي العام ولاسيما الشباب. وقد تجلى هذا التأثير بما قاله ابن الجوزي: **((أن أردشير العبادي كان ينزل رباطاً فيه بركة كبيرة يتوضأ فيها، فكان الناس ينقلون منها الماء بالقوارير والكيزان تبركاً حتى كان يظهر فيها نقصان الماء))**[١].

ويبدو أن الرأي العام تجاه الواعظ أردشير العبادي قد تغيّر في السنة ذاتها، وذلك بسبب أنه نهى أن يتعامل الناس ببيع القراضة بالصحيح وقال هو ربا فمنع من الوعظ وأخرج من البلد[٢].

ومن الوعّاظ الذين ظهر لهم قبول تام من الرأي العام هو الفقيه يوسف الهمذاني[٣]، الذي دخل بغداد سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م وتفقه بها على عدد من الشيوخ، ثم عاد إلى مرو. وفي سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م عاد إلى بغداد فوعظ بها وقام إليه رجل متفقه يقال له **(ابن السقّاء)** وسأله وآذاه في السؤال، فأجابه الهمذاني قائلاً: **((إجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلّك تموت على غير دين الإسلام))**[٤] فاتفق بعد مدّة أن ابن السقّاء خرج إلى بلاد الروم وتنصّر[٥].

كان للهمذاني تأثير كبير على الرأي العام في بغداد من خلال مواعظه وكراماته، ومثال ذلك ما قام به أبنا الفقيه أبي بكر الشاشي من مضايقته أثناء الوعظ فقال لهما: **((إجلسا لا متعكما الله بشبابكما، فماتا ولم يبلغا الشيخوخة))**[٦].

---

[١] المنتظم، ج١٧/ ص٣.

[٢] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٩١.

[٣] **يوسف الهمذاني:** هو أبو يعقوب يوسف بن أيوب بن الحسن بن وهرة الهمذاني، من أهل بروجرد (قرية من قرى همذان) وسكن مرو وتفقه على أبي إسحاق الشيرازي، وروى الحديث واشتغل بالرياضيات. توفّى سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م. ينظر: الصفدي، والوافي بالوفيات، ج٢٩/ ص٤٧ – ٤٨؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٦٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٣١٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١١٠ – ١١١.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٢٨؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٧٤.

[٥] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص١٤٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٩/ ص٤٨؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٢٦٥.

[٦] ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٤/ ص٧٩.

وكان بعض الوعّاظ يتجهون بوعظهم إلى رؤساء الدولة من السلاطين والوزراء فيذكروهم بالواجب الملقى على عاتقهم تجاه الرعية، وأنهم محاسبون في الآخرة. فمن هؤلاء الوعّاظ الفقيه أبي عمامة[1]، حيث نالت مجالسه القبول عند الخاص والعام[2]. وقد وعظ الوزير نظام الملك مرّة عند مجيئه إلى بغداد، وذكّره بأنه أجير هذه الأمة، وعليه السعي لمصالح المسلمين، وضرب الأمثلة على بعض الملوك العادلين بقوله: ((**وهذا ملك الهند وهو عابد صنم ذهب سمعه فدخل عليه أهل مملكته يعزّونه في سمعه، فقال: ما حُزني لذهاب هذه الجارحة من بدني، ولكن لصوت المظلوم كيف لا أسمعه فأغيثه. ثم قال: إن كان قد ذهب سمعي فما ذهب بصري، فليؤمر كل ذي ظلامة أن يلبس الأحمر حتى إذا رأيته عرفته فأنصفته**))[3] ثم حذّره من يوم الحساب، وفي الأخير قال ما معناه أن وعظه لا يريد به غير وجه الله إذ ليس له مطمع، فهو لا يملك عقاراً ولا ضيعةً، وليس له عداوة مع أحد[4]. وبعد سماع الوزير لهذه الموعظة بكى وأمر له بمائة دينار، فلم يقبلها الواعظ، فقال له الوزير: ((**فضها على الفقراء، فقال: الفقراء على بابك أكثر منهم على بابي ولم يأخذ شيئاً**))[5].

وهذا دليل على أن الواعظ أبا عمامة في وعظه لرجال الدولة وتذكريهم بواجباتهم في مراعاة مصالح الرعية لا يبغي من وراء ذلك أي هدية وأنه أراد بذلك رضا الله. وبسبب ذلك فقد أصبح لأبي عمامة قبول تام من الرأي العام المتمثل بسلطة الدولة والعوام.

---

[1] **أبي عمامة:** هو المعمر بن علي بن المعمّر أبو سعد بن أبي عمامة الحنبلي الواعظ، ولد سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، وتوفّى سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤٨؛ الذهبي، العبر، ج٤/ ص١١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٢٠٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١٤.

[2] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٤٢٥؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١٩٣.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٣١.

[4] فهد، تاريخ العراق، ص٣٩٠ – ٣٩١.

[5] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٣٢.

وفي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م أمر السلطان مسعود بجباية ضريبة العقار فلقي الناس من ذلك شدّة، وشكو حالهم، فخرج رجل صالح يقال له **(ابن الكوّاز)** فلقي السلطان بالميدان، فوصف له تذمّر الرأي العام من تجاوزاته على الناس فقال له: **((أنت المُطالَب بما يجري على الناس، فما يكون جوابك، فانظر بين يديك، ولا تكن كمن قيل له اتق الله، أخذته العزّة بالأثم))** فأمر السلطان بإسقاطها [١].

وقام الواعظ قطب الدين بن أردشير العبادي المروزي **(**ت٥٤٧هـ/ ١١٥٢م**)** بإسداء النصح والإرشاد للسلاطين والأمراء السلاجقة، والتأكيد على ضرورة احترام الرعية، وكان ذلك سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م عندما حضر إلى بغداد ووعظ في جامع السلطان، وحضر عنده السلطان مسعود[٢]، الذي كان قد وضع على الناس ضرائب ثقيلة في حق البيع، فوعظه مذكراً إياه ما جرى على المسلمين من نتائج ذلك ثم قال له: **((يا سلطان العالم، أنت تهب في ليلة لمطرب بقدر هذا الذي يؤخذ من المسلمين، فأحسبني ذلك المطرب، وهبه لي، واجعله شكراً لله مما أنعم عليك))**[٣] فأشار السلطان بيده أني قد فعلت، فضجَّ الناس بالدعاء له، وكتب بذلك سجلاّت ونودي بالبلد بإسقاط المكس[٤].

وكان من نتيجة مواعظ الفقيه العبادي أن عمل على كسب الرأي العام في العراق عامة وبغداد خاصة، ودليل ذلك قول ابن الأثير في مجالسه: **((... وأما العامة، فإنهم كانوا يتركون أشغالهم لحضور مجلسه، والمسابقة إليه))**[٥].

والفقيه الواعظ إذا استطاع أن يكسب الرأي العام تجاهه، فإنه يكسب إليه انتباه الخليفة وعائلته ، مما يؤدي إلى الاهتمام به كما حدث للغزنوي[١]، الذي قدم بغداد

---

[١] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٤٠٢.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٤٩؛ ابن الأثير، الكامل/ ج٩/ ص٣٤٥.

[٣] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٤٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٧/ ص٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢١؛ السيوطي، المصدر نفسه، ص٣٥١.

[٥] الكامل، ج٩/ ص٣٤٥.

سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م ووعظ بها وصار له قبول[٢]، وبقي فيها واعظاً حتى أمرت زوجة الخليفة المستظهر بالله أن يبني له رباطاً بباب الأزج وأوقفت عليه الوقوف[٣].

وفي عهد المقتفي لأمر الله (٥٣٠ – ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ – ١١٦٠م) بدأ الغزنوي يميل إلى السلطان مسعود ولا يعظم بيت الخلافة كما ينبغي، حتى منعه المقتفي من الوعظ[٤]، فتقدم السلطان مسعود فاستدعاه فجلس بجامع السلطان فوعظ وقال له: **((يا سلطان العالم محمد بن عبد الله أمرني أن أجلس، ومحمد أبو عبد الله منعني أن أجلس يعني المقتفي ...))**[٥].

وكان لهذه الحادثة أثر كبير في تذمّر الخليفة، فلما مات السلطان مسعود قام المقتفي لأمر الله بحبسه ثم سُئِلَ فيه فأُطلق وكان معه قرية أصلها للمارستان فأُخذت منه، ومُنع من الوعظ[٦]. ونقل لنا ابن الجوزي حال الغزنوي الواعظ بعد ذلك بقوله: **((... ومازال الغزنوي يلقى الذل بعد العز الوافي))**[٧] ونُقل عن أبي بكر بن الحصري قال سمعت الغزنوي يقول: **((من الناس الموت أحبُّ إليه من الحياة،**

---

[١] **الغزنوي:** هو أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي الشافعي الواعظ المشهور ببغداد له قبول عند الخلفاء والسلاطين والعامة. ينظر: ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١٨/ ص٤٧ – ٤٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٠/ ص٨٩ – ٩٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٣٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١٥٩.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤١١.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٠٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٣٤؛ فهد، تاريخ العراق، ص٣٩٠.

[٤] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٨، ص٥٩.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٠٩.

[٦] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٣٢٤.

[٧] المنتظم، ج١٨/ ص١١٠.

وعنى نفسه، وكان لا يحتمل الذل))[١] إلى أن مات في محرم سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م[٢].

نستنتج من خلال ذلك أن الغزنوي الواعظ قد حصل له قبول تام من الرأي العام المتمثل بالسلاطين والخلفاء والعوام، إلاّ أن محاباته للسلطان مسعود وعدم تعظيمه لبيت الخلافة قد أثار الرأي العام المتمثل بالخليفة والعوام، وفقد جزءاً كبيراً من شعبيته، وذلك أن الخليفة هو المسؤول عن السلطة الدينية والعوام في العراق. وكان من نتيجة ذلك أن مُنع من الوعظ، وصودرت قريته وأُذِلَّ بعد موت السلطان الذي كان يدافع عنه.

ومما يلفت النظر إليه أن عدد الوعّاظ إزداد في عصر السيطرة السلجوقية مما أدّى إلى انتشار مجالس الوعظ، الأمر الذي يدل على أنها تحولت في بعض الأحيان إلى وظيفة دينية. ويعتقد أحد الباحثين أن الواعظ أصبح يتقاضى مردوداً سواءً أكانَ مادياً أم معنوياً ممن يروّج لأفكار السلاجقة[٣]، فأدّى ذلك إلى إحداث التعصب والتناحر الجماعي، ومثال ذلك أن المغربي الواعظ قد دخل بغداد سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م فوعظ بها وكان ينشد بتطريب، فنفق على الناس نفاقاً كثيراً فتأثّر الواعظ علي بن الحسين الغزنوي بذلك فمنعه من الجلوس، فتعصب له أقوام وأركب فرس وزير السلطان، فأطلق بالجلوس أين شاء وقرّر له الجلوس في دار السلطان[٤].

وكان للرأي العام تجاه المغربي الواعظ موقفاً حازماً وذلك أن التزام السلاجقة له لم يدم طويلاً. ففي سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م أخذ المغربي الواعظ مكشوف الرأس إلى باب النوبى وسجن ، لأنه وجد في داره خابية نبيذ مدفونة وآلات لهو من عود وغيره[٥]، مما أثار سخط الرأي العام بذلك، وكان موقف العامة أن انهالوا عليه

---

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٤١١؛ ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١٨/ ص٥١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٠/ ص٩٠.

(٣) القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص١٧٨.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٣٦.

(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢١٨.

بالسب والشتائم، غير أنه كان ينكر ذلك ويقول أن امرأته مغنية وآلات الغناء لها، وانه لم يكن يعلم بها[١]. وقد علّق أحد الباحثين على أن العذر الذي جاء به المغربي الواعظ أقبح من ذنبه[٢].

وفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م جلس الواعظ الشهاب محمد الطوسي في بغداد وكان فيما قال أن ابن ملجم لم يكفَّر بقتل الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مما أدّى إلى سخط الرأي العام من الحاضرين[٣]. وقد نقل لنا ذلك ابن الجوزي بقوله: **((فهاج الناس عليه ورموه بالآجر وخرج من المجلس والأتراك يحفظونه، فلما كان في يوم مجلسه بالتاجية فرش له فاجتمع الناس في الصحراء متأهبين لرجمه، وجاءوا بقوارير النفط فلم يحضر ومزّق فرشه قطعاً))**[٤].

أما موقف الخليفة المستضيء لأمر الله من تجاوزات الطوسي الواعظ فقد أمر بأن لا يجلس ثانيةً، ولا يخرج من رباطه[٥]، إلى أن نُفي إلى مصر[٦]. ومنع الوعّاظ كلهم من الوعظ، وذلك لتهدئة الرأي العام . وبعد شهر أمر الخليفة باختيار ثلاثة وعّاظ من المذاهب الحنبلية، والشافعية، والحنفية، ممّن اتسم بحسن السيرة، فوعظوا واحداً بعد آخر[٧].

نستدل مما سبق أن الخلافة لا تسمح بإثارة الفتن المذهبية والطائفية، أو بتجاوز مذهب على آخر. فضلاً عن ذلك أنها كانت تعامل أصحاب مذهب الإمامية معاملة قوامها الاحترام والتقدير وتمنع التحدّث عن العلويين بما لا يليق.

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٩.

[٢] الجزراوي، بغداد بعض الغريب والطريف، ص١٠٥.

[٣] الذهبي، العبر، ج٤/ ص٢٠٥.

[٤] المنتظم، ج١٨/ ص٢٠٢.

[٥] المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص١٨٦.

[٦] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٩/ ص٥٩؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٣٨٩.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢٠٢.

ومن وعّاظ هذا العصر الذين أثروا في الرأي العام هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي الحنبلي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) وكان أديباً واعظاً مفسراً مؤرخاً وفقيهاً[١].

ولما توفّى أحد وعّاظ بغداد المعروف بـ **(ابن الزاغواني)**[٢] سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م طُلب من ابن الجوزي أن يجلس عند قبره للوعظ، وسمع منه فصل، وعند ذلك سمح له أن يحل محل ابن الزاغواني[٣]، وبرز بعد ذلك وأصبحت له شهرة واسعة في الوعظ بحيث أخذ يعظ العامة في المحال لضيق المساجد بهم[٤].

وقد أشار الذهبي إلى أن ابن الجوزي كانت له اليد الطولى في الوعظ بقوله: **((... فهو حامل لواء الوعظ، والقيّم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس ...))**[٥].

وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء، والوزراء، والملوك، والأمراء، والعلماء والفقراء[٦]. ومن وصفه لمجالس وعظه قوله في سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م: **((أني عقدت المجلس يوم عاشوراء بجامع المنصور فحضر من الجمع ما حزر بمائة ألف))**[٧]. ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه فكيف كانوا يسمعون صوته، وكيف لجامع في العصر العباسي أن يجمع هذا العدد ويفهمون عنه. ويمكن القول إنه كان يعني بهذا العدد الكثير من الحضور تقديراً لا تحقيقاً.

---

[١] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص٣٦٧.

[٢] **ابن الزاغواني:** هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن نصر بن السري الزاغواني، والزاغواني نسبةً إلى قرية زاغواني من أعمال بغداد، فقيه حنبلي، ومحدث وواعظ. توفّى سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٧٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٠٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٨٠.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٧٦ – ٢٧٧.

[٤] ينظر: المصدر نفسه، ج١٨/ ص١٩٧.

[٥] سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص٣٦٧.

[٦] ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص١٥.

[٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٩٩.

والدليل على كثرة أعداد الحاضرين لمجالس وعظه إنه في السنة ذاتها عقد مجلساً وأن الناس بعد أن علموا بموعد وعظه اتخذوا أماكن لهم: **((من وقت الضحى للمجلس بعد العصر وكانت ثم دكاك فأكتريت حتى أن الرجل كان يكتري موضع نفسه بقيراطين[1] وثلاثة وكنت أتكلم أسبوعاً والقزويني[2] أسبوعاً إلى آخر رمضان))**[3].

ويبدو أن تأثير مجالس الوعظ لابن الجوزي على الرأي العام كبير وذلك من خلال الأعداد الكثيرة للحضور، فضلاً عن نتائج وعظه، حيث ذكر عن حالات من إعلان التوبة من العظائم والآثام من قبل العامة. وفي أحيان يشير إلى أن أعداداً من اليهود والنصارى ومن العاصين قد أعلنوا إسلامهم كنتيجة مباشرة من مجالس الوعظ[4]. ومثال ذلك قوله في حوادث سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م: **((وسألني أهل الحربية[5] أن أعقد عندهم مجلساً للوعظ ليلة، فوعدتهم ليلة الجمعة سادس ربيع الأول ... فعبرت إلى باب البصرة فدخلتها بعد المغرب، فتلقاني أهلها بالشموع الكثيرة، وصحبني منها خلق عظيم، فلما خرجت من باب البصرة، رأيت أهل الحربية قد اقبلوا بشموع لا يمكن احصاؤها فأضيفت إلى شموع أهل باب البصرة، فحُزرت**

---

[1] **القيراط:** في العراق يساوي ٠,٢١٢ ،غم. ينظر: هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص١٠.

[2] **القزويني:** هو رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني، إمام المذهب الشافعي. ولد سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م بقزوين وتفقه على كبار فقهاء الشافعية ودرس بقزوين وبغداد في المدرسة النظامية. ووعظ وأقبلوا عليه لحسن سمعته وحلاوة منطقه وأحبه العوام. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص١٩٠ – ١٩١.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢٠٠.

[4] ينظر مثلاً: المصدر نفسه، ج١٨/ ص١٩٧، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٤٩؛ صيد الخاطر، ص٢٠.

[5] **الحربية:** محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة أحمد بن حنبل تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي قائد شرطة الخليفة أبو جعفر المنصور. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ص٢٣٧.

بألف شمعة، فما رأيت البرية إلا مملوءة ضوءاً وخرج أهل المحال الرجال والنساء والصبيان ينظرون وكان الزحام في البرية كالزحام في سوق الثلاثاء ...))[١].

عقد ابن الجوزي عدّة مجالس في سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، وفي كل مرّة يتوب على يده خلق كثير وتقطّع شعور كثيرة[٢]. وقد ذكر في حوادث سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م تأثير وعظه في الرأي العام ، قائلا: **((وقد تاب على يدي أكثر من مائة ألف، فقطعت أكثر من عشرين ألف طائلة ولم يرَ الواعظ مثل مجلسي جمع الخليفة، والوزير، وصاحب المخزن، وكبار العلماء))**[٣].

ويؤيد ما ذكره ابن الجوزي عن مجالس وعظه وصف الرحّالة ابن جبير (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) الذي حضر بعض هذهِ المجالس أثناء رحلته إلى بغداد عند عودته من الحج سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، فقال أن الواعظ ابن الجوزي أطار قلوب مستمعيه: **((إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، ومنهم مَن يغشى عليه فيرفع بالأذرع إليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة ...))**[٤].

وكثيراً ما يحضر مجالسه الخلفاء وخاصةً المستضيء لأمر الله[٥]، والخليفة الناصر لدين الله ووالدته[٦]، وكان يعظهم ومثال ذلك أن الخليفة المستضيء لأمر الله كان يسمع وعظه في أحد المجالس سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م فالتفت ابن الجوزي إلى ناحيته وهو في الوعظ، وقال: **((يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك وإن قول القائل لك: إتق الله، خير من قوله لكم إنكم أهل بيتٍ**

---

[١] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢٠٣.
[٢] المصدر نفسه، ج١٨/ ص٢٢٣.
[٣] المصدر نفسه، ج١٨/ ص٢٥٠.
[٤] ينظر: رحلة ابن جبير، ص١٧٧.
[٥] ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢١٤، ٢١٨، ٢٢٩.
[٦] ينظر: ابن جبير، رحلة، ص١٧٧.

مغفور لكم ... فبكى المستضيء وتصدق بمال كثير، وأطلق المحبوسين، وكسا خلقاً من الفقراء))[1].

وعلى الرغم من تأثير مجالس وعظ ابن الجوزي في الرأي العام، إلاّ أنها تعرضت للنقد من بعض المؤرخين القدامى والمحدثين، ومنها أن ابن الأثير وقف موقفاً معارضاً من مجالسه، فقال في ترجمته سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م إنه: **((الواعظ في بغداد، وتصانيفه مشهورة، وكان كثير الوقعية في الناس لاسيما العلماء والمخالفين لمذهبه ...))**[2] وهذا ما سماه أحد الباحثين الوجه السلبي لبعض الوعّاظ[3].

أما الدكتور علي الوردي فقد انتقد كثيراً الوعّاظ ومنهم ابن الجوزي، فقد علّق على قيام الأخير بوعظ سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م بحضور الخليفة الناصر لدين الله ووالدته[4] إنه أخذ يذكر الخليفة ويدعو له ويثني عليه ويرجو أن يمد الله ظلّه على الأرض. أما حين يلتفت إلى رعايا الخليفة فنجده يأخذ بالتهديد والتخويف وبالتحذير والتهويل كأن أفراد الرعية هم الظالمون والخليفة هو المظلوم[5]. وقال في مناسبة أخرى: **((أن الوعّاظ والطغاة من نوع واحد، هؤلاء يظلمون الناس بأعمالهم، وأولئك يظلمونهم بأقوالهم))**[6].

---

[1] ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص١٥.

[2] الكامل، ج١٠/ ص٢٧٦.

[3] القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص١٨٠ – ١٨٢.

[4] ينظر: ابن جبير، رحلة، ص١٧٧.

[5] وعّاظ السلاطين، ص٥١.

[6] المرجع نفسه، ص٤٨.

المبحث الثالث: ظاهرة المنكرات والمفسدات

شهد المجتمع العراقي في عصر السيطرة السلجوقية ظواهر اجتماعية مرفوضة وغير صحية، وهي ظاهرة المنكرات والمفسدات، ومنها انتشار دور الفسق والمواخير[1]، ومجالس اللهو والشراب، التي يتخللها الطرب والغناء.

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) أن مطرباً غنّى في حفلة ختان لابن أحد وجهاء البصرة، وكان صوت المغني جميلاً فظلَ القوم يستمعون إليه يومهم بطوله[2].

وحضر الشاعر ابن القيسراني[3] مجلس سماع (أي حفلة غنائية) وكان المطرب عذب الصوت، فطرب القوم وهاجهم الوجد فأنشد يقول:[4]

واللهِ لو أنصفَ العشاقُ أنفسَهم — أعطوكَ ما ادخروا منها وما صانوا

ما أنت حين تغني في مجالسهم — إلاّ نسيم الصبا والقومُ أغصانُ

وكان المغنون يتهافتون على أبيات الشاعر ابن بختيار[5]: ((**تهافت الطير**

---

(1) **المواخير**: مفردها ماخور، وهو مجلس الريبة ومجمع أهل الفسق والفساد وبيوت الخمارين. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٥/ ص١٦١.

(2) معجم الأدباء، ج١٦، ص٢٧٠.

(3) **ابن القيسراني**: هو محمد بن نصر أبو عبد الله العكاوي. ويقال له ابن صغير القيسراني. ولد في عكا سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م ونشأ بقيسارية، وانتقل إلى حلب ثم إلى دمشق فتوفّى بها سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م. ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥/ ص٧٦ – ٨٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٣٠٢.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص٥٤؛ الصفدي، المصدر نفسه، ج٥/ ص٨٢؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢٢٤.

(5) **ابن بختيار**: هو أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله الأَبْله، كان شاباً ظريفاً، رائق النظم، جمع الشعر بين الصناعة والرقّة، ويسمى الأَبْله لذكائه من باب تسمية الشيء لضدّه. توفّى سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م. ينظر: أبو شامة، الروضتين، ج٣/ ص٢٠١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ص١٣٢؛ الصفدي، المصدر نفسه، ج٢/ ص١٧٦ – ١٧٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦/ ص٩٥.

الحوم على عذب المشرب))[1].

وقد عمل الشاعر الطبيب المظفر الباهلي[2] إرجوزة طويلة يصف فيها مجالس اللهو والشراب يذكر فيها أن المتنادمين في تلك المجالس كانوا يبدأون بتناول الأكل ثم شراب الفقاع، يتبعه النبيذ، وبعد ذلك تغني القيان[3]، وبعد أن ينتهي الغناء يشرع السمّار في رواية النوادر ويتطارحون الشعر، وهنا يكون الشراب قد فعل فعله في الرؤوس، وإذ ذاك تبدأ الفوضى، فربما أحدثوا تخريباً في آثاث البيت من جراء عربدتهم، وقد يكسرون الأقداح والقناني، وإذا خرج أحدهم لقضاء حاجة فقد يقابل جارية أو غلاماً فيغازلها أو يغازله، وربما يصادف ابن صاحب البيت أو ابنته، وربما يكون الغزل باللسان أو باليد، وقد يقتتل المتنادمون بفعل الخمر ويعلو صياحهم فيتأذى الجيران ويشكونهم إلى الشحنة[4].

وكانت لهذه المفسدات المتمثلة بحياة اللهو والمجون، والإقبال على الخمر والنساء، دور كبير في إثارة الرأي العام المتمثل بسلطة الخلافة والعوام وخاصةً الفقهاء الذين تقع على عاتقهم مسؤولية قيادة المسلمين، وقد ظهروا بمثابة حركة مضادة تقوم على الإيمان وحماية الإسلام وقيمه الروحية، ومثلهِ العليا من خلال تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كان هؤلاء الفقهاء يضيقون ذرعاً بمظاهر التحلل الخلقي التي كانت منتشرة في المجتمع البغدادي، ففي سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م لقي الفقيه المعمر بن علي أبو سعد

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤/ ص٨٧.

[2] **المظفر الباهلي:** هو أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي الأندلسي. شاعر وطبيب وموسيقي. ولد بالمرية سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م خدم السلطان محمود وكان طبيبه، وأنشأ له مارستاناً. له ديوان شعر سماه (نهج الوضاعة) يذكر فيه مثالب الشعراء وكان يدمن شرب الخمر. توفّى سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. ينظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١٥٣؛ المقري، نفح الطيب، ج٢/ ص٦٣٧ – ٦٣٩.

[3] **القيان:** مفردها قينة وتعني الجواري المغنيات. النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج٣/ ص٢٨٥؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١٣/ ص٣٥٢.

[4] ينظر: ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص٦٢٠ – ٦٢٣؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ج١/ ص٣٥٨ – ٣٦٤.

بن أبي عمامة (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) مغنية قد خرجت من عند تركي بنهر طابق فقبض على عودها وقطّع أوتاره بانفعال، فما كان من المغنية إلاّ أن استنجدت بصاحبها التركي الذي أرسل مَنْ يكبس دار ابن أبي عمامة، غير أنه قد أفلت ملتجأً إلى ابن أبي موسى الهاشمي شاكياً إليه ما يضمره له هذا المتنفذ التركي، فاجتمعت العامة ومعهم الكثير من فقهاء الحنابلة والشافعية في جامع القصر[١]، وطلبوا من الخليفة القائم بأمر الله جملة مطالب منها إزالة المواخير، وتتبع المفسدين والمفسدات ومن يبيع النبيذ[٢]. وتحت ضغط الرأي العام من الفقهاء والعامة، أمر الخليفة بإغلاق المواخير فهربت المفسدات من بغداد، وكبست عدد من دور الفسق، وأريقت الأنبذة[٣].

وغالباً ما قام الخلفاء عند مبايعتهم بالخلافة وتسلمهم قيادة المسلمين أن يخرج توقيعهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومثال على ذلك ماروي أن الخليفة المقتدي بأمر الله عند مبايعته سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م أمر وزيره فخر الدولة بن جهير الذي كلّف بدوره المحتسب بنفي المفسدات من النساء وبيع دورهن[٤]، فشهّر جماعة منهن على الحمير على أن ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة، وأسكنهن الجانب الغربي من بغداد مع الذل والصغار[٥]. كما منع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين[٦].

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٠٤. وقد أشار إليها في حوادث سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٣٨ – ١٣٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٠٥.

[٣] ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، مج١/ ص٢٤.

[٤] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٣١٨؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص١٤٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣/ ص٣٨٠.

[٥] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣/ ص٢١١؛ اليافعي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١١١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٨.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٦٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٩٤.

وفي سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م أمر الخليفة المسترشد بالله بإراقة الخمور التي بسوق السلطان ونقض بيوت بائعيها[١].

ويبدو أن موقف الخليفة هذا من الخمر كان دافعه الرئيس دينياً واجتماعياً، وذلك أن إراقة خمور الحانات وهدمها هو محاولة لإبعاد الناس عن هذا المخدّر الذي يسمم الأفكار ويضعف الأجسام. فالخمرة على ما يبدو كانت منتشرة انتشاراً كبيراً إلى حد جعلت كثيراً من الناس يرتادون دورها ويحتسونها ليلاً ونهاراً. وبذلك ضعفت القابليات، كما ضعف الوازع الديني. وكان الخليفة المسترشد يريد أن يبعث في الناس روحاً تدفعهم إلى التخلص من السيطرة السلجوقية، وتنشلهم من حالتهم السيئة، ولكي تكون أفكاره وتوجيهاته مسموعة ومقبولة، بل وذات أثر في تحطيم عوامل الشر ومظاهر الفسق والفجور، ويساعده على ذلك أن الدين الإسلامي ينهى عن الخمرة وشاربيها وذلك لقوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**))[٢] لذا فإن المسترشد بالله الذي تتمثل فيه الروح الدينية تدفع بحماس إلى محاربة هذه الأماكن، وقد نال بعمله هذا رضا الفقهاء ورجال الدين الذين يعملون على صيانة المجتمع الإسلامي من الفساد[٣].

وفي سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م خلال عهد الخليفة الناصر لدين الله تفاقمت ظاهرة شيوع المنكرات ببغداد، مما حدا بحاجب الباب التصدي لإراقة الخمور وأخذ المفسدات[٤]. ومن طرائف هذه الحملة أن إمرأة مفسدة عندما علمت بمداهمة أصحاب حاجب الباب بيتها خرجت إلى الزقاق واضطجعت وأظهرت أنها مريضة وارتفع أنينها، فرأوها على تلك الحالة فتركوها وانصرفوا ولما حاولت بعد ذلك أن

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٨٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٨٥.

[٢] سورة المائدة، آية ٩٠.

[٣] أمين، تاريخ العراق، ج١/ ص١٥٤ – ١٥٥.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص١٠٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٦٠؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٣/ ص٥١٠.

تـنهض خانتهـا قواهـا فلـم تسـتطع وراحـت تصـيح الكـرب الكـرب إلـى أن ماتـت بمكانها[1].

ويمكن القول أن من نتائج قيام الخلفاء بمحاربة دور الفسق والرذيلة قد عمل على كسب الرأي العام من الفقهاء ومن معهم من العوام الذين كانوا يرفضون دائماً شيوع التحلّل الخلقي بين أوساط المجتمع.

ويبدو أن الظروف التي ساعدت على انتشار هذه المظاهر كانت قوية، يدعمها نفوذ الجند السلجوقي وأتباع السلطان ومنهم الشحنة الذي كان يتولى شؤون المواخير ودور الفسق ببغداد سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م وقد أدّى ذلك إلى سخط الرأي العام، مما حدا بالخليفة المقتدي بأمر الله إلى إصدار أوامره بإزالة عناصر الفساد هذه ونقض دور الفسق، فهرب الفسّاق. وكانت هذه الدور من إقطاع الشحنة يستلم بدلاً عنها مبلغ من المال. وقد بذل الخليفة للشحنة ألف دينار ليعوّضه عن إقطاعه، إلاّ أن الأخير رفض المبلغ قائلاً: **((هذهِ يحصل منها ألف وثمانمائة دينار، فكوتب النظام بما جرى فعوّض الشحنة من عنده وكتب بإزالتها))**[2].

إن تعويض الخليفة للشحنة بألف دينار مقابل إزالة عامل الفساد لم يكن مرضياً، لذلك عوّضه الوزير نظام الملك ليصبح المبلغ ألف وثمانمائة دينار حتى يوافق على نقض دور الفسق. وهذا دليل قاطع على ما يقوم به أتباع السلطان السلجوقي من إشاعة المنكرات والمفسدات في مدن العراق، مخلفاً سخط واستياء الرأي العام الذي غالباً ما عبّر عن غضبه بالشكايات المتكررة للخليفة.

ومن نتائج تلك الشكايات أن صدر أمر الخليفة المقتدي بأمر الله سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م بقمع المجون وإراقة الخمور، وكسر أدوات اللهو الموسيقي، ونقض دور أهل الفساد[3].

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص١٠٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٦٠.

[2] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٨٤.

[3] المصدر نفسه، ج١٦/ ص٢٤٣؛ أبو عزة، الحضارة العربية، ص٢٢٦.

وفي السنة التالية ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م تكررت محاولة إزالة ما يشكو منه الأتقياء ونادى المنادون في الأسواق بالوعيد لمن لا يرتدع: ((**وأريقت الخمور، وكسرت الملاهي، ونقضت دور يلجأ إليها المفسدون**))[١].

يتبين لنا من خلال ذلك أن الخليفة المقتدي بأمر الله نجح في كسب الرأي العام من الفقهاء والأتقياء من العامة بمحاربته ظاهرة المنكرات والمفسدات التي كانت شائعة في مدن العراق عامة والمجتمع البغدادي خاصة.

وكانت لأعمال بعض الوزراء دور في إشاعة المنكر بين أوساط العامة وهذا ما حدث سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، حينما قام الوزير عميد الدولة أبو منصور بن جهير ببناء سور بغداد بعد تهديمه. وقد تعاون أهل محال بغداد على بنائِهِ، وتنافسوا فيما بينهم على ذلك وكانوا خلال عملهم يظهرون ضروباً من العبث واللعب وضرب الطبول ومعهم أنواع الملاهي[٢]. وقد احتجَّ الفقهاء على استهتار بعض العامة والجند بالأخلاق وعوّلوا على لزوم بيوتهم. وكتب الفقيه أبو الوفا بن عقيل كبير الحنابلة (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) إلى الوزير ابن جهير تقريعاً غاضباً جاء فيه بأنه يستنكر هذه الأعمال التي تقوم بها بعض العامة على مسمع ومرأى من الوزير، وخوّف الوزير أن يحل بهم غضب الله نتيجة هذا العبث أو أن يسخط عليهم بقوله: ((**... اتق سخط الله فإن سخطه لا تقاومه سماء ولا أرض**))[٣]، ثم قال له كيف تطالب الأجناد بتقبيل دار الخلافة، وتقيم الحد في دهليز الدار المذكور صباحاً ومساءً على قدح نبيذ مختلف فيه (أي مختلف في شربه) ثم ترى العوام يمرحون في المنكر المجمع على تحريمه. وذكر له وجود الزنا ببغداد ولبس الحرير بالنسبة للمقربين من الوزير وأرباب الدولة، ثم يخبره بأنه لا يوجّه إليه لوماً إذا اختفى في بيته عن العوام، لأنه إذا ظهر وسُئِلَ عن هذه الأعمال المنكرة سوف يجيب بما يعتقده

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٢٧.

[٢] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص١٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٥٠٦؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٤٩.

[٣] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧/ ص١٧.

صحيحاً فينكرها علناً، ثم ينصح له باتقاء الله، وعدم سماع المنافقين من الشعراء والأغنياء[1].

وفي الوقت الذي يرزح فيه الناس تحت وطأة شظف العيش والفاقة، كان الحكّام السلاجقة يعيشون حياة لاهية، ويصرفون الأموال الكثيرة في قصور تعج بآلات الطرب ودنان الخمر، وهي تعكس ما كان عليه هؤلاء الحكّام من فساد واستهانة بالرأي العام. فقد عملوا على نشر الفساد الاجتماعي بالإكثار من دور تعاطي الخمر[2].

ومن مظاهر إشاعة هذه المنكرات ما قام به السلطان محمود سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م من عمل وليمة بلغت كلفتها خمسين ألف دينار: ((**وكان فيها الأغاني والملاهي**))[3]. بمناسبة شفاء وزيره أبو طالب السميرمي (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م) من المرض[4].

وقد قام الخليفة المقتفي لأمر الله ببعض الإصلاحات الاجتماعية لكسب الرأي العام وتقوية الجبهة الداخلية، وتفتيت وحدة البيت السلجوقي في العراق، ومن هذهِ الإصلاحات استمراره على نهج ما قام به بعض الخلفاء من أسلافه في محاربة المنكرات ومظاهر الفساد وإلغاء دور الرذيلة. ففي سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م شُهِّر بأربع نسوة في الأسواق مسوّدات الوجوه: ((**لأنهن شربن المسكّر في الشط مع رجال**))[5].

إلاّ أن هذه الإجراءات الشديدة لم تمنع السلاجقة وأعوانهم من عمل المنكرات. ففي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م أمر الشحنة البقش السلاحي أعوانه في مدينة بغداد بمناسبة سلامته من الموت: ((**أن يشعلوا الشمع والقناديل والسرج في جميع المحال**

---

[1] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص١٧؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، مج١/ ص١٧٨ – ١٧٩؛ فهد، تاريخ العراق، ص٣٩١.

[2] ينظر: ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦/ ص١٨٤.

[3] المصدر نفسه، ج١٧/ ص١٩٨.

[4] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥/ ص٢٩٠.

[5] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٣.

ليلاً ونهاراً ثلاثة أيام ... وظهر القيان والمعازف والنساء عليهن الثياب الملونات والمخانيث))[١].

وفي السنة نفسها عندما تزوج السلطان مسعود من سفرى بنت دبيس بن صدقة أمر بأن تعلّق بغداد سبعة أيام[٢]: **((فظهر بالتعاليق فساد عظيم بضرب الطبول والزمور والحكايات، وشرب الخمر ظاهراً))**[٣].

إن إشاعة الفساد من قبل الحكام السلاجقة ومحاولتهم تخريب البناء الاجتماعي للمجتمع قد أثار الرأي العام من رجال الدين والأتقياء، وقاموا بالتصدي لمثل هذهِ الحالات. ففي سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م تكررت مثل هذه الاحتفالات عندما ولدت زوجة السلطان مسعود ولداً: **((فعلقت بغداد وظهرت المنكرات، فبقيت ثمانية أيام))**[٤]. وأمام تفشي المنكرات في بغداد مضى الفقيه ابن الكواز الزاهد إلى القائمين على هذهِ الاحتفالات وأخبرهم بسخط الرأي العام عليهم وهددهم قائلا: **((إن أزلتم هذهِ وإلاّ بتنا في الجوامع وشكونا إلى الله تعالى))**[٥] فما كان من السلاجقة إلاّ أن حطوا التعاليق وأوقفوا الاحتفالات وبعدها مات الولد[٦].

وفي سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م وصلت إلى بغداد سفن فيها خمر: **((فربطت مما يلي باب المدرسة، فأنكر الفقهاء ذلك، وجاء الأعاجم فكبسوا المدرسة وضربوا الفقهاء، ولزم ابن الرزاز المدرس بيته ...))**[٧].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٧.

[٢] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٠٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٣/ ص٣٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢١٣.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٣٢٨؛ الدليمي، العلاقات بين الخلفاء، ص٣٨.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص٣.

[٥] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٦] المصدر نفسه والجزء والصفحة.

[٧] المصدر نفسه، ج١٨/ ص٢٦.

وفي سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م أخرج البلخي الواعظ[١] من بغداد بتوقيع بعد أن أسمعه حاجب الباب المكروه الذي كان يشرب الخمر[٢]، وذلك أن الفقيه البلخي كان شديداً في محاربة المنكرات والمفسدات ومنها شرب الخمر[٣].

وعلى الرغم من ردود الفعل تجاه وقوف الفقهاء ضد أعمال إشاعة الفساد الذي يقوم به رجال الدولة ومنهم السلاجقة، إلاّ أن ذلك لم يثنِ عزيمتهم بالتصدي لمحاربة الفساد والعمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لاعتقادهم أن قيادة المسلمين الدينية تقع على عاتقهم.

وسجّل لنا أحد المؤرخين خبراً عن تورط بعض الوعّاظ بعمل المنكرات وكان للرأي العام في ذلك موقفاً مهماً، وهذهِ الحادثة جرت سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، حيث أخذ المغربي الواعظ مكشوف الرأس إلى باب النوبى لأنه وجد في داره خابية نبيذ وآلات لهو من عود وغيره مخبأة فيها[٤]، مما أثار سخط العامة حيث انهالوا عليه بالسب والشتائم إلى أن حُبس[٥] كما ذكرنا سابقاً.

وفي سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م نُقل إلى الخليفة الناصر لدين الله أن حاجب الباب ابن هبيرة يعشق امرأة مغنية يقال لها خطليشة الظفرية، وكانت مستحسنة، وأنه يمضي إليها في الجانب الغربي من بغداد فلم يصدق ذلك، فانتدب الخليفة جماعة لمراقبة ابن هبيرة ليعلمونه صحة ما ورد عنه. وكان الخليفة يكثر الجلوس في أحد البساتين المطلة على نهر عيسى، وكان لحاجب الباب بستان هناك، وقد عمّر فيه

---

[١] **البلخي الواعظ:** هو الفقيه محمد بن عبد الله بن عمر بن محمد بن الحسن أبو الحياة الواعظ. ولد ببلخ سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م. سمع وتتلمذ على شيوخ عدّة في دمشق ومصر، ثم قدم بغداد وسكنها ووعظ بالنظامية. وكان يحارب الخمر وشراء الجواري المغنيات وسماع الملاهي المحرّمة وأخرج من بغداد مراراً لذلك. توفّى سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٢/ ص٢٦١ – ٢٦٢؛ ابن حجر، لسان الميزان، ج٥/ ص٢١٧.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢٣٧.

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٢/ ص٢٦٢.

[٤] المصدر نفسه، ج٣٦/ ص٢١٨.

[٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٩.

داراً حسنة، وانه يمضي إليه والناس بين يديه والخليفة يبصره[1]. ومن الجدير بالذكر أن حاجب الباب ابن هبيرة المذكور قد منع الناس من شرب الخمر وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وبالغ بإظهار الدين[2]. وبينما الخليفة جالس في ذلك البستان ينظر من الدار التي هو فيها، وإذا بخطليشة الظفرية قد أقبلت إلى حاجب الباب ابن هبيرة فقال الخليفة: **((هذا يوم ابن هبيرة))**[3] ثم أمر الحرس بكبس البستان والقبض على ابن هبيرة وعشيقتهُ وتشهيرهما في البلد[4]. وقد أشار الخليفة الناصر لدين الله لما يقوم به حاجب الباب بقوله: **((فقد أمرضني هذا الكلب وأفعاله القبيحة لأنه يأمر الناس بالمعروف ولا يفعله، وينهاهم عن المنكر ويأتيه))**[5].

وفعلاً تم القبض عليهما متلبسين بالمنكر فأخذوهم وخرجوا بهما من البستان وضربوهما ضرباً شديداً حتى أشرفا على الهلاك تحت أنظار الخليفة، ثم عبروا بهما إلى الجانب الشرقي وهما على تلك الحال فطيف بهما في نهر معلى في السوق والضرب يأخذهما إلى أن تم حبسهما[6].

نستنتج من ذلك أن حاجب الباب المذكور قد عمل على محاربة المنكرات بإراقة خمور الحانات ومطاردة المفسدات، مما أدى إلى كسب الرأي العام. إلاّ أن ذلك كان ظاهراً، لكن كبسه متلبساً بالمنكر أغضب الخليفة الناصر الذي أمر بمعاقبته وتشهيره في محال وأسواق بغداد ثم حبسه بسبب أنه ينهى الناس عن المنكر ويأتيه.

وأخيراً يمكن القول أن للرأي العام وسائل عديدة لمحاربة المنكرات والمفسدات التي كانت شائعة في محال ومدن العراق، منها الإدانة والاستهجان مرة، ومحاربة المفسدات وملاحقتهم مرة أخرى. ومرة ثالثة بالمجابهات المكشوفة التي كثيراً ما

---

(١) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٣١.

(٢) ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص١٠٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٦٠؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٣/ ص٥١٠.

(٣) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٢٣١.

(٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٥) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٣٢.

يتصدى لها علماء الدين وأتباعهم ضد مرتكزات هذا الاتجاه وهم يجوبون محلاّت الطرب والغناء والمواخير ويكسرون عنوةً أواني الخمر، ويحطمون آلات الموسيقى.

أما سلطة الدولة فقد اتخذت عدة إجراءات للحد من عمل المنكرات منها القمع، والمنع، والمصادرات، والعقوبات.

المبحث الرابع: الفتن الدينية والمذهبية.

كان للاضطراب السياسي وسوء الحالة الاجتماعية في العراق في عصر السيطرة السلجوقية أثر في الاضطراب الديني والمذهبي، حيث كثر المتعصبون واستفحل النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة، وعداوة أهل العلم بعضهم للبعض الآخر، وغلبة الجفاف على المباحث العلمية والفلسفية، واستخدام العلم والفلسفة أداة للمجادلات المذهبية، وجعل المباحث العلمية داخل نطاق الاحساسات المذهبية[1]. كلها عوامل ساعدت على ظهور الفتن الداخلية التي أثّرت على وحدة المجتمع وتماسكه.

وقد اشتدَّ النزاع المذهبي بين أتباع المذاهب وتطور هذا النزاع ووصل إلى درجة الحرب أحياناً.

إن من عوامل تذمّر الرأي العام في العراق في هذهِ المدّة كثرة هذهِ الفتن والمنازعات التي عصفت بالبلاد ومزّقت كيانه الاجتماعي، وفرّقت بين الناس، ومنها ما جلب عليهم الويل والثبور وعظائم الأمور.

وكان لسلطة الخلافة والفقهاء، والعوام موقفٌ تجاه هذهِ النزاعات. ومن الفتن المذهبية بين أهل السنّة ما حصل سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م بين الفقهاء الحنابلة والأشاعرة[2] في بغداد[3]، وتبعهم من العامة الجمع الغفير، وأنكر الحنابلة الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، والقنوت في الفجر، ووصلوا إلى ديوان الخليفة، ولم ينفصل حال، وأتى الحنابلة إلى مسجد بباب الشعير فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة فأخرج

---

[1] غني، تاريخ تصوف در اسلام، ص٤٦٤.

[2] **الأشاعرة:** هم أصحاب المذهب الأشعري الذي تأسس على يد أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) مؤسس علم الكلام في الإسلام سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م الذي حارب مذهب المعتزلة ووافق أهل السنّة في كثير مما ذهبوا إليه. وقد انتشر في بغداد أولاً وخراسان ثانياً بجهود كبار تلامذته، حتى أصبح ممثلاً لمذهب أهل السنة في العقائد وأصول الدين. وقد ناصر أصحاب المذهب الشافعي الأشاعرة ولا يكاد يحس بأن هناك فرقاً يذكر حتى من ناحية الشكل. ينظر: ابن النديم، الفهرست، ص٢٣١؛ حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٧٦ – ١٧٧.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥/ ٣٤٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٣١١؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج١/ ص٣٤٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٦٦.

مصحفاً وقال أزيلوها حتى لا أتلوها[١]. وكان من نتيجة هذه الفتنة أن تأخّر الأشاعرة عن تأدية صلاة الجُمُعات خوفاً من الحنابلة[٢].

وفي سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م هاجم العامة من أصحاب أبي سعد بن أبي عمامة الحنبلي الواعظ (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) مدرساً لمذهب المعتزلة[٣] المسمى أبو علي بن الوليد فسبوه وشتموه لامتناعه الصلاة في الجامع الذي يعظ فيه ابن أبي عمامة، وكان العامة قد استحلوا دم مَن يذهب مذهب المعتزلة، ونسبوه إلى الكفر. وقد بلغت الحماسة عند العامة أن ضربوا هذا المدرس وجرحوه حتى أخذ يصرخ صراخاً عالياً، ومن ثم تركوه خوفاً أن يجتمع أنصاره[٤]. ومثل هذا الفعل يمكن أن يمثل سلوكاً جمعياً[٥].

وفي سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م تجددت الفتنة بين الحنابلة والأشعرية بسبب ما قام به الوزير السلجوقي نظام الملك بالسماح للفقيه القشيري[٦] أن يحاضر في المدرسة النظامية ببغداد، وفي محاضرته الأولى أخذ يذم الحنابلة ويتهمهم بالتجسيم (أي بخلع صفات الإنسان على الله). ومال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) إلى نصرة القشيري، وكَثُر أتباعه والمتعصبون له، وقصد خصومه الحنابلة

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٣٢٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٠/ ص٢٣.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥/ ص٣٤٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٦٦.

[٣] **المعتزلة**: من الفرق الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي، وازدهرت في عهد الخليفة المأمون (ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م) الذي وافق المعتزلة في القول بخلق القرآن، واستخدم نفوذه في إقرار هذه العقيدة في أذهان الناس، وقد انقسمت فيما بينها إلى عشرين فرقة. ينظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٧٨ – ١٣٧.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٨٨.

[٥] القيسي، طبيعة المجتمع العراقي، ص١٧٦.

[٦] **القشيري**: هو أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري. أخذ العلم من أبيه وأقاربه، وسمع الحديث من جماعة ورواه. وكان له شعر مليح. توفّى سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٢٠٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٩/ ص٤٢٤ – ٤٢٥؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٧/ ص١٥٩ – ١٦٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص٤٥.

ومن تبعهم إلى رمي أصحاب القشيري بالحجارة مما أدّى إلى حدوث الفتنة[١]، وتراشقت الناس بالحجارة ووصلت أضرارها إلى حاجب باب الخليفة، ونهب سوق الثلاثاء وسوق المدرسة النظامية، وقتل الحنابلة جماعة من أصحاب القشيري[٢].

وقد انقسم الرأي العام في بغداد تجاه الفتنة على فريقين، فريق يؤيد الحنابلة من جهة، وآخر يؤيد الأشاعرة والشافعية. وأمام هذهِ الأحداث قام الخليفة المقتدي بأمر الله بعدّة إجراءات لتهدئة الرأي العام منها إنه أمر وزيره فخر الدولة بن جهير بالتوسط بين الفريقين المتنازعين وتسوية الأمر بينهما. وقام الوزير بجمع رؤساء كل فريق وتم الصلح بينهما[٣]. كما قام الخليفة بمنع الوعّاظ من الوعظ ولم يأذن لهم بمعاودة الجلوس إلاّ في سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م عندما جمعهم وطلب منهم أن لا يخلطوا وعظهم بذكر شيء من الأصول والمذاهب[٤].

ويمكن القول أن التناحر المذهبي في هذهِ المدّة قد أثّر في نشاط الوعّاظ وجعلت الاستفادة منهم قليلة، وذلك أن روح التعصب لم تكن سائدة في صفوف العامة فقط، بل شملت الوعّاظ أنفسهم مما أدّى إلى المنافسة والتحاسد فيما بينهم وأن يشنع بعضهم على بعض[٥]. لذلك أخذت الخلافة في مراقبة الوعّاظ والتدخل متى ما عرفت أن بعضهم يسيء القول أو يشتط في أحكامه لمنع حدوث الفتنة.

وظلت الأمور هادئة على مدى بضع سنوات بين أهل المذهبين حتى تجددت الخصومة سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م وكان المثير لها في هذهِ المرّة البكري المغربي[٦].

---

[١] الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣١/ ص٣٤؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٣/ ص٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١١٥؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ ص٥٨٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٩.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص١٨٢؛ الذهبي، العبر، ج٣/ ص٢٧١.

[٣] الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٧؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦/ ص١٨٣؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤/ ص٢٣٥؛ سعادة، من تاريخ بغداد، ص٧٩.

[٤] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦/ ص٢١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٢١.

[٥] فهد، العامة ببغداد، ص٢٢٣.

[٦] **البكري المغربي:** هو أبو بكر عتيق البكري المغربي الأشعري. توفّى سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م. ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٨/ ص٥٦١ – ٥٦٢.

وكان واعظاً أشعري المذهب وقد قصد الوزير نظام الملك فأحبه ومال إليه وسيّره إلى بغداد وأجرى عليه الجراية الوافرة، فوعظ بالمدرسة النظامية[١]، وأخذ يذكر الحنابلة ويعيبهم، وقال إن ابن حنبل ليس كافراً، وإنما أتباعه كفرة. مما أدّى إلى حدوث فتنة، حيث انهمر على المصلين وابل من حجارة الآجر رماهم بها فريق من الحنابلة كان قابعاً على سطح الجامع رداً على أقوال البكري[٢].

وفي السنة نفسها وانتقاماً من الحنابلة لمهاجمتهم البكري الذي كان يقوم بزيارة لقاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني، داهم جنود سلاجقة بيت أبي يعلى الفراء الحنبلي الشهير (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) وصادروا كتبه[٣].

يتضح لنا من خلال هذهِ الأحداث أن البكري الواعظ عمل على إثارة الرأي العام البغدادي، وخاصةً أصحاب المذهب الحنبلي من خلال تكفيرهم وسبهم وذلك بدعم من السلاجقة وخاصةً الوزير نظام الملك الذي أذن له بالوعظ في المدرسة النظامية ومساجد بغداد بحماية الشحنة وعساكره، مما أدّى إلى حدوث الفتنة بين الطرفين، إلاّ أنها لم تصل إلى مرحلة التصادم الفعلي.

وفي سنة ٥٢١هـ/ ١٢٧ام تجددت الفتنة عندما ورد أبو الفتوح الاسفرائيني[٤] فوعظ ببغداد وجعل شعاره إظهار مذهب الأشاعرة وبالغ بالتعصب، وأخذ يذم الحنابلة[٥] حتى هاجت فتنة كبيرة بينهم، فمُنع من الجلوس، فنصرهُ قوم من

---

[١] الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٢٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٤٠؛ الصفدي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص٥٦٢.

[٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٢٤؛ سعادة، من تاريخ بغداد، ص٨٢.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٢٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٤٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٨/ ص٥٦٢.

[٤] **أبو الفتوح الاسفرائيني:** هو أبو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد ويعرف بابن المعتمد الواعظ المتكلم. ولد سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م بأسفرائين، دخل بغداد فأقام بها مدّة. توفّى سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص١٤٠ – ١٤١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١١٨.

[٥] الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٠٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٩٨.

الأكابر يميلون إلى اعتقاده فأعادوه، مما أدّى إلى استياء وغضب العامة من الحنابلة في بغداد فقاموا برجم أبي الفتوح هو وأصحابه، وكان إذا ركب يلبس الحديد ومعه السيوف المجدبة تحفظه، ثم اجتاز سوق الثلاثاء **(وهو حي حنبلي)** فرجمه العوام بكلب ميت[1]. وعظمت الفتنة مما أثار سخط الخليفة المسترشد بالله، حيث تدخّل فأمر بمنعه من الوعظ وطرده من العراق وألزم بالإقامة ببلده[2]. ونودي ببغداد أن لا يذكر أحد مذهباً ولا يثير فتنة[3]، وبذلك استطاع الخليفة تهدئة الرأي العام الغاضب وإخماد الفتنة.

وفي السنة ذاتها وُجد عند أحد أصحاب الواعظ أبي الفتوح قرآن وقد كتب بين كل سطرين منه شعر على وزن أواخر الآيات فحمل إلى الديوان فسئل عن ذلك فأقرَّ، فما كان من العوام في بغداد إلاّ أن: **((حملوه على حمار وشهّر في البلد ونودي عليه، وهمت العامة بإحراقه...))**[4].

وفي سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م قدم مع السلطان مسعود الفقيه الحسن النيسابوري[5]، وجلس بجامع القصر وجامع المنصور وأخذ يتعرض لمعتقدات الناس الدينية، وكان يلعن الأشعري جهراً على المنبر ويقول: **((كن شافعياً ولا تكن أشعرياً، وكن حنفياً ولا تكن معتزلياً، وكن حنبلياً ولا تكن مشبهاً ...))**[6]. مما أدّى إلى سخط العامة ببغداد. ومن أجل تهدئة الفتنة مضى الفقيه أبو الحسن الغزنوي الواعظ (ت٥٥١هـ/ ١١٥٦م) إلى السلطان فأخبره بالفتن وقال له أن أبا الفتوح صاحب فتنة وقد رُجم

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٤٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص١٤١؛ ابن كثير، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(2) الذهبي، العبر، ج٤/ ص١٠٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤/ ص١١٨.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٢٦.

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٢٤٥ – ٢٤٦.

(5) **الحسن النيسابوري:** هو أبو المفاخر الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم الشغري الحنفي، من أهل نيسابور. كان فقيهاً أديباً. قدم بغداد فوعظ بها. توفّى سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج٩/ ص٣٦٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٢٨.

(6) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٣١.

ببغداد مراراً والصواب إخراج النيسابوري من البلد. فتقدم السلطان مسعود بإخراج النيسابوري إلى بلده، وبذلك هدأت الفتنة[١].

يتضح لنا من خلال ذلك أن الفتنة التي أثارها الواعظ أبو الفتوح الاسفرائيني سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م وما خلفته من أضرار في تمزيق وحدة المجتمع، قد لعب دوراً في تحرّك الغزنوي الواعظ وتذكير السلطان بالآثار المترتبة على فتنة الحسن النيسابوري إذا ما استمرّ بالوعظ فكانت نتيجة ذلك أن طُرد الأخير من بغداد.

وإلى جانب ذلك قام الخليفة المقتفي لأمر الله عقب الفتنة التي أثارها النيسابوري بأن: **((لا يذكر أحد مذهباً ولا يثير فتنة))**[٢] وذلك لإخماد جذوة الخلافات المذهبية التي أذكاها بعض الفقهاء ممن كانت لهم علاقة بالسلاطين والأمراء والسلاجقة.

وقد استمرت سلطة الخلافة في التدخل لمنع الفتن وتهدئة الرأي العام عند حدوث الأزمات المذهبية، ومثال ذلك ما حدث سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٥م عندما خرج الخليفة المستنجد بالله لأداء صلاة الجمعة، حيث شاهد الشتم والسب بين العوام بسبب تفسير القرآن لأحد القصاصين المسمى **(ابن المشّاط)** فما كان من الخليفة إلاّ أن أصدر أمراً بمنع القصاصين كلهم من القصص[٣].

وبمجرد أن قام ابن شقران[٤] بالمبالغة بنصرة مذهب الأشعري أثناء الوعظ، وكإجراء وقائي لمنع حدوث الفتنة تقدم الوزير ابن هبيرة بخلعه وذلك بإنزاله من المنبر ومنعه من الوعظ[٥].

---

[١] المصدر نفسه، ج١٨/ ص٣٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦/ ص٢٢٥؛ سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص١٤١.

[٢] ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص٣٦؛ مطشر، عصر الخليفة المقتفي لأمر الله، ص١١١.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص١٧٢.

[٤] **ابن شقران:** هو أبو الفضائل بن شقران البغدادي. تتلمذ على يد أبي العز الواعظ، ثم صار فقيهاً بالنظامية ثم معيداً. توفّى سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٥م بعد أن ترك الوعظ أثر مرض طويل. ينظر: ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨/ ص١٧٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٩/ ص١١٢.

[٥] ابن الجوزي، المصدر نفسه والجزء والصفحة؛ الذهبي، المصدر نفسه والجزء والصفحة.

وقد عمل السلاجقة على نهج سياسة تحريض الأهالي بعضهم على بعض وتوسيع شقة الخلاف المذهبي، وذلك لتحقيق مصالحهم حيث تسامحوا في التقاتل بين المحلاّت على أسس واهية وضعيفة، وتجنبوا تطبيق سياسة حازمة ضد المعتدين، مما تسبب في قتل أناس كثيرين، ومثال ذلك ما حصل سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م عندما ثارت فتنة بين السنّة والشيعة في بغداد وقتل جماعة من الطرفين[١]. فتولى العميد والشحنة قتال أهل السنّة، ثم حاصرا الطائفتين أياماً فلم يقدر أحد أن يظهر، فجبي لهما مال تولى جبايته نقيب السنّة ونقيب الشيعة[٢]. وعندما علم الخليفة المقتدي بأمر الله أمر العميد والشحنة وألزمهما بإعادة الأموال إلى الأهالي[٣].

وعندما تجددت الفتنة سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م بين أهل الكرخ وباب البصرة تدخّل الشحنة سعد الدولة كوهرائين فقام مع أصحابه بنهب الكرخ وإحراقها[٤].

وقد تكررت الفتنة سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م فقام الشحنة بإحراق باب البصرة مستغلاً استمرار الفوضى والفتن بين أبناء المحال مما أثار غضب واستياء الرأي العام في بغداد، وعندما علم الخليفة المقتدي بأمر الله أرسل إلى الشحنة يأمره بالكف عنهم، فكفَّ[٥].

يتبين لنا من خلال ذلك أن السلاجقة عملوا على إثارة الرأي العام من خلال تأجيج الفتن بين محال بغداد واستغلالها لصالحهم، مقابل ذلك عملت سلطة الخلافة على تهدئة الرأي العام عند إثارة الاضطرابات الداخلية حيث تدخلت لفض النزاعات ومحاسبة المتسببين في ذلك واتخاذ مختلف السبل للقضاء على تيار الفتنة، ومنها الاستعانة بالزعامات المحلية، أو بعض الشخصيات الدينية لفض النزاعات، ومنها ما

---

[١] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٧/ ص١٨٩.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٤٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢/ ص٣٢.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٥٦.

[٤] ابن الجوزي، المنتظم ، ج١٧/ ص٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣/ ص٣٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٤٥.

[٥] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٩٩؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٤٧.

حصل سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م عندما اندلعت الفتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة قتل فيها نحو مائتي شخص بعد أن عجز نائب الشحنة من تهدئتها، وأخذت الفتنة بالاتساع، وصار العوام يتبع بعضهم بعضاً، فيقتل القوي الضعيف، ويأخذ ماله، وحمل الناس السلاح وعملوا الدروع وتراموا بالعصي والنشّاب[١]. إلى أن تدخّل الخليفة المقتدي واستعان بطلب قوات عسكرية من سيف الدولة صدقة بن مزيد (صاحب الحلة) الذي قام بإرسال عساكره إلى بغداد فطلبوا المفسدين وهدمت دورهم، وقتل بعضهم، ونفي البعض الآخر، فسكنت الفتنة[٢].

وفي سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م استعانت الخلافة بالنقيبين أبي القاسم الذي تولى أمر باب البصرة وجميع محال أهل السنّة، والرضا الذي تولى الكرخ فانكفَّ الشر[٣].

وفي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م استعانت بالنقيب الظاهر الذي أصلح بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة[٤]. على أن الخلافة كانت تضطر عندما لا تجدي الطرق السلمية نفعاً في فض المنازعات إلى تولية بعض الأشخاص الذين عرفوا بالشدّة أمر المحلاّت المتنازعة، وكان ابن شاووش[٥] من هؤلاء الذين فوضت إليهم الخلافة إنهاء النزاع الذي قام بين محلتي الكرخ وباب البصرة سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م: **((فخافوا سطوته وكفوا))**[٦].

---

[١] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦/ ص٢٨٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣/ ص٨؛ ابن كثير، المصدر نفسه، ج١٢/ ص١٣٥؛ سعادة، من تاريخ بغداد، ص٧٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٨/ ص٤٦١؛ الذهبي، العبر، ج٣/ ص٣٠٤.

[٣] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧/ ص٨٤.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص١٣٨؛ القزاز، الحياة السياسية في العراق، ص١٧١.

[٥] **ابن شاووش:** هو أبو داود شرف الدولة سليمان بن أرسلان بن جعفر بن على المتوج بن أبي الفضل. ولي النظر بأعمال نهر عيسى، وتنقّل في الولايات، وناب في وزارة الناصر لدين الله أول خلافته ثم عزل بعد شهرين لشيخوخته. توفّى سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٠/ ص٢٣٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥/ ص٢١٧ – ٢١٨.

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢١١.

وقد شهدت سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م صلحاً بين السنة والشيعة حيث: **((اصطلح أهل الكرخ مع بقية المحال، وتزاوروا وتواكلوا وتشاربوا، وكان هذا من العجائب))**[١].

وقد انتقد بعض المؤرخين القدامى والمحدثين المحرضين على الفتن المذهبية بين السنة والشيعة. فقال عنهم ابن الجوزي: **((وقد جرى في هذا بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة على مر السنين من القتل وإحراق المحال ما يطول ذكره، وترى كثيراً ممن يخاصم في هذا يلبس الحرير ويشرب الخمر ويقتل النفس، وأبو بكر وعلي بريئان منهم))**[٢].

وقال عنهم الوردي: **((نسيَ هؤلاء المغفلون أن إماميهم كانا من حزب واحد – إذ كانا من أعداء السلاطين))**[٣].

ومن الفتن الدينية بين المسلمين وأهل الذمّة، ما جرى سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م، حيث اندلعت فتنة بين اليهود وعامة المسلمين بالمدائن[٤]، نتيجة قيام مؤذن بالآذان قرب كنيسة لليهود فنالوا منه. وشكا منهم المسلمون إلى ديوان الخلافة. فلم يجدوا مساعدة من لدن الدولة حيث قام جماعة من الجند فضربوهم ومنعوهم من الاستغاثة فانهزموا واستغاثوا بالعامة، وعظمت الفتنة، وخربوا الأسواق، ونهبوا دكاكين اليهود، كما نهبوا كنيساً لليهود الذي بدار البساسيري ونقضوا شبابيكها، وقطعوا التوراة وأحرقوها، واختفى اليهود، ولم يهدأ العامة إلاّ بعد أن تدخّل الخليفة المستضيء وقام

---

(١) المصدر نفسه، ج١٧/ ص١٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٤٩.

(٢) تلبيس إبليس، ص٣٦٣.

(٣) وعّاظ السلاطين، ص٢٤٩.

(٤) **المدائن:** بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ، الغالب على أهلها التشيّع على مذهب الإمامية، وأول مَن اختط المدينة في هذا الموقع أردشير بن بابك الخرمي، وملكها ملوك فارس حتى أيام عمر بن الخطاب (رض). ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥/ ص٧٤ – ٧٥.

بمعاقبة يهود المدائن حيث أمر بنقض الكنيس هناك وأن يجعل منه مسجداً، فهدأت الفتنة[1].

ويمكن أن نستنتج مما سبق أن الرأي العام تجاه الفتن الدينية والمذهبية المتمثل بسلطة الخلافة وبعض الفقهاء والعوام لم يكن صامتاً. وقد اتخذوا عدة وسائل لتهدئة المنازعات بين الأهالي، منها معاقبة المحرضين، وأخرى الاستعانة بالزعامات المحلية أو الدينية التي لها تأثير كبير على الناس. وقد ترسل في بعض الأحيان أحد الأشخاص الذين عرفوا بالشدّة لكي يرهبوا مثيري الاضطرابات، وكان من نتيجة ذلك أن هدأت الفتن، التي عملت على سفك الدماء، وساعدت في تمزيق الكيان الاجتماعي.

---

[1] ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨/ ص٢٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ص٨٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج٦/ ص٣٥٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٠/ ص٢٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٨٩؛ كوهين، بين الهلال والصليب، ص٣٧٥.

الخاتمة

في ختام دراستنا المعنونة **(الرأي العام في العراق في عصر السيطرة السلجوقية)** لابدّ من تسجيل أهم النتائج التي توصلنا إليها. إذ أوضحت لنا الدراسة العديد من النتائج، وإثبات الكثير من الحقائق منها:

١. إن الأوضاع العامة السيئة المتمثلة بالحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي شهدها العراق في ظل السيطرة السلجوقية ، عملت على بلورة الرأي العام من خلال المواقف التي اتخذتها الحكومة والعوام من مختلف طبقات المجتمع للتغلب على تلك الأوضاع.

٢. كشفت الدراسة أن الرأي العام في العراق كان مؤثراً وفاعلاً، ولم يكن صامتاً تجاه تجاوزات السلاطين السلاجقة وأتباعهم على حرمة ومقدرات البلد منذ سيطرتهم على العراق متخذاً وسائل عدّة للتعبير عن تذمّره، منها الشكوى، وإذا لم ينفع ذلك تتحول الشكايات إلى مصادمات مباشرة مع السلاجقة. وقد يعبّر الرأي العام عن سخطه بالاشتراك مع الجيش للدفاع عن مصالحهم وكرامتهم. ومن نتائج ذلك أن تحققت مطالب عامة الناس، وذلك بالإنتصار على المعتدي في معظم المصادمات والمعارك التي خاضوها ضد السلاجقة.

٣. خلّفت تصرفات بعض الوزراء في العراق آثارا عديدةً في نفوس الناس، منها أن بعضهم عمل على كسب الرأي العام، وهؤلاء اتسموا بحسن السيرة، والعدالة وإنصاف الرعية، مما أدّى إلى التفاف الرأي العام حولهم. إذ غالباً ما تقوم العامة عند لقائهم بمصافحتهم والدعاء لهم وإطلاق أشعار المدح تعبيراً عن سرورهم.

في مقابل ذلك أن الرأي العام اتخذ وسائل عدّة للتعبير عن تذمَره تجاه سياسة التجاوزات لبعض وزراء الخليفة والسلطان للحد من سطوتهم وظلمهم، منها الشكوى للسلطة العليا، أو القتل. وكان عزل الوزير ومصادرة أموال البعض منهم، وسجنه أو قتله والتمثيل بجثة البعض الآخر نتيجة حتمية لتذمّر الرأي العام من سياسة السطوة والاعتداء على العوام.

٤. على الرغم من النفوذ الإداري والعسكري لبعض نواب السلاطين من الشحنة والعميد وتجاوزهم لاختصاصاتهم، وسطوتهم وظلمهم للرعية في إثارة الفتن بين المحال،

وقتل الناس ومصادرة أموالهم. إلاّ أنهم جوبهوا برد فعل كبير من الرأي العام الساخط، ومنها الاستغاثة والشكوى، ومساندة العوام للخلفاء في مواجهة تعدياتهم، وكان من نتيجة ذلك أن تم عزل بعضهم وقتل الآخر، وهزيمة من تم مواجهته عسكرياً، فانحسر خطرهم.

٥. أثبتت الدراسة أن بعض كبار الموظفين الذين تقلدوا مناصب عليا في الدولة قد تورطوا بفساد إداري ومالي، وذلك بتجاوزهم على المال العام، وظلمهم للرعية مما أثار غضب الرأي العام الذي قام بدوره بمحاسبة المفسدين وبطرق شتى، فمنهم مَن أعفي، ومنهم مَن سُجن، وبعضهم قُتل، وهي نتيجة لما فعله المفسدون من التجاوز على شرف المهنة الوظيفية لحساب مصالحهم الشخصية.

٦. إن الرأي العام المتمثل بالخليفة والعوام لم يقف مكتوف الأيدي تجاه عمليات القتل والتخريب والنهب الذي قامت به الزعامات المحلية والقبائل البدوية. فمن جهة قام العوام بلبس السلاح للدفاع مباشرةً عن أرواحهم وممتلكاتهم، ومن جهة أخرى عملوا على حث السلطة والوقوف إلى جانبها لمحاربتهم وردعهم. كما كان للوسائل السلمية أثر كبير في كسب تلك القبائل والحد من خطورتهم، وذلك بإعطائهم امتيازات مادية ومعنوية مقابل حمايتهم للمناطق التي يسكنونها.

٧. توصلنا من خلال البحث أن حركة العيارين في العصر العباسي المتأخر قد أُفرغت من محتواها الإنساني والوطني، إذ أخذوا يزرعون الظلم والخوف في نفوس العوام من الأغنياء والفقراء عن طريق النهب والقتل، دون إحداث تغيير في الأوضاع العامة، الأمر الذي عمل على تذمّر الرأي العام الذي لم يصمت أمام اعتداءاتهم متخذاً وسائل عدة للحد من سطوتهم، وكان من نتيجة ذلك أن قتل الكثير منهم، وصلب آخرون مما أدى إلى تحجيم نشاطهم.

٨. اتفق الرأي العام المتمثل بالخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية، والفقهاء، والعوام من أهل العراق وبقية بلاد الإسلام للوقوف ضد حركة الباطنية النزارية ورجالها الذين لجأوا إلى أسلوب الاغتيال في تصفية أعدائهم من المسلمين. وكان أبرز هذه المواقف تتبع العوام ومراقبة كل مَن يشتبه به من الإسماعيلية النزارية، وذلك للحد من عمليات الاغتيال التي لم تنتهِ إلاّ بعد سقوطهم على يد المغول.

٩. كان لسلوك الفقهاء دوراً كبيراً في التأثير على الرأي العام وذلك لأنهم يمثلون النخبة المثقفة في المجتمع.

١٠. إن دور الفقهاء في توجيه الأحداث السياسية الكبرى في الدولة والمجتمع كان محدودا، على الرغم من كثرة أعدادهم، حيث أنهم قصروا في معالجة المشاكل التي يعاني منها المجتمع أشد المعاناة. على الرغم من أن مركزهم كان مركز قادة.

١١. كشفت الدراسة أن العوام في بغداد والمدن العراقية الأخرى خلال حكم السلاجقة يميلون إلى سماع المواعظ في المجالس العامة، وقد اختلفوا فيما بينهم في مدى تأثيرهم في الرأي العام، وفي ازدحام مجالسهم بناءً على سعة ثقافتهم، وأسلوب مخاطبتهم لمشاعر الناس.

١٢. اتخذ الرأي العام وسائل عدّة لمحاربة المنكرات والمفسدات، منها الإدانة والاستهجان، ومحاربة المفسدات وملاحقتهم من قبل الفقهاء الذين تصدوا لهذهِ المهمة إيماناً منهم بتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما سلطة الدولة فقد اتخذت إجراءات عدّة للحد من عمل المنكرات منها القمع، والمنع، والمصادرات، والعقوبات.

١٣. إن الرأي العام المتمثل بسلطة الخلافة وبعض رجال الدين والعوام لم يكن صامتاً تجاه الفتن الدينية والمذهبية التي عملت على سفك الدماء، وساعدت في تمزيق الكيان الاجتماعي، فعملوا على معاقبة المحرضين على الفتن، كما قاموا بالاستعانة بإحدى الزعامات المحلية أو الدينية التي لها تأثير كبير على الأهالي للقيام بالصلح، وقد ترسل الخلافة في بعض الأحيان أحد الأشخاص الذين عرفوا بالشدّة لكي يرهبوا مثيري الاضطرابات. وبذلك استطاعوا حقن دماء المسلمين وتهدئة الفتن.

هذا ما ظهر لنا في موضوع الرأي العام. فإن كنت أصبت فهذا ما أردت، والله قصدت، وبالله استعنت، وإن كنت أخطأت فأرجو من الله تعالى أن يغفر لي. والحمد لله أولاً وآخراً. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين وصحبه الغر الميامين.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

أولاً: المخطوطات.

*** ابن حمدون، بهاء الدين محمد بن الحسن (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م).**

٢- التذكرة الحمدونية، ج١٢، نسخة مصورة في المكتبة المركزية بجامعة بغداد برقم (١٢٣٧).

*** السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).**

٣- ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين، نسخة في مكتبة جامع الأزهر برقم (١٣٨٣ خصوصي)، وبرقم (٤٢٠٥٩ عمومي).

*** ابن أبي عذيبة، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (ت٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م).**

٤- تاريخ دول الأعيان، ج٤، نسخة في مكتبة المتحف العراقي برقم (٩٢٠١).

*** ابن وهاس، أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت٨١٢هـ/ ١٤١٠م).**

٥- العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، نسخة في مكتبة المجمع العلمي العراقي برقم (٥٨٦).

ثانياً: المصادر المطبوعة.

*** الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).**

٦- المستطرف في كل فن مستظرف، ٢ج، تحقيق مفيد محمد قميحة، ط٢، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٩٨٦م).

*** ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).**

٧- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة (القاهرة – ١٩٦٣م).

٨- الكامل في التاريخ، ١٠ج، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، ط٤، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٦م).

٩- اللباب في تهذيب الأنساب، ٣ج، دار صادر (بيروت – ١٩٨٠م).

*** ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي الأندلسي (ت٨٩٦هـ/ ١٤٩١م).**

١٠- بدائع السلك في طبائع الملك، ٢ج، تحقيق علي سامي النشار، وزارة الإعلام (بغداد، د – ت).

*** الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد بن طلحة (ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م).**

١١- تهذيب اللغة، ١٥ج، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي (بيروت – ٢٠٠١م).

*** الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).**

١٢- المسالك والممالك، دار القلم (ل.م – ١٩٦١م).

*** الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٦م).**

١٣- الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة – ١٩٣٨م).

*** ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة (ت٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م).**

١٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة (بيروت – ١٩٦٥م).

*** أقسرائي، محمود بن محمد (من مؤرخي القرن ٨هـ/ ١٤م).**

١٥- تاريخ سلاجقة مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار، تصحيح عثمان نوران (ل.م، د – ت).

*** الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م).**

١٦- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب (القاهرة – ١٩٦٨م).

*** البراقي، السيد حسين السيد أحمد النجفي (ت١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م).**

١٧- تاريخ الكوفة، تحقيق ماجد بن أحمد العطية، استدراك محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية (ل.م – ١٤٢٤هـ).

*** ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).**

١٨- تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مطبعة الاستقامة (القاهرة – ١٩٦٧م).

*** البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م).**

١٩- الفرق بين الفرق، منشورات محمد علي بيضون، ط٣، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٥م).

*** البكجري، علاء الدين مغلطاي بن قلج الحنفي (ت٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م).**

٢٠-مختصر تاريخ الخلفاء، دراسة وتحقيق آسيا كليبان، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٣م).

*** البنداري، الفتح بن علي الأصفهاني (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).**

٢١- تاريخ دولة آل سلجوق، ط٢، (بيروت – ١٩٧٨م).

*** التطيلي، بنيامين بن يونة النباري الأندلسي (ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣م).**

٢٢- رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية (بغداد – ١٩٤٥م).

*** ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م).**

٢٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ج، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (القاهرة، د – ت).

*** الجاحظ، عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م).**

٢٤-مناقب الترك، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي (القاهرة – ١٩٦٤م).

*** ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد الأندلسي (٦١٤هـ/ ١٢١٧م).**

٢٥-رحلة ابن جبير المعروفة باسم اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، دار التراث (بيروت – ١٩٦٨م).

*** الجزائري والتونسي، محمد بن عبد الكريم (ت٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) ومحمد بن مرزوق (ت١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م).**

٢٦-رسالتان في أهل الذمة، تحقيق عبد المجيد الخيالي، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٠م).

*** ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).**

٢٧- أخبار الظرّاف والمتماجنين، اعتناء القدسي (دمشق – ١٣٤٧هـ).

٢٨-تلبيس ابليس، تحقيق محمد بن الحسن بن إسماعيل، وسعد عبد الحميد السعدي، ط٢، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٢م).

٢٩- صفة الصفوة، ٤ج، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواسي قلعة چي، ط٢، دار المعرفة (بيروت - ١٩٧٩م).

٣٠- صيد الخاطر، تحقيق ناجي الطنطاوي، مراجعة وتعليق علي الطنطاوي، ط٣، دار الفكر (دمشق - ١٩٧٩م).

٣١- المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، مطبعة الأوقاف (بغداد - ١٩٧٦م).

٣٢- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨ج، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة وتصحيح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، (بيروت، د - ت).

*** ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).**

٣٣- لسان الميزان، ٧ج، تحقيق دائرة المعارف النظامية، ط٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت - ١٩٨٦م).

*** ابن الحداد، محمد بن منصور بن حبيش الواعظ (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).**

٣٤- الجوهر النفيس في سياسة الرئيس (بيروت - ١٩٩٣م).

*** ابن حزم، عمر بن أحمد بن سعيد (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٦٤م).**

٣٥- جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف (القاهرة - ١٩٦٢م).

*** الحسيني، صدر الدين علي بن ناصر (ت بعد ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م).**

٣٦-زبدة التواريخ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، ط٢، دار إقرأ (بيروت - ١٩٨٦م).

*** ابن حمّاد، أبو عبد الله محمد بن علي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٦٦م).**

٣٧- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق جلال أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر - ١٩٨٦م).

* **الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٦٦م).**

٣٨- معجم الأدباء، ٢٠ج، مراجعة وزارة المعارف العمومية، دار المأمون (القاهرة، د – ت).

٣٩- معجم البلدان، ٥ج، دار الفكر (بيروت، د – ت).

* **الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م).**

٤٠-الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مطبعة هيدلبرغ (ل.م – ١٩٨٤م).

* **ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م).**

٤١- صورة الأرض، مكتبة الحياة (بيروت، د – ت).

* **خسرو، ناصر (ت بعد ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م).**

٤٢- سفرنامة، نقله إلى العربية يحيى الخشاب، مطبوعات معهد اللغات الشرقية في جامعة فؤاد الأول (القاهرة – ١٩٤٥م).

* **الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م).**

٤٣- تاريخ بغداد، ١٤ج، دار الكتاب العربي (بيروت، د – ت).

* **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).**

٤٤- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المسمى بتاريخ ابن خلدون، ط٥، دار القلم (بيروت – ١٩٨٤م).

٤٥- المقدمة، دار القلم (بيروت، د – ت).

* **ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).**

٤٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦ج، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة – ١٩٤٩م).

* **الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م).**

٤٧- مفاتيح العلوم، دار الكتب العلمية (بيروت، د – ت).

* **ابن الدبيثي، محمد بن سعيد بن محمد (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م).**

٤٨- المختصر المحتاج إليه، تحقيق د. مصطفى جواد (بغداد – ١٩٥١م)

* **ابن دحية، عمر بن أبي علي (ت٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م).**

٤٩- النبراس في تاريخ الخلفاء، تحقيق عباس العزاوي، مطبعة المعارف (بغداد – ١٩٤٦م).

* **الدمشقي، شمس الدين محمد بن عبد الله القيسي (ت٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م).**

٥٠- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ٩ج، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة (بيروت – ١٩٩٣م).

* **الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).**

٥١- تاريخ الإسلام، ٥٢ج، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت – ١٩٨٧م).

٥٢-دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد ومحمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة – ١٩٧٤م).

٥٣- سير أعلام النبلاء، ٢٣ج، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد العرقسوسي، ط٩، مؤسسة الرسالة (بيروت – ١٤١٣م).

٥٤- العبر في خبر من غبر، ٥ج، تحقيق د. صلاح المنجد، ط٤ (الكويت – ١٩٦٠ – ١٩٦٣م).

* **الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م).**

٥٥- راحة الصدور وآية السرور، نقله إلى العربية إبراهيم الشواربي وآخرون (القاهرة – ١٩٦٠م).

* **ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م).**

٥٦- الذيل على طبقات الحنابلة، بعناية هنري لاووست وسامي الدهان، نشر منه المجلد الأول، المعهد الفرنسي للدراسات العربية (دمشق – ١٩٥١م).

* **الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م).**

٥٧- تاج العروس من جواهر القاموس، ٤٠ج، مجموعة من المحققين، دار الهداية (ل.م، د – ت).

*** سبط ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).**
٥٨- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مج٨، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن (الهند - ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٢).
*** السبكي، أبو نصر عبد الوهاب (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م).**
٥٩- طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ج، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، ط٢، دار هجر للطباعة والنشر (ل.م - ١٤١٣هـ).
*** السمرقندي، النظام العروضي أحمد بن عمر (ت٥٥٢هـ/ ١١٥٧م).**
٦٠- جهار مقالة أو المقالات الأربعة، تحقيق محمد عبد الوهاب القزويني، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب (القاهرة - ١٩٤٩م).
*** السمعاني، أبو سعيد بن أبي بكر (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م).**
٦١- أنساب العرب (ليدن - ١٩١٢م).
*** السموأل، عباس المغربي (ت٥٧٠هـ/ ١١٧٥م).**
٦٢- افحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه للنبي، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، ط٣، دار الجيل (بيروت - ١٩٩٠م).
*** السويدي، محمد أمين البغدادي (ت١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠).**
٦٣- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (النجف - ١٣٤٥هـ).
*** ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).**
٦٤- المحكم والمحيط الأعظم، ١٠ج، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٠م).
*** السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).**
٦٥- تاريخ الخلفاء، ط٢، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٥م).
*** أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).**
٦٦- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٤ج، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة (بيروت - ١٩٩٧م).

*** الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).**

٦٧- الملل والنحل، تصحيح واهتمام السيد جلال نائيني، ط٢ (طهران – ١٣٣٥هـ).

*** الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م).**

٦٨-طبقات الفقهاء، تهذيب محمد بن جلال الدين بن منظور، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي (بيروت – ١٩٧٠م).

*** الصابئ، أبو الحسن الهلال بن المحسن (ت٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م).**

٦٩- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، نشره أمدروز (بيروت – ١٩٠٤م).

٧٠- رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني (بغداد – ١٩٦٤م).

*** الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).**

٧١- الوافي بالوفيات، ٣٠ج، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث (بيروت – ٢٠٠٠م).

*** ابن الصلاح، تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).**

٧٢- طبقات الفقهاء الشافعية، ٢ج، تحقيق محي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية (بيروت – ١٩٩٢م).

*** الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م).**

٧٣- تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (القاهرة – ١٩٦٦م).

*** ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م).**

٧٤- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، شركة طبع الكتب العربية (القاهرة – ١٨٩٩م).

*** ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م).**

٧٥- بغية الطلب في تاريخ حلب، ١٠ج، تحقيق د. سهيل زكار (ل.م، د – ت).

*** العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م).**

٧٦- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٤ج، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية (بيروت – ١٩٩٨م).

*** العماد الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).**

٧٧- تاريخ دولة آل سلجوق، قرأه وقدمه د. يحيى مراد، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٤م).

٧٨- خريدة القصر وجريدة العصر، ٣ج، بعناية شكري فيصل (دمشق - ١٩٥٥ - ١٩٥٩م).

*** ابن العماد الحنبلي، أبو فلاح عبد الحي بن أحمد (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م).**

٧٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ج، تحقيق عبد القادر ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير (دمشق - ١٤٠٦هـ).

*** ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ/ ١١٨٤م).**

٨٠- الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق د. قاسم السامرائي (ليدن - ١٩٧٣م).

*** الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م).**

٨١- إحياء علوم الدين، ٤ج بمجلدين، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح (القاهرة - د - ت).

٨٢- فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة - ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م).

٨٣- المنقذ من الضلال، مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي، بعناية عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة (القاهرة - ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

*** الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت٥٩٠هـ/ ١١٩٣م).**

٨٤- تاريخ ابن الأزرق الفارقي، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت - ١٩٠٨م).

*** أبو الفدا، الملك المؤيد إسماعيل بن محمد (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).**

٨٥- تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية (باريس - ١٨٤٠م).

٨٦- المختصر في أخبار البشر، دار البحار للترجمة والتأليف (ل.م، د - ت).

* **الفرّاء، أبو يعلى محمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).**

٨٧- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة الحلبي (القاهرة – ١٩٦٦م).

* **فريد بك، محمد بن فريد بن أحمد (ت١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م).**

٨٨- تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس (بيروت، د – ت).

* **ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد (ت٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م).**

٨٩- تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب، ج٤، ق١، تحقيق مصطفى جواد (دمشق، د – ت).

* **الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م).**

٩٠- القاموس المحيط، دار الجيل (بيروت، د – ت).

* **ابن قاضي شهبة، بدر الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٧م).**

٩١- الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد (بيروت – ١٩٧١م).

* **القاضي النعمان، أبو حنيفة بن محمد بن منصور (ت٣٦٣هـ/ ٩٧٣م).**

٩٢- المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، دار المنتظر (بيروت – ١٩٩٦م).

* **القرماني، أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م).**

٩٣- أخبار الدول وآثار الأول، عالم الكتب (بيروت – د – ت).

* **القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).**

٩٤- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت – ١٩٦٠م).

* **ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).**

٩٥- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت – ١٩٠٨م).

* **القلقشندي، أحمد بن علي الفزاري (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م).**

٩٦- صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ١٤ج، تحقيق عبد القادر زكار، وزارة الثقافة (دمشق – ١٩٨١م).

٩٧- مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ٣ج، تحقيق عبد الستار أحمد فرج، ط٢، مطبعة حكومة الكويت (الكويت – ١٩٨٥م).
*** ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).**
٩٨- البداية والنهاية، ١٤ج، مكتبة المعارف (بيروت – ١٩٧٧م).
*** الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).**
٩٩- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة الحلبي (القاهرة – ١٩٦٦م).
*** المجلسي، محمد باقر (ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م).**
١٠٠- بحار الأنوار، ١١٠ج، ط٢، مؤسسة الوفاء (بيروت – ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
*** مجهول (كان الكتاب منسوب لابن الفوطي خطأ).**
١٠١- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، المكتبة العربية (بغداد – ١٩٣٢م).
*** مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م).**
١٠٢- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، نشره أمدروز (ل.م – ١٩١٤م).
*** ابن المعمار، محمد بن أبي المكارم (ت٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م).**
١٠٣- الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرون، مطبعة شفيق (بغداد – ١٩٥٨م).
*** المقدسي، محمد بن أحمد البشاري (ت٣٧٥هـ/ ٩٨٥م).**
١٠٤- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط (بيروت، د – ت).
*** المقري، أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م).**
١٠٥- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ٧ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر (بيروت – ١٣٨٨هـ).
*** المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).**
١٠٦- إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ٣ج، الأول تحقيق جمال الدين الشيال والثاني والثالث محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، ١٩٦٧ – ١٩٧٣م).
١٠٧- السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه وضبط حواشيه محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية (القاهرة، د – ت).

١٠٨- المواعظ والأعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية (القاهرة – ١٢٧٠هـ).

*** المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت بعد ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م).**

١٠٩- التوقيف على مهمّات التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر (بيروت – ١٤١٠هـ).

*** ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م).**

١١٠- لسان العرب، ١٥ج، دار صادر (بيروت، د – ت).

*** ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م).**

١١١- المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة – ١٩٨١م).

*** النبهاني، يوسف بن إسماعيل (ت١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).**

١١٢- جامع كرامات الأولياء (القاهرة، د – ت).

*** ابن النجار، محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود البغدادي (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).**

١١٣- ذيل تاريخ بغداد، ١٨ج، دار الكتب العلمية (بيروت، د – ت).

*** ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت٣٧٧هـ/ ٩٨٧م).**

١١٤- الفهرست، تحقيق رضا تجدد (طهران، د – ت).

*** نظام الملك، حسن بن علي بن إسحاق (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م).**

١١٥- سياسة نامة (باريس – ١٨٩١م).

*** ابن نقطة، أبو بكر محمد بن عبد الغني (ت٦٢٩هـ/ ١٢٣١م).**

١١٦- تكملة الأكمال، ٤ج، تحقيق عبد القيوم عبد ريب النبي، جامعة أم القرى (مكة المكرمة – ١٤١٠هـ).

***النوبختي، أبو الحسن محمد بن موسى (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م).**

١١٧- فرق الشيعة (النجف – ١٩٣٦م).

*** النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).**

١١٨- نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ج، دار النهضة للطباعة والنشر (القاهرة – ١٩٤٢م).
*** النووي، يحيى بن شرف بن مري (ت٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م).**
١١٩- تهذيب الأسماء واللغات، ٣ج، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر (بيروت – ١٩٦٦م).
*** الهمذاني، رشيد الدين فضل الله (ت٧١٨هـ/ ١٣١٨م).**
١٢٠- جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي (القاهرة – ١٩٦٠م).
*** ابن الوردي، زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨).**
١٢١- تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى (تاريخ ابن الوردي)، ٢ج، دار الكتب العلمية (بيروت – ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).
*** اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م).**
١٢٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ٤ج، دار الكتاب الإسلامي (القاهرة – ١٩٩٣م).
*** اليزدي، محمد بن محمد النظام الحسيني (ت٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م).**
١٢٣- العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة د. عبد النعيم محمد حسنين وآخرون، مطبعة جامعة بغداد (بغداد – ١٩٧٩م).

ثالثاً: المراجع العربية والمعرّبة.

*** إسحاق، رفائيل بابو.**
١٢٤- أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، مطبعة شفيق (بغداد – ١٩٦٠م).
١٢٥- تاريخ نصارى العراق، مطبعة المنصور (بغداد – ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م).
*** الأطرقجي، رمزية.**
١٢٦- الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول (بغداد – ١٩٨٢م).
*** الآلوسي، د. عادل محي الدين.**

١٢٧- الخليفة المسترشد بالله العباسي ٥١٢ - ٥٢٩هـ/ ١١١٨ - ١١٣٥م)، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد - ١٩٨٩م).
١٢٨- الرأي العام في القرن الثالث الهجري، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد - ١٩٨٧م).
* **أمين، د. حسين.**
١٢٩- تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد - ٢٠٠٦م).
* **باشا، محمود حسين.**
١٣٠- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية (القاهرة - ١٩٦٦م).
* **بدوي، أحمد زكي.**
١٣١- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان (بيروت - ١٩٧٨م).
* **براون، إدوارد جرانيفيل.**
١٣٢- تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة إبراهيم أمين (القاهرة - ٢٠٠٤م).
* **تسيهر، أجناس جولد.**
١٣٣- العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وجماعته، دار الكتاب العربي (القاهرة - ١٩٥٩م).
* **التهامي، مختار.**
١٣٤- الرأي العام والحرب النفسية، دار المعارف (القاهرة - ١٩٦٧م).
* **جابر، سامية محمد.**
١٣٥- الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث، النظرية والتطبيق، دار المعرفة الجامعية (الأسكندرية، د - ت).

* **الجزراوي، أحمد.**

١٣٦- بغداد بعض الغريب والطريف من ماضيها الظريف، مراجعة وتقديم عبد الرزاق بيمار، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد – ٢٠٠٥م).

* **جفتن، جوفان دجور.**

١٣٧- الرأي العام في النظام الاشتراكي، ترجمة صادق الأسود (بغداد – ١٩٧٠م).

* **جواد وسوسة، مصطفى وأحمد.**

١٣٨- دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد – ١٩٥٨م).

* **حسن، حسن إبراهيم.**

١٣٩- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل (بيروت – ٢٠٠١م).

* **حسن وشرف، حسن إبراهيم وطه أحمد.**

١٤٠- عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، مطبعة الشبكشي (القاهرة – ١٩٤٧م).

* **حسنين، عبد النعيم محمد.**

١٤١- سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة – ١٩٥٩م).

* **حلمي، د. أحمد كمال الدين.**

١٤٢- السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية (الكويت – ١٩٧٥م).

* **حمادة، سعيد.**

١٤٣- النظام الاقتصادي في العراق، مطبعة الأمير (بيروت – ١٩٣٨م).

* **حمدي، حافظ أحمد.**

١٤٤- الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيزخان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية (القاهرة – ١٩٥٠م).

* **الخالدي، فاضل.**
١٤٥- الحياة السياسية ونظام الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري، دار الأديب (بغداد – ١٩٦٩م).
* **الخربوطلي، علي حسني.**
١٤٦-الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة – ١٩٦٩م).
* **خضر، سعد الدين.**
١٤٧- الرأي العام وقوى التحريك، مطابع الجمهورية (الموصل – ١٩٦٨م).
* **الخفاجي، محمد عبد المنعم.**
١٤٨- بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والإداري، مطبعة الفاروقية الحديثة (القاهرة – ١٩٥٠م).
* **الخلف، جاسم محمد.**
١٤٩- جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، ط٣، مطبعة دار المعرفة (القاهرة – ١٩٦٥م).
* **دراوور، الليدي.**
١٥٠- الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، ط٢، مطبعة الإرشاد (بغداد – ١٩٦٩م).
* **الدوري، د. عبد العزيز.**
١٥١- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مطبعة المعارف (بغداد – ١٩٤٨م).
١٥٢-دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة، السريان (بغداد – ١٩٤٥م).
١٥٣- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط٢، دار الطليعة للطباعة والنشر (بيروت – ١٩٧٨م).
١٥٤-مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ط٢، المطبعة الكاثوليكية (ل.م – ١٩٦١م).

* **ذياب، فؤاد.**
١٥٥- الرأي العام وطرق قياسه، مطابع الدار القومية (القاهرة – ١٩٦٢م).
* **رايس، تامارا تالبوت.**
١٥٦- السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفي الخوري وإبراهيم الداقوقي، مراجعة عبد الحميد العلوچي، مطبعة الإرشاد (بغداد – ١٩٦٨م).
* **ربيع، د. حامد.**
١٥٧- مقدمة في العلوم السلوكية، ط٢، دار الجيل للطباعة والنشر والخدمات الإعلامية (دمشق – ١٩٨١م).
* **رحمة الله، د. مليحة.**
١٥٨- الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، مطبعة الزهراء (بغداد – ١٩٧٠م).
* **رؤوف، د. عماد عبد السلام.**
١٥٩-خطط بغداد في دراسات المؤرخين المحدثين، دار المثنى (بغداد – ٢٠٠٢م).
* **روندو، بيير.**
١٦٠- النصارى في الشرق، مطبعة دار المكشوف (ل.م – ١٩٧٤م).
* **الزهراني، محمد مسفر.**
١٦١- نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ٤٤٧ – ٥٩٠هـ، مؤسسة الرسالة (بيروت – ١٩٨٢م).
* **أبو زيد، أحمد محمد.**
١٦٢- سايكولوجية الرأي العام ورسالته الديمقراطية، دار الهنا للطباعة (القاهرة – ١٩٦٨م).
* **زيدان، جرجي.**
١٦٣- تاريخ التمدّن الإسلامي، ط٤، مطبعة الهلال (ل.م – ١٩٣٥م).

* **السامرائي، د. خليل إبراهيم وآخرون.**
١٦٤- تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ١٣٢ - ٦٥٦هـ، ط٢، دار الكتب للطباعة والنشر (الموصل - ١٩٨٨م).
* **سعادة، د. صفية.**
١٦٥- من تاريخ بغداد الاجتماعي في الفترتين البويهية والسلجوقية، تطور منصب قاضي القضاة في الفترتين البويهية والسلجوقية، دار أمواج (ل.م - ١٩٨٨م).
* **سميسم، حميدة.**
١٦٦- نظرية الرأي العام، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد - ١٩٩٢م).
* **سيد، أيمن فؤاد.**
١٦٧- الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة - ٢٠٠٧).
* **شبّر، حسن.**
١٦٨- خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت - ٢٠٠١م).
* **شلبي، د. كرم.**
١٦٩- معجم المصطلحات الإعلامية، دار الشروق (القاهرة - ١٩٨٩م).
* **الصلابي، علي محمد.**
١٧٠- دولة السلاجقة، وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، المكتبة العصرية (بيروت - ٢٠٠٧م).
* **ضيف، شوقي.**
١٧١- العصر العباسي الثاني، ط٢، مطبعة دار المعارف (القاهرة - ١٩٧٥م).
* **الطائي، د. سمير.**
١٧٢- العنف السياسي في بلاد الرافدين، دراسة في جذوره التاريخية، دار دجلة (عمان - ٢٠٠٩م).

* **طرخان، إبراهيم علي.**

١٧٣- النظم الاقتصادية في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة، (القاهرة – ١٩٦٨م).

* **طقوش، محمد سهيل.**

١٧٤- تاريخ الدولة العباسية، ط٥، دار النفائس (بيروت – ٢٠٠٥م).

١٧٥- تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق ٤٢٩ – ٥٩٠هـ/ ١٠٣٨ – ١١٩٣م، دار النفائس (بيروت – ٢٠١٠).

* **عبد القادر، حسنين.**

١٧٦- الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة، مطبعة الرسالة، (ل.م – ١٩٥٧م).

* **العبود، نافع توفيق.**

١٧٧- الدولة الخوارزمية، نشأتها وعلاقتها مع الدول الإسلامية، (بغداد – ١٩٧٨م).

* **علي، سعد إسماعيل.**

١٧٨- مبحث في القوة والأيديلوجيا، دار المعرفة الجامعية (الأسكندرية – ١٩٨٩م).

* **علي، سيد أمير.**

١٧٩- مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين (بيروت – ١٩٦٠م).

* **العلي، د. صالح الأحمد وآخرون.**

١٨٠- العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة (بغداد – ١٩٨٣م).

* **علي، وفاء محمد.**

١٨١- الزواج السياسي في عهد الدولة العباسية، دار الفكر العربي (القاهرة – ١٩٨٨م).

* **عمر، معن خليل.**

١٨٢- علم اجتماع المعرفة (بغداد – ١٩٩١م).

*** عيسى، محمد طلعت.**

١٨٣- الشائعات وكيف نواجهها (القاهرة – ١٩٦٤م).

*** غالب، مصطفى.**

١٨٤- تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس (بيروت، د – ت).

*** غني، قاسم.**

١٨٥- تاريخ تصوف در إسلام (طهران – ١٣٦٢هـ).

*** فهد، بدري محمد.**

١٨٦- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ٥٥٢ – ٦٥٦هـ/ ١١٥٧ – ١٢٥٨م، مطبعة الأرشاد (بغداد – ١٩٧٣م).

١٨٧- العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الأرشاد (بغداد – ١٩٦٧م).

*** فوزي، د. فاروق عمر.**

١٨٨- حكام بلاد فارس والعدوان على العراق خلال العصر العباسي، دار الشؤون الثقافية (بغداد – ١٩٨٨م).

*** فييه، جان موريس.**

١٨٩- أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسين زينة، دار المشرق (بيروت – ١٩٨٦م).

*** القزاز، محمد صالح داود.**

١٩٠- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ٥١٢ – ٦٥٦هـ، (النجف – ١٩٧١م).

*** القيسي، حسين علي قيس محمد.**

١٩١- طبيعة المجتمع العراقي في العصر العباسي المتأخر، دراسة اجتماعية ٤٤٧ – ٦٥٦هـ، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد – ٢٠٠٧م).

*** كحالة، عمر رضا.**

١٩٢- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة (بيروت، د – ت).

* **كورية، يعقوب يوسف.**
١٩٣-يهود العراق، تاريخهم، أحوالهم، هجرتهم، المطبعة الأهلية (لبنان – ١٩٨٨م).
* **كوهين، مارك.**
١٩٤- بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى، ترجمة اسلام دية ومعز خلفاوي (ألمانيا – ٢٠٠٧م).
* **الكيالي، عبد الوهاب وآخرون.**
١٩٥- الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت – ١٩٨١م).
* **لسترانج، غي.**
١٩٦- بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، المطبعة العربية (بغداد – ١٩٣٦م).
١٩٧- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس وكوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة (بيروت – ١٩٨٥م).
* **محمود والشريف، محمود أحمد وأحمد إبراهيم.**
١٩٨-العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط٥، دار الفكر العربي (ل.م، د – ت).
* **مصطفى، إبراهيم وآخرون.**
١٩٩- المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية (ل.م، د – ت).
* **المعاضيدي، د. خاشع.**
٢٠٠- دولة بني عقيل في الموصل، مطبعة شفيق (بغداد – ١٩٦٨م).
* **المعاضيدي، عبد القادر سلمان.**
٢٠١- واسط في العصر العباسي، دار الحرية للطباعة (بغداد – ١٩٨٣م).
* **المعاضيدي والجميلي، خاشع ورشيد عبد الله.**
٢٠٢- تاريخ الدويلات العربية والإسلامية في العصر العباسي في المشرق والمغرب (بغداد – ١٩٦٨م).
* **مقدسي، جورج.**

٢٠٣- خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة د. صالح أحمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد – ١٩٨٤م).

*** ناجي، د. عبد الجبار.**

٢٠٤- الأمارة المزيدية، دراسة في وضعها الاقتصادي والاجتماعي، دار الحرية للطباعة (بغداد – ١٩٧٠م).

*** النقيب، أحلام حسن مصطفى.**

٢٠٥- سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ٥٧٥ – ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ – ١٢٢٥م، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد – ٢٠٠٠م).

*** هنتس، فالتر.**

٢٠٦- المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي (عمان – ١٩٧٠م).

*** الوردي، د. علي.**

٢٠٧-دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، منشورات سعيد بن جبير (قم – ٢٠٠٥م).

٢٠٨- شخصية الفرد العراقي (بغداد ١٩٥١م).

٢٠٩- وعّاظ السلاطين، منشورات سعيد بن جبير (قم – ٢٠٠٥م).

*** الوزنة، علي حمزة عبد القادر.**

٢١٠- الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ٤٩٠ – ٥٥٢هـ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة – ٢٠٠٤م).

*** يحيى، أحمد عبد الهادي.**

٢١١- أهل الذمة في العراق من ٤٤٧ – ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ – ١١٩٣م، عالم الكتب الحديثة (عمان – ٢٠٠٤م).

رابعاً: الرسائل والأطاريح غير المنشورة.

*** إدريس، جاسم محمد كاظم.**

٢١٢- الأحوال الاجتماعية والفكرية لأهل الذمة في بغداد ٣٣٤ - ٦٥٦هـ/ ٩٤٥ - ١٢٥٨م، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية/ جامعة القادسية ٢٠٠٩م.

*** الأرحيم، سيماء فيصل محمد.**

٢١٣- أخبار الحجاج المسلمين في العصر العباسي ١٣٢ - ٦٥٦هـ/ رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة الموصل، ٢٠٠٩م.

*** الجبوري، حمد أسود خلف.**

٢١٤- العلاقات بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة ٤٤٧ - ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ - ١١٩٣م، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية/ جامعة تكريت، ٢٠٠٥م.

*** الحديدي، محمد علي حميد.**

٢١٥- العلاقات السلجوقية الفاطمية ٤٤٧ - ٥٦٧هـ/ ١٠٥٥ - ١١٧١م، دراسة سياسية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة الموصل، ٢٠٠٩م.

*** حسن، صالح رمضان.**

٢١٦- مقاومة الخلافة العباسية للنفوذ السلجوقي في العراق ٥١٢ - ٥٥٥هـ/ ١١١٨ - ١١٦٠م، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة الموصل، ١٩٨٧م.

٢١٧- الفتوة في عهد الخليفة الناصر لدين الله ٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ - ١٢٢٥م، الدوافع والأهداف، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة الموصل، ٢٠٠٠م.

*** الخزاعي، لينا مقيم جبار عبد الرسول.**

٢١٨- الحلة في العصر العباسي الأخير ٥٤٥ - ٦٥٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢٥٨م رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية/ جامعة بابل، ٢٠٠٩م.

*** الدهش، محمد عبد الله سمير.**

٢١٩- الوزير العباسي عون الدين يحيى بن هبيرة، حياته ودوره الإداري، والعسكري، والفكري، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة الأنبار، ٢٠٠٩م.

*** العابدي، حيدر مزهر عسكر.**

٢٢٠- العلاقات البيزنطية – الفاطمية، دراسة في التاريخ السياسي والعسكري (٢٩٧ – ٤٨٧هـ/ ٩٠٩ – ١٠٩٤م) رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية/ جامعة واسط، ٢٠٠٨م.

*** أبو عزة، عبد الله محمد.**

٢٢١- الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة ٤٤٧ – ٥٦٧هـ/ ١٠٥٥ – ١١٧١م أطروحة دكتوراه مقدمة إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٦٩م.

*** محسن، إبراهيم جدوع.**

٢٢٢- إمارة البطائح، دراسة في أحوالها السياسية والفكرية منذ القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة البصرة، ١٩٨٦م.

*** محمد، كريمة سلمان.**

٢٢٣- المقاومة العربية للاحتلال السلجوقي ٤٤٧ – ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ – ١١٩٣م رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية الأولى/ جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

*** مطشر، رعد زهراو.**

٢٢٤- عصر الخليفة المقتفي لأمر الله ٥٣٠ – ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ – ١١٦٠م رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة البصرة، ١٩٨٧م.

*** يونس، عفيف عريبي.**

٢٢٥- تطور الفكر الإمامي في العراق خلال العصر السلجوقي ٤٤٧ – ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥ – ١١٩٣م رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة الكوفة، ٢٠١٠م.

خامساً: البحوث والمقالات.

*** جواد، د. مصطفى.**

٢٢٦- أولية الشرطة، أطوارها وأصنافها عند العرب، مجلة الشرطة، العدد ١ سنة ١٩٦٣م.

*** الداهري، خلف عبد الجليل ياسين.**

٢٢٧- مفهوم الرأي العام، مجلة الآداب، جامعة بغداد، العدد ٧١، سنة ٢٠٠٥م.

*** زايد، محمد السعيد.**

٢٢٨- الجمهور والرأي العام، مجلة البحوث، جامعة اليرموك، العدد ٢٠، سنة ١٩٧٨م.

*** فوزي، د. فاروق عمر.**

٢٢٩- الخلفاء والفقهاء نظرة تاريخية في المظاهر الدينية للسياسة العباسية، مجلة آفاق عربية، العدد ١٢، سنة ١٩٨٠م.

*** المعاضيدي، عبد القادر سلمان.**

٢٣٠- التنظيمات الإدارية بواسط في العصر العباسي، مجلة الأستاذ، كلية التربية، جامعة بغداد، العدد ٢، سنة ١٩٧٨ – ١٩٧٩م.

٢٣١-خطط مدينة واسط في العصر العباسي، مجلة سومر، مج٣٤، سنة ١٩٧٨م.

*** ناجي، د. عبد الجبار.**

٢٣٢- ثورة البساسيري في بغداد ٤٤٧ – ٤٥١هـ/ ١٠٥٥ – ١٠٥٩م مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد٥، السنة الرابعة، ١٩٧١م.

سادساً: المراجع الأجنبية.

*** Albig, William**

233- Modern public opinion. Hall National. London, 1956.

*** Allport, Floud.**

234- Towared a science of public opinion ((in public opinion, 1973.

*** Canard, M.**

235- Basasiri, The Encyclopedia of Islam, New Edition.

*** Devison, W, Philip**.

236- Public opinion International Encyclopedia of the social sciences ((Crowell Collier and Machillia 1968)).

*** Hennessy, Bernard.**

237- Public opinion 3rd Edition ((North scituate Massachus Duxburg press – 1975)).

*** Makdisi, George.**

238- Ibin Aqil et la resurgence de 'Islam traditiona liste au xie siecle. Damas Institute Francais de Damas. 1963.

*** Siddiqi, A, H.**

239- Caliphate and Kingship in Medieval Persia, Islamic Culture, vx1 1937.

*** W. Doop, Leonard.**

240- Public opinion propaganda Hamden Archon books, New York, 1966.

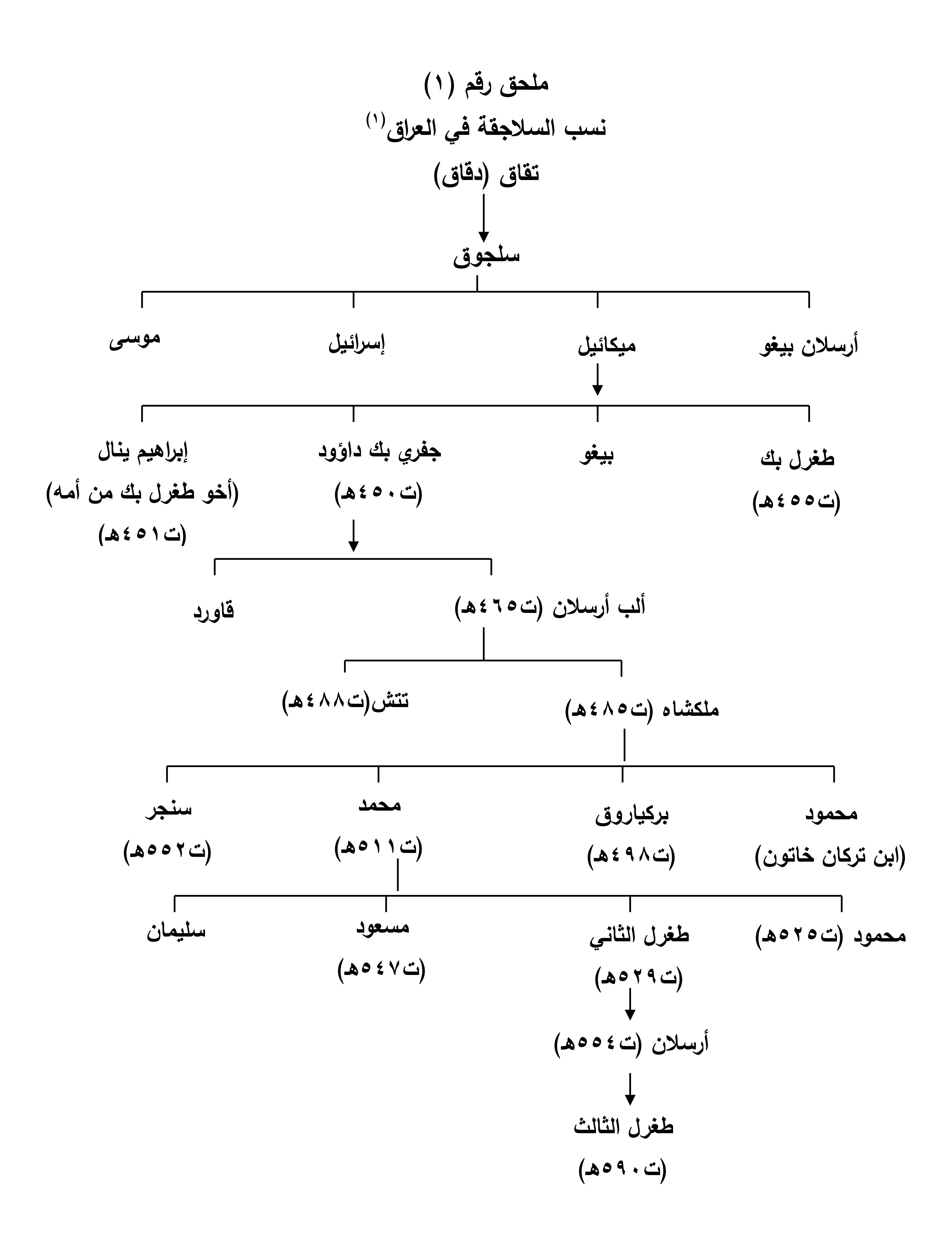
سابعاً: مواقع شبكة المعلومات الدولية (Internet)

241- www.brynmawr.edu

242- www.wikepida.com

ملحق رقم (١)

نسب السلاجقة في العراق[1]



---

[1] أمين، تاريخ العراق، ج٢/ ص١٤٠.

ملحق رقم (٢)

أسماء الخلفاء العباسيين الذين حكموا أثناء السيطرة السلجوقية[١]

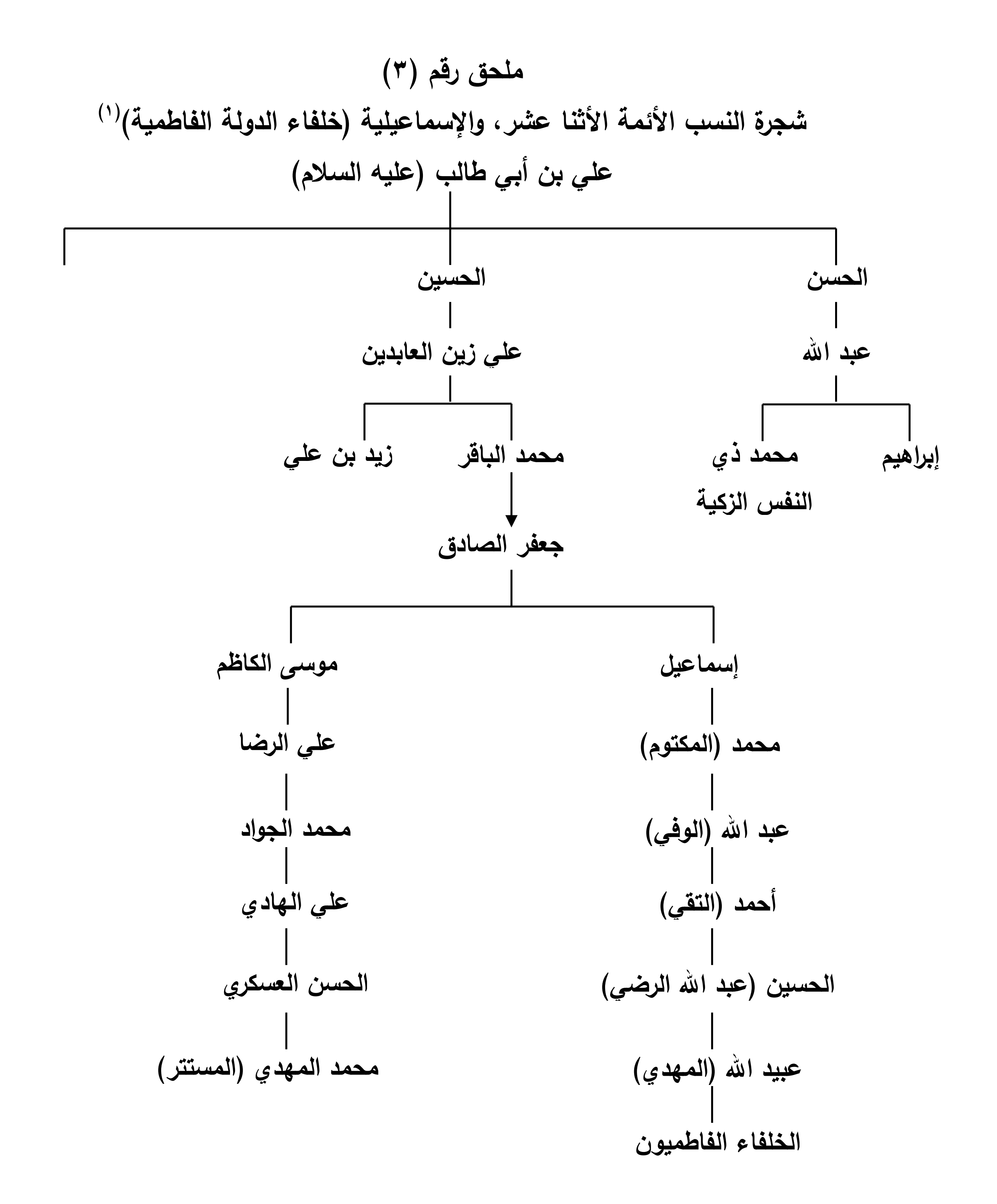
ت	أسم الخليفة	سنوات حكمه هـ	سنوات حكمه م	مدة حكمه هـ
١	أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله ابن القادر.	٤٢٢-٤٦٧	١٠٣٠-١٠٧٤	٤٥ سنة
٢	أبو القاسم عبد الله عدة الدين المقتدي بأمر الله بن محمد ابن القائم.	٤٦٧-٤٨٧	١٠٧٤-١٠٩٤	٢٠ سنة
٣	أبو العباس أحمد المستظهر بالله ابن المقتدي.	٤٨٧-٥١٢	١٠٩٤-١١١٨	٢٥ سنة
٤	أبو المنصور الفضل المسترشد بالله ابن المستظهر.	٥١٢-٥٢٩	١١١٨-١١٣٤	١٧ سنة
٥	أبو جعفر المنصور الراشد بن المسترشد.	٥٢٩-٥٣٠	١١٣٤-١١٣٦	١ سنة
٦	أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله ابن المستظهر.	٥٣٠-٥٥٥	١١٣٦-١١٦٠	٢٥ سنة
٧	أبو المظفر يوسف المستنجد بالله ابن المقتفي.	٥٥٥-٥٦٦	١١٦٠-١١٧٠	١١ سنة
٨	أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد.	٥٦٦-٥٧٥	١١٧٠-١١٧٩	٩ سنة
٩	أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ابن المستضيء.	٥٧٥-٦٢٢	١١٧٩-١٢٢٥	٤٧ سنة

---

[١] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٣٣- ٣٦٦.

ملحق رقم (٣)

شجرة النسب الأئمة الأثنا عشر، والإسماعيلية (خلفاء الدولة الفاطمية)[١]



---

[١] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١/ ص٣٠٩؛ الطائي، العنف السياسي في بلاد الرافدين، ج٢/ ص١٧١.

Abstract

This study deals with ((The public opinion in Iraq at the Seljuk reign age ((447-590A.H/1055-1193A.D)) The public opinion in a society means the people's views and their agreement to something which relates to phenomenon, belongs to political, social or economic issues .It may also be of a local or an international side which revolves around .This matter has the force of the impact on the issue or topic which concern with.

The reason for choosing this subject is to write a topic which was not addressed or chosen by researchers in previous time .According to above reason; I choose my topic which relates to public opinion in Iraq in Seljuk reign in the period that mentioned above.

The importance of this issue releases from the disclosure of the role of public opinion of the parish, the Authority and Senate and some of the lords of the ruling class in political ,social, and economic events .In addition, the high-ranking people who participate in the last events with an indication of tendencies in public opinion and their importance and its role in making decisions concerning with the public affairs

This study consists of an introduction, four chapters and a conclusion .after analyzing the sources which are explained in Introduction, we talked again about the concept of public opinion and its types.

The first chapter has devoted to study the general situation in Iraq at the Seljuk reign age and its impact for formation the public opinion . On first section of this chapter deals with political situations and its impact for complaint the peoples ,second section deals with social conditions (social differentiation) .On other side, we have faithful strata of society and attributes, society elements and religious groups, the third section has devoted to study the intellectual structure of the Iraqi personage and its

impact for contributing in views of public opinion and the fourth section has either devoted to study the economic conditions in Iraq.

In chapter II ,first ,We talk about violation of Seljuk power and its impact in provoking views of public opinion, In addition we mentioned in the first section the violation of sultans , princes and their followers, .Second, section includes the violation of senior staff who belongs to authority and administrative corruption of senior officials.

The third chapter discuss the public opinion about looting and assassinations, we can classify this chapter into :the first section dealt with the attitude of local leaders and desert tribes, the second section deals with Yaron violation against people. The third section talks about the views of public opinion towards the policy and ideas of Ismailia then the process of assassinations which carried out against political and religious groups in Iraq.

The fourth chapter deals with the personages and social phenomena .It have dealt with the views of public opinion toward jurists and scholars as a first section. Second section is devoted for council of preaching, the third one the phenomenon of degeneration. Finally, fourth section is devoted for religious and beliefs problems.

At last, conclusion includes the important results which are discovered by my study like that the view of the public opinion in Iraq was active and influential. It was not servile against violations of persecutors. It was not silent toward the squatters on the sanctity of people and their property .Then the public opinion play several ways to express on its complaint like direct complaint and direct clashes by joining with the state army to defend on their interests and dignity. Finally, demands of peoples were achieved by defeating Seljuk and their followers.

Ministry of Higher Education
& Scientific Research
University of Wassit / College of Education

The Public opinion in Iraq at the Seljuk reign age
"447-590 A.H / 1055-1193 A.D "

Thesis submitted by

Thamir Noaman Mustaf

To the council of the college of Education / University of Wassit, which in partial fulfillment of the Requirements for Ph.D. degree in Islamic history

Supervised by
Prof.Dr.Fadhil Jabir Dhahi

1432 A.H 2011 A.D